الكتاب: البحث عن الروح (رواية)

المؤلف: بوجمعة حدوش

التنسيق والتدقيق اللغوي: مصطفى قدوري

الطبعة الأولى:

رقم الإيداع القانوني: ----

الترقيم الدولي: ----

الناشر:

إهداء

إهداء إلى النفوس الطيبة التي تحب الإصلاح وتسعى له، وتبغض الإفساد وتفر منه.

خُلِقْتُ وحيدا

(1)

خواطر شتى تتجاذبها وهي في ساحة مركز الوفاء الاجتماعي لرعاية المسنين، تجلس على كرسيها المعتاد الذي لا تزعزعه من مكانه، تجلس هناك لتسمح لذاكرتها بعبور سُور المركز، والخروج إلى العالم الفسيح الذي كانت تعيش فيه قبل أن تجد نفسها دون سابق إنذار أو إشعار في هذا المركز، هذه عادتها منذ سنوات، أن تستقبل بوجهها أشعة شمس الخريف الدافئة بعد كل ضحى، ثم تنطلق في ذكرياتها المؤلمة. أصعب شيء على نفسها هو أن تَتذكر، أن تُفكر، أن تجتر الذكريات. جُرحها يزداد عمقا كلما سمحت لذاكرتها برهة من الزمن بالسباحة حول طحالب مقززة ما زالت عالقة في ذهنها، تتجاذبها خواطر شتى في هذا المكان، هل تسمح لذاكرتها بالعودة إلى الماضي، أم تجعلها حبيسة هذه الجدران؟

الدموع توقفت عن الجريان من منابع عيونها منذ بضع سنوات بعد أن رسمت واديين من الحزن على خديها، لكن ما زال في القلب جرح غائر، لم تصدق إلى حد الآن أنها في

مركز رعاية المسنين، في دُور العجزة، لم تصدق رغم مرور كل هذه السنين أن ولدها البار رماها بعيدا عنه، ولدها البار! هذا ما لا تصدقه، لكن ما عساها أن تفعل، لم تستطع التصديق؟ ابنها الذي ربته، اهتمت به، وجعلت منه رجلا له شأنه في المجتمع يجرها جرا إلى هذا المركز، يا إلهي، هل تحلم؟ من يُصدِّق قصتها إذا سمعها منها؟ حتما سيُكذبونها، لا شك في ذلك! هل ما وقع لها حقيقة أم أنها تهذي؟ لا، بعد برهة يسيرة ستستفيق وستجد أن كل ما تعيشه كبوس مزعج، مجرد كابوس في حلم أسود لا أكثر، لكن في كل يوم تنتظر أن تستفيق من هذا الكابوس حتى طال عليها الليل، طال عليها الليل واسودت الدنيا في ناظريها، هذا كابوس حقيقي لا مفر منه إلا بالموت.

إذن ستفعل ما تفعله كل يوم، ستُجبر عقلها بالقوة على كبْتِ أفكارها، وتعطيلٍ مؤقتٍ لذاكرتها، آه كم تتمنى أن تكون دون ماض، دون ذاكرة، لكن ذاكرتها حية كحياة ابنها في هذا العالم القاسي، وحياتها ميتة كموت ابنها من قلبها الحنون، لا، لم يمت، ولن يموت، ربما سيأتيها يوما راكعا يطلب الصفح والغفران، ربما حدث شيء أكبر من أن يتحمله فجعله يرمي بها في هذا المكان.

انتبهت لتجد عقلها ما زال يُفكرها في هذا الموضوع الذي يؤلمها رغم أنها تحاول إيقاف شريط الذكريات الذي لم تبدأ

مشاهدته بعد، كثيرا ما تنجح في سَجْنِ ذكرياتها في سِجْنِ ذاكرتها، وكثيرا ما لا تنجح في ذلك أيضا، لابد أن تُشغل نفسها بشيء تُوقف به شلال الذكريات المتدفق بإزعاج مقصود. جاءها الخلاص، هاتفها يرن، من يكون المتصل يا ترى؟ بل متصلة... صديقتها إحسان، تطلب منها صديقتها بإلحاح رؤيتها في الحال، لا مجال لتتأخر عليها، هي على كل حال تنتظرها قرب مركز الوفاء.

دُهشت الحاجة رحمة من اتصال صديقتها المفاجئ! صوت صديقتها كان على غير ما يرام، ميزت نبرة القلق فيه، ما الذي حصل؟! ستعرف بعد قليل، نهضت عن كرسيها وتحركت بخفتها المعتادة. هي امرأة ما زال فيها شيء من الحيوية والنشاط، ما زالت التجاعيد لم تزر وجهها بقوة، ما زالت كثير من الأسنان في فمها، هي ليست مسنة في نظرها، لم تصل بعد إلى مرحلة الشيخوخة بحسب رأيها، صحيح أنها تجاوزت الستين بسنتين أو ثلاث فقط، لكن لِمَ سيقال عنها إنها مسنة؟ إذا تجرأ أحدهم ووصفها بالعجوز المسنة فستكسر رأسه بعصاها التي تتوكأ عليها، ولها فيها مآرب أخرى، لكن أي وصف عمري ستعزوه لنفسها إن كانت تعيش في دار المسنين، وفي الستين، أكيد أنا عجوز مسنة وإن لم أكن كذلك.

استأذنت الحاجة رحمة من مديرتها في مركز الوفاء الاجتماعي لمغادرته مؤقتا، خرجت لتجد قرب الباب مديرتها الأخرى إحسان تنتظرها، ركبت بجانبها وانطلقت بها بسيارتها كالضوء إلى وجهة معلومة عندها.

ـ ما الخَطب يا إحسان؟ ما هذا الذعر على وجهك؟

ـ وحيد.

ـ وحيد!؟ ماذا حصل له؟ ماذا وقع لابني؟ أحدث له مكروه؟

ـ لا تقلقي يا حاجة رحمة سيكون بخير، سقط صندوق فوق رأسه وأغمي عليه، أخذناه إلى المستشفى، اكتشفنا أنه ربما فَقَدَ ذاكرته، لم يعد يتذكر شيئا غير اسمك.

دارت الدنيا بالحاجة رحمة، دارت بها السيارة التي ما زالت تكمل طريقها وتبتلع الشوارع ابتلاعا نحو المستشفى الجامعي ابن رشد حيث يرقد وحيد، لم تعد ترى الطريق إلا مضببا، ولا أبنية مدينة الدار البيضاء وارتفاعاتها الشاهقة إلا خيالات، ما هذا الحب الذي تُكنه لهذا الولد؟ لماذا تحبه كل هذا الحب؟ لماذا لا تستطيع أن تتحمل ولو شوكة تصيبه؟ هل لأنه يتيم لا أب ولا أم له؟ لكن ليس هو اليتيم الوحيد، فلمَ تفضله على غيره من زملائه؟

لم تُعلِّق الحاجة رحمة بشيء بعدما سمعت من صديقتها إحسان المصيبة التي حلت بوحيد، ولم تضف إحسان على ما قالته غير الصمت والسكون، كانت صامتة كصمت وجهها، ملامح وجهها يغلب عليها الهدوء والوقار، شخصيتها بحجابها وجلبابها الفضفاض يزيدها وقارا واتزانا، يَظهر من مظهرها الخارجي أنها متماسكة وثابتة، لكن الحقيقة عكس ذلك، حقيقة أمرها تُبطنها، خبيئة نفسها ودواخلها تتستر عليها، تُخفي ضجيجا صاخبا يشتعل في قلبها، ضجيجُ لومٍ وعتاب على ذاتها، تتهم ذاتها بالتقصير، تقصير أدى إلى وقوع هذه الحادثة لوحيد.

إحسان هي مديرة جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، امرأة اقتربت مِن عتبة الخمسين مِن عمرها، ووحيد هو الفتى اليتيم الأكبر في الجمعية، كانت تُكلِّفه أحيانا بالقيام ببعض المهام في الجمعية، تُنيط إليه رَص الكراسي والطاولات التي يأكل عليها الأطفال اليتامى، وتنظيم جلوسهم، وإحضار الطعام لهم، هذه الأعمال تقوم بها المربيات المكلفات برعاية أطفال الجمعية، ومن بينهم الحاجة رحمة، لكن بحسن نية إحسان أنها تجعل وحيد يساعدهن في ذلك حتى يُنمي شخصيته، وحتى يستطيع الاعتماد على نفسه بعد خروجه من المَيتم، لذلك لم تكن تعلم عندما طلبت منه أن يحضر صندوقا ثقيلا من رُفٍّ، مُرتفعٌ عن

طوله بسنتيمترات، لم تكن تعلم أنه سيسقط عليه ويُرديه فاقدا للوعي، أخذته على وجه السرعة إلى المستشفى ليفاجئها الطبيب بعد إجراء الفحوصات له، أنه فقد ذاكرته، وأنه لم يعد يتذكر إلا اسم "أمي رحمة".

الحاجة رحمة في الحقيقة ليست أمه، هو مثله مثل باقي أولاد الميتم، متخلى عنهم من طرف آبائهم، لكن الحاجة رحمة اختارته عن باقي الأطفال الآخرين لكفالته، فهي وإن كانت تقيم بمركز الوفاء الاجتماعي لرعاية المسنين، إلا أنها متطوعة في جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، تقوم فيها مع غيرها من المربيات على شؤون الأطفال، تخدمهم، تحسن إليهم، وفي المساء تعود إلى مقر سكناها بالمركز الاجتماعي القريب من الجمعية.

انضمت إلى الجمعية كمتطوعة لهذا العمل الخيري منذ سبع سنوات، وما أن رأت وحيد حينها حتى أحبته، بل تمنت أن يكون ولدا لها، لم يكن وحيد بوسامة جذابة أو لافتا للنظر حتى تحبه الحاجة رحمة كل هذا الحب، فكثير من الأولاد أصغر منه سنا وأكثر نضارة وإشراقا إلا أنها أحبته، كما أن أولئك الأطفال فيما بعد وجدوا أسرا تكفلت بهم، إلا هو، إلا وحيد، ربما لعدم جماله لم تتكفل به أي أسرة من الأسر الكثيرة التي تزور الجمعية بحثا عن أولاد يقومون على تربيتهم.

كان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة عندما عنَّ للحاجة رحمة أن تتكفل به، وذلك بأن تبقيه في الجمعية وتسهر على شؤونه عن قرب، وتمده أحيانا بما يحتاجه من حاجيات ونقود إذا توفر لها ذلك، وهكذا يتيح لها الأمر رؤيته أغلب أيام الأسبوع، وجعله قريبا منها، واعتباره ولدها الذي لم تلده من أحشائها.

استقرت السيارة بإحسان والحاجة رحمة أمام بوابة المستشفى، صعدتا السلالم بسرعة تُناسب سنيهما إلى الغرفة التي يرقد فيها وحيد وحيدا، أَذِنَ لهما الطبيب بالدخول إليه، عانقته الحاجة رحمة، كان متكئا على سريره، ذرفت الدموع على خديه عندما رأته وسمعته يكرر كلمة واحدة فقط، "أمي رحمة، أمي رحمة".

ـ هل حقا ما سمعتُه يا حبيبي وحيد؟ هل حقا لم تعد تتذكر شيئا؟

ـ لا أدري أمي، لا أدري ما الذي حصل لي، لا أعرف من أنا، وأين أنا، ومن هذه المرأة الواقفة بجانبك؟ لا أعرف شيئا، صدقيني أمي رحمة لم أعد أتذكر شيئا، وهذا يخنقني، يخنقني بشدة.

صاح بتلك الكلمات وأطلق لنفسه سكب العَبرات، أجهش بالبكاء والنحيب وصدره يعلو ويهبط وقد أحس بأنه يضيق عليه.

خرجت الحاجة رحمة وصديقتها إحسان من الغرفة لتسأل الطبيب عن حالته.

ـ لم أستوعب يا دكتور كيف لمجرد صندوق لم يُحدث في رأس وحيد إلا شجة بسيطة أن يُفقده عقله؟

كانت الحاجة رحمة مع إحسان تستفسر الطبيب باستغراب عن الفتق البسيط الذي أحدثه الصندوق في رأس وحيد فأدى إلى فقدان ذاكرته، سألته عن ذلك بينما كانوا يسيرون بخطىً بطيئة في ردهة المستشفى.

شرح لهما الطبيب بالتفصيل ما حدث لوحيد، أوضح لهما أن الذي وقع له هو فقدانه للذاكرة النفسي الفصامي، حيث يحدث تراجع مفاجئ في عملية التذكر، وخاصة فيما يتعلق بالسيرة الذاتية، لذلك لا يمكن إيجاد تفسير فسيولوجي لعدم قدرته على تذكر أحداث جرت معه خلال مدة معينة، ويتراوح هذا التراجع في التذكر ما بين عدة ساعات إلى سنوات؛ حسب حالة كل مريض، وقد تم تصنيف فقدان الذاكرة النفسي على أنه اضطراب فصامي، أي أن هذا النسيان أمر نفسي، يحتمل

حدوثه بسبب توتر عصبي، أو صدمة نفسية حديثة أو قديمة أصيب بها، أو قد يكون وراثيا، فربما أحد والديه تعرض من قبل لمثل ما تعرض له وحيد الآن.

وبينما كان يشرح الطبيب لهما حالة وحيد، باغتهما بسؤاله.

ـ هل تعرض وحيد لصدمات نفسية قوية مثل الحوادث المفاجئة وغير المتوقعة في هذه الأيام أو الأشهر القليلة الماضية؟

توقفت إحسان عن المشي تُفكر، توقف الطبيب والحاجة رحمة لوقوفها، نظرت إلى الأفق واضعة سبابتها فوق أنفها وإبهامها تحت ذقنها وقلّصت من مجال رؤية عينيها في تركيز شديد كأنها تستحضر أحداثا من حيِّز سحيق في ذاكرتها، وبعد برهة هتفت بخيبة أمل.

ـ لم يتعرض لأي صدمات نفسية، إلا أن ما يمكن أن أعتبره صدمة نفسية هو أنه كان على علم في هذه الأشهر الأخيرة بأن عليه مغادرة الميتم؛ فالقانون الذي ينظمنا في جمعية الإحسان لرعاية الأيتام ينص على حضانة الأطفال ورعايتهم ما لم يبلغوا سن الرشد؛ 18 سنة، وبعد بلوغهم هذا السن وجب مغادرتهم الميتم، ولحسن حظ الأطفال في جمعيتنا أنهم يجدون أسرا تتكفل بهم قبل بلوغهم هذا السن، أو جمعيات أخرى

ومراكز مهنية تهتم بالفتيان وترعاهم ما بعد سن 18 سنة، لكن لأول مرة في الجمعية يبلغ فتى عمره 18 سنة ولم يجد من يأخذه ويرعاه، لذلك عليه مغادرة الميتم للأسف الشديد، وأعتقد أن هذه هي الصدمة الوحيدة التي تلقاها.

وافقها الطبيب على ذلك، فهذه هي الصدمة النفسية التي احتفظ بها وحيد في عقله اللاشعوري، فقد كان عقله ينتظر أي حدث كيفما كان شأنه ليعبِّر به عن امتعاضه من هذه الصدمة، فجاء حدث الصندوق البسيط الذي أفقده ذاكرته ليكون نتيجة يُعبِّر بها عقله عن تلك الصدمة. فحالته كما قال الطبيب أقرب إلى نتيجة توقعات لِمَا ينبغي عليه التصرف حياله في واقعه بعد سماعه خبر عزمهم طرده، لذلك اختار عقله اللاشعوري أن يُنسيه من يكون بعد علمه أن الجمعية ستتخلى عنه، ففقَد ذاكرة الهوية فجأة، أي ذاكرته العميقة الخاصة بهويته والمعلومات الأساسية عنه (اسمه وتاريخ حياته)، وهذا يفسر لنا لمَ لمْ يعد يتذكر غير الحاجة رحمة، ربما لأنها كانت تحسن إليه، التفتَ الطبيب إليها ينتظرها أن توافق على ما قاله، فهزَّت الحاجة رحمة رأسها دلالة على التأكيد.

*****

(2)

أن يُرسل المرء لعقله الباطني رسالة لا شعورية مفادها أنه يرغب في نسيان نفسه، لا يريد أن يعرف عنها شيئا، لم يعد يُحبها، فلا يدل ذلك إلا على أن نفسه، تجرَّع معها علقما طول السنين، وسقته من عصير الصبار المر، ومن يلومه على ذلك؟ من يلوم يتيما وجد نفسه مذ أن عرف الحياة في ملجأ للأيتام؟ من يؤاخذ يتيما حُرم من حنان الأبوين على فقدان ذاكرته؟ لمَ لا يفقد ذاكرة الهوية ولا هوية له؟ لمَ لا ينشأ له انفصام في شخصيته ولا شخصية له، هو لا يدري ابن من يكون، وبأي ذنب جاء إلى هذه الدنيا الدنية ليُحرم مما يتمتع به غيره؟ ما دام الناس يجهلون كل شيء عنه حتى أصله، فلينسَ هو أيضا كل شيء يتعلق به حتى اسمه وفصيلته.

لكن وحيد وإن ضعف في لحظةٍ وفَقد ذاكرته، فليس هو ممن يستسلم لضعفه، ليس من صنف الأشخاص الذين يلجؤون إلى الدموع عند كل نائبة، علَّمته الحياة أن يكون رجلا، رجلا يُعلم الحياة معنى الرجولة، إذا عزم الوصول إلى هدفه فإنه يمضي

إليه رأسا في صمت دون ضجيج، كان هدفه مرسوما في ذهنه، أراد أن يتعرف على نفسِه، نفسُه التي تاهت عنه، أراد أن يبدأ حياته الجديدة وقد استوعب كل تفاصيلها، الناس يتعرفون على معارف لا يعرفونهم، ووحيد يريد أن يتعرف على نفسه التي بين جنبيه، التي هي أقرب إليه من غيره. ومَن هذا الذي سيحتاج إليه ليُعرِّفه على نفسه إذا لم تكن أمه المتكفلة به، الحاجة رحمة.

كان وحيد بجانب الحاجة رحمة جالسين على مقاعد اسمنتية في ساحة الميتم الخاصة بجمعية الإحسان، مال برأسه على صدرها، أخذت تداعب خصلات شعره المتجعد في صمت، تلفه بحنان وعطف يغمر كل زاوية من زوايا جسده. قد تكون المربيات في الجمعية وكل مَن علم بكفالة الحاجة رحمة لوحيد، قد يكونون كلهم صادقين في السؤال الذي يطرحونه على ذواتهم خُفية وجهرا، وهو؛ ما الذي أعجبها في هذا الفتى لتختار كفالته عن غيره؟ فهو إن كان متوسط الطول، معتدل البنية الجسدية، إلا أنه لا ينفرد بأي وصف خِلقي آخر يجعله متميزا عن غيره، شعره متجعد وملتوٍ، أذناه كبيرتان كصحن لاقط، رأسه دائري ككرة قدم، وجهه مستدير قليل اللحم، بشرته الجلدية سمراء خشنة مثل صخرة بها نقط سوداء كثيفة، وقد تضاعف النمش ظهورا على خده، أنفه بارزة الطول، لكن

وإن كان الناس أو بعضهم يعيبونه لقبح مظهر وجهه، إلا أن الحاجة رحمة تحب فيه كل ذلك، وتحب فيه رجاحة عقله، عقلُه الذي فقده، تحبه لخفة دمه التي تزوره أحيانا، خفة دمه التي لعلها لن تزوره بعد الآن.

رفع رأسه عن صدرها يتطلع في وجهها بخشوع، كانت نظراته غائبة عندما بدأت شفتاه تتمتم بكلام لم تفهمه الحاجة رحمة، بعدها أفصح لها بعض الإفصاح.

ـ أريد أن أعرف مَن أنا يا أمي رحمة.

رمقته بنظرات بلهاء لوهلة ولم تقل شيئا، أذهلتْه نظراتُها، حينها توسل إليها وألح عليها بجدية لا يخالطها مزاح اعتادت أحيانا أن تسمعه منه، ألح أن تُخبره مَن يكون، إذْ حسِب صمتها إخفاء منها لشيء تعرفه عنه، هو يعرف أن عليه مغادرة الميتم، فقد أصبح شابا ولم يعد طفلا، لذلك وقبل أن يجعل الدنيا تفتح له ذراعيها يريد أن يستقبل ذراعيها وهو مُدرك مَن يكون.

ترقرقت الدمعات في مقلتي الحاجة رحمة عندما سمعت من وحيد هذا الكلام، هي كذلك تعرف أن مديرة الجمعية ستطلب منه الاستعداد للمغادرة، لكن ليس بمقدورها أن تمنع ذلك أو أن تساعده في العثور على إقامة ولو مؤقتة، كيف تفعل ذلك وهي

ذاتها تقيم في دار المسنين، يا ليت ابنها وحيد مسن مثلها ليُقيم بالقرب منها بالجناح الخاص بالرجال في مركز الوفاء. ثم ماذا تعرف عنه لتخبره به؟ لا تعرف عنه إلا ما كان يعرفه عن نفسه قبل أن يفقد ذاكرته، لكن شعاع نظراته تُلح عليها الآن كي تقول شيئا، إذن فلتخبره بما تَدريه عنه، وإن كان الذي تعرفه لن ينفعه في شيء.

فماذا تعرف عنه؟ لا تعرف عنه إلا أن اسمه وحيد، مديرة الجمعية هي من اختارت له هذا الاسم، جاؤوا به إلى الميتم منذ ولادته رأسا، وعندما جاءت الحاجة رحمة إلى هذه الجمعية كمتطوعة لرعاية الأيتام كان عمره حينها إحدى عشرة سنة، أحزنها سوء معاملة أغلب المربيات له ولزملائه معه، أحزنها ذلك بشدة، حينها قررت أن تتكفل به وتجعل منه ابنا لها، وبموازاة مع ذلك ستُعامل الأولاد الآخرين في الميتم معاملة الأم لأبنائها، وها قد مرت سبع سنوات مذ تلك اللحظة، ولم تر منه إلا الخير، فتى طيب ذكي ومشاغب ومرح، لذلك أحبته بشدة، وآه لو يعلم كيف يحترق قلبها لفراقه المنتظر؟ كيف يمكن لها أن تفرط فيه ولا حول لها لتبذله لبقائه؟ أخشى ما تخشاه ألا تراه مرة أخرى.

ـ سأجن يا وحيد، سأفقد عقلي إن وقع لك مكروه، أرجوك لا تتركني وحيدة، لا تنس زيارتي متى سنحت لك الفرصة لذلك.

ختمت كلامها بالنشيج، لم تستطع الحاجة رحمة أن تكمل حديثها من شدة تأثرها فلجأت إلى النحيب والبكاء، غطست بوجهها المتقلص في كفيها ثم ملأتهما بالدموع، وحيد صموت يحترق قلبه هو كذلك، أُمٌّ أخرجتكَ من أحشائها رمتك بقلب بارد، وأُمٌّ تكفلت بك يتقطع قلبها لمجرد التفكير في فَقْدِك.

هدأت الحاجة رحمة أخيرا، أخذت وحيد وضمته لصدرها، بعد عناق طويل تذكرت أن إحسان ربما تعرف عنه ما يمكن أن تُخبره به، فأرشدته بأن يسألها عند مغادرته للميتم لعلها تنفعه بما تعرفه عنه.

*****

في الليل كان مستلقيا على ظهره في فراشه، ينظر لسقف غرفته بعينين زائغتين غائبتين، ذهنه يفكر في هذه الليلة الأخيرة له في هذا الميتم، حاول أن يتذكر شيئا عما عاشه في الميتم فلم يستطع، أراد أن يأخذ معه بعض الذكريات ليتذكرها بعد مغادرته هذا الفضاء الذي عاش فيه ثماني عشرة سنة، عمره كله، لكنه لم يفلح، لن يستطيع أن يأخذ معه إلا ذكريات قليلة جدا تتعلق بأمه رحمة، أمه هذه التي تكفلت به وأحبته، وآه كيف ستكون ليلتها هي أيضا وقد علمت أن حبيبها مفارقها غدا؟

لم يعلم كيف نام ليلة أمس؟ ما تذكره هو أن عقله كان شاردا يزحف على ذكريات غير موجودة في عقله، لعله يخترعها، أو لعلها كانت مخزنة في عقله الباطني، لا يهم، الآن عليه الاستعداد للرحيل، أحضر حقيبة ظهر، وضع فيها أغراضه البسيطة؛ بعض ملابس لا يدري هل ما زال الناس يلبسون مثلها أم تخلوا عنها، وأشياء بسيطة كانت معه في الميتم لا يدري أيحتاج منها شيئا خارجه؟

جاءت اللحظة التي تُذرف فيها الدموع، وتحترق فيها الأفئدة، وتختلج فيها المشاعر، وترقُّ فيها الأحاسيس، وتقشعر فيها الجلود والأبدان؛ لحظة الوداع، عانق كل زملائه في الميتم وقد اختلط بكاؤه ببكائهم، وتمتماته بتمتماتهم، لا يدري ما يقول ولا يدرون ما يقولون له، حتى المربيات اللواتي كانت السماجة تطغى عليهن والجفاء معه شديد بكين بشدة، أمطار من الدموع في الميتم، عواصف مزمجرة من المشاعر، لحظات قلَّ من يحبس فيها نفسه، لحظات تجبر القساة على البكاء، تجبر ذو كبرياء على نكس رأسه، تجبر أشحاء الدمع على ذرفها بسخاء. كل هذه الأجواء الحزينة قد يملكُ وحيد مشاعره فيها، وقد يملك الحروفَ والكلمات لوصفها والتعبير عنها، لكن كيف سيملك الآن مشاعره؟ وكيف سيملك حروف وصف حالة الحاجة رحمة وهي مقبلة عليه؟ يراها قد هرمت بين ليلة

وضحاها، لقد شاخت سنوات في ليلة واحدة، ارتعب قلبه، سألها مرتاعا بحروف متقطعة متهدجة يبكي مدرارا وهو يعانقها:

ـ أمي رحمة ما هذه الحالة التي أنت عليها؟ أرجوك لا تقطعي قلبي مرتين.

قالت وهي تعانقه بشدة وتضمه بقوة إلى صدرها:

ـ صدقني يا ولدي، لم أبكِ في حياتي ولم أتأثر مثلما تأثرت الآن، حتى في اليوم الذي تخلى فيه عني ابني الذي ولدته من أحشائي ورماني في دار المسنين.

تجمدت الدموع في عيني وحيد، جحظت عيناه، صمتت الدنيا كلها لتتركه يسمع هذه الكلمات وتنزل على قلبه حريقا لاهبا، كاد قلبه يتوقف مع توقف الزمان والمكان في تلك الأثناء، يُتمتم مع دخيلة نفسه مشدوها، "رماني في دار المسنين"، انتزع نفسه من حضن الحاجة رحمة شاخصا ببصره نحوها حائرا، أمسك مرفقيها بشدة والذهول يسيطر على نفسه.

ـ هل هذا يعني أن لكِ ابنا حي يرزق، ومع ذلك قام بالتخلي عنك؟

سألها مبهوتا وعيناه تكادان تَثبان من حدقتيهما، فما كان جوابها إلا غزارة الدموع والنحيب وتحريك رأسها بضعف وانكسار وأسى، انتُزعت روحه من ذلك العالم، طارت إلى عالم آخر، أراد أن ينسحب من العالم الذي لم ير فيه إلا الشر، أمٌ أو أبٌ يتخلى عن ابنه، ابن يتخلى عن أمه، ما هذه القلوب الجلفاء؟ أي فظاظة هذه؟ أي شراسة سوداء تستقر في قلوب هؤلاء؟ الآن بإمكانه أن يتسرب شعور الكره والبغض إلى قلبه، ويتذوق من هذا الشعور الذي لم يعرف طعمه مِن قبل، قد يبغض والديه الذين تخليا عنه، لكن لن يكون مثل بغضه لهذا الابن العاق الذي أحرق قلب أمه رحمة، سيكرهه، أعظم مقت سيكنه من الآن فصاعدا لهذا الابن الذي لا يعرفه، ولا يعرف عنه شيئا.

سألها عمن يكون ابنها هذا الذي سمحت له ذاته بوضع أمه في دار المسنين؟ فلم يكن سؤاله إلا وقودا يزيد من احتراق قلبها، وإيذانا لتسرب دموعها التي لم تستطع إطفاء نار فؤادها، فلم يسمع مع أنينها وشهيقها إلا كلمات متقطعة "حدث ذلك منذ ثماني سنوات... أغرب من الخيال يا ولدي... أغرب من الخيال... لا أصدق أن ابني فعلها بي... لا أصدق... لا أصدق...أغرب من الخيال، أغرب من الخيال...!!"

لم يشأ الإلحاح عليها أكثر وحالتها تنهار بين يديه، ودَّعها بعناق حار، أخبرها أنه سينصرف إلى مديرة الجمعية ليسألها عمن أتى به إلى هنا لعلها تعرفه، ليذهب للبحث عنه، ليذهب لإفراغ شحنات الغضب فيه، فهذا الذي تخلى عنه لا يستحق إلا أن يغضب في وجهه ويسبه سبا مقرفا.

طرق بكفه باب الإدارة التي تتواجد بها إحسان، سمعها تأذن له بالدخول، دخل وطلبت منه الجلوس على الكرسي الذي يقابلها، جلس وقد فصل بينهما مكتبها الممتلئ بالأوراق فوق سطحه، ما كاد يجلس حتى أظهرت تأسفها على ما حالت إليه أحواله، وأنها حزينة لفراقه، ستفتقده، ستشتاق إليه، لكن هذه هي القوانين المسطَّرة في هذه الجمعية، ثم إن الأطفال يتوافدون على جمعيتها بكثرة، فلا يمكن أن تتكفل الجمعية برعاية الكل، فعلى الأقل أن تتكفل بهم إلى بلوغهم سن الرشد، وبعدها هي متأكدة أنه سيكون في مقدورهم الاهتمام بأنفسهم، فهم سيصبحون رجالا.

ـ وأنت رجل يا وحيد، لن أخاف عليك، متأكدة أنك ستصير ذا أهمية في المجتمع، عدني أنك ستبذل ما في وسعك لتصل إلى شيء مرموق في وطنك يا وحيد.

كلمات لم يفهم وحيد معناها، "أطفال يتوافدون على الجمعية"، "ستصير ذا أهمية في المجتمع"، كيف ذلك؟ كيف يمكنه أن يصير مرموقا في مجتمعٍ يرمي بنسمات بريئة في الجمعيات الخيرية، كيف له ذلك وفي كل لحظة يتخلى هذا المجتمع عن أبنائه ويحرمهم من أسرهم.

حرك رأسه بشرود، أراد إخراجها من حرجها حيث أبان لها أن الأمر لا يستدعي كل هذا التأسف، هو على كل حال قرر البحث عن والديه، البحث عن أسرته، البحث عن الروح، البحث عن ذاته، هذا هو هدفه بعد خروجه من الميتم، يلزم منه أن يجد من تسببا في وجوده في هذا الكون، فما يريد أن يطلبه منها الآن هو فقط أن تساعده بما تعلمه عن أسرته أو عن أحد أبويه، وأن تخبره بمن أتى به إلى هنا، نظر إليها بحدة يقول.

ـ ولن أغفر لك إن أخفيت عني شيئا حتى لو كنتِ تعتقدين أنه سيجرح كرامتي التي فقدتها أصلا.

تأملته بإشفاق للحظات، بعدها مدت يدها إلى أحد الملفات فوق رفٍّ وراء ظهرها، وضعته على مكتبها مفتوحا، ثم أنشدت تقص عليه ما تعرفه عنه.

منذ ثماني عشرة سنة، وما زالت تتذكر ذلك اليوم بوضوح، يوم من الأيام الأخيرة من خريف 2002، كان يوما شاتيا

عاصفا، كأن الطبيعة غاضبة لهذا الخَطب الذي سيحدث بعد قليل، المطر يهطل بغزارة، الرياح تعصف بزمجرة تجعل الأشجار ترقص من شدة البرد والزمهرير، أغلقت النوافذ والأبواب حتى لا تتسرب الرياح إلى داخل الجمعية، فالرياح في الخارج مكفهرة، لا تسمع إلا صفيرها وبعثرتها لأكياس القمامات فتنثرها في كل اتجاه، لا تسمع إلا صوتها، لكن صوتها القوي كان يطرق باب مركز الجمعية بقوة، لا يمكن! لا يمكن أن تكون الرياح هي من تطرق الباب بهذه القوة! أصغت إحسان السمع بانتباه، سمعت مرة أخرى الطرقات تعود أشد مما كانت، تقدمت نحو الباب وفتحته بهدوء، لكن الرياح كانت غاضبة فدفعت الباب بقوة وجعلته يرتطم بالجانب الآخر من الحائط ويرتد نحوها، كأنها غاضبة من تأخرها في فتح الباب، ظهر وراء الباب رجل طويل القامة، رقيق الجسم، يقطر ماء، تقدم خطوات داخل فناء الجمعية، يحمل بين يديه خرقة مبللة، وتحتها قطع ثوب ربما وصلها البلل أيضا، ووسط كل تلك القطع من الأثواب، رضيع يمزق ببكائه ضجيج الكون، رضيع حديث الولادة، إن وضعتَ صراخه في كفة وصخب الرياح في كفة أخرى، ستميل كفة صراخ الطفل، كاد قلبها يتوقف وهي ترى ما لا تتحمل رؤيته، سألته:

ـ طفل من هذا؟!

ـ لا تسأليني، سأتركه في هذه الجمعية خير له من أن أتركه يموت أمام بابها، أو أن أرمي به لتفترسه الكلاب.

دُهشت من هذه الغلظة والخشونة، استغربت من مظهر يُظهر التدين والرحمة، وقلب وحش كاسر، لجم رده لسانها، خطفته من بين يديه بقوة، ألصقته بصدرها. لكن هذا الرجل لا يخفى عليها، تعرفه، أين رأته؟ تعصر ذاكرتها لتعرف، رجل طويل، لحيته كثيفة، لحية رجل متدين، بجلباب قصير، كيف أنه يدعي التدين في مظهره وهو بهذه القساوة؟ أعادت السؤال تستفسر عن ابن من هو هذا الرضيع.

ـ هو ابني، ابني أنا، سأعود لآخذه عندما يحين الوقت لذلك، لذلك لا تخبري أحدا بهذا الأمر.

ـ حسنا ما هو اسمك؟ حتى أسجله باسمك.

ـ أبو عائشة.

أبو عائشة إذن! عرفتْه، إنه الداعية الإسلامي الذي أخذت شهرته تنتشر بين الناس، الشيخ أبو عائشة، هذا الرجل الذي يدعو الناس إلى ترك الذنوب والرجوع إلى الله يفعل هذه المصيبة العظيمة، أحست بدوار يريد أن يُسقطها أرضا، تماسكت والرضيع بين يديها ترمقه بعينين تترقرقان بالدموع، رحل الرجل وترك الرضيع وحيدا.

ـ تركك وحيدا يا حبيبي الصغير.

حينها أسمته وحيد، ومن حينها تنتظر أبا عائشة هذا أن يعود ليأخذ ابنه، لكنه اختفى ولم يُر له أثر، ولم تعلم عنه شيئا من حينها، تخاله خرج من باطن الأرض ثم ابتلعته مرة أخرى ولم تسمح له أن يسير فوق ترابها.

*****

(3)

ويخرج هائما على وجهه، ويسير في كل الطرقات، يقطع الأزقة والشوارع، يمشي، أين يمشي؟ يسير، أي هدف يقصد؟ يمضي؟ إلى أي سبيل يمضي إليه؟ من أنا؟ أنا اليتيم، لا وجهة لي، أهيم على وجهي، كل الطرق تؤدي إلى هدفي، كل الشوارع غايتي، قدماه تقودانه إلى حيث ينتهي بهما المسير، إلى حدود الدنيا، هل للدنيا حدود؟ متى يصل إلى أطرافها؟ متى يُضنيه المسير؟ حتى يَتْعب عقله من التفكير.

ما أشبه اليوم بالأمس، بالأمس القريب، بالأمس الذي ولِد فيه، عندما تخلى عنه والده، حينها لم يكن يدري عن نفسه شيئا، لم يكن يدري معنى الشقاء، وها هو الآن يبلغ عقدين من الزمن إلا سنتين منه فتتجدد في حياته المعاناة عينُها، لكن الفرق أنه الآن يتجرعها تجرعا بإدراكه لها، فلا تشابه بين الأمس واليوم، بالأمس لم يكن يدري عن حاله شيئا، واليوم يدري، بالأمس لم يكن عاقلا لِما يحدث من حوله، ووالدُه يسير به في وسط غضب الطبيعة إلى جمعية رعاية الأيتام، أما اليوم

فهو مستوعب لأمره، وإن لم يُزمجر الكون لحاله، فإن نفسه التي بين جنبيه بركان عما قليل ستلفظ فوهتها ألسنة من اللهب، فتخلِي الناس عنه اليوم أشد على قلبه، وإن كان تخلي والده عنه أكثر مرارة في حلقه، والده! قالت إن أباه هو أبو عائشة! شيخ يدعو الناس إلى دين الإسلام، أيا ويلي ليتني لم أعرف، أيا سوءتاه ما سألتها، أيا فضيحتي لو كان لي أقران يعرفون ما أصبحتُ أعرفه عن نفسي لسخروا مني أبد الدهر، شيخ ذو لحية تركني وانصرف، أين أنت لأجد عندك جواب سؤال واحد فقط، لم تخليت عني؟ لم قذفت بي في أتون الميتم؟ هل خوفا من فضيحة، أم لعدم قدرتك على رعايتي؟ وفي كلتا الحالتين ذنبك لا يُغتفر. سألتُ مديرة الجمعية، هل أنا ابن زنى؟ هل يمكن أن أكون ثمرة حرام؟ توقفتْ عن الإجابة، هي لا تعرف بَعد الذي قالته عني شيئا، أن يتخلى عنك من كان سببا في وجودك مصيبة، وأن يتخلى عنك لأنك ابن زنى، فالمصيبة أعظم، فيا ملكوت السماوات اجعل المصيبة مصيبة واحدة رأفة بي وبه، رأفة بي أن يطمئن قلبي أن لي أبوين شرعيين، ورأفة به أن تحفظ له ماء وجهه.

ويمضي وحيد في طريقه، يتحدث إلى دخيلة نفسه كالمجنون، يهدي كالحيران، يتمتم بكلام ينط نصفه مِن فِيه، ويمكث نصفه الآخر بين شفتيه مبعثرا، لا وجهة له وإن كان

مقصده أن يجد أبا عائشة هذا، ومن عائشة هذه؟ أهي أخته؟ أكان مصيرها مصيره نفسه؟

وتقذف بك دروب الحياة في مدينة الدار البيضاء، وتبكي بكاء لمْ تبكه من قبل، وأنت الذي كان يُعرف عنك المرح والمزاح، ولمْ تعرف عينك دمعة كدمعاتك التي ترسلها الآن مدرارا، ويختنق قلبك، وتُدخل يدك في جيبك بعد أن أحسست بالجوع لتجد الدريهمات التي ناولتها لك الحاجة رحمة ما زالت تستقر فيه، ويُضنيك المسير، وتخلد للراحة على عتبة باب من أبواب منازل تلك المدينة التي لا تعرف منها شارعا ولا زقاقا، تضع رأسك على حقيبتك وتضطجع.

قُبيل أذان العصر تستيقظ على ضجيج الصبيان وصراخهم، يضحكون ويستهزئون بك، وأنت بين اليقظة والنوم حسبت نفسك ما زلت في الميتم، وخِلتهم الأيتام يمرحون، وإذا بوجهك يلطمه صبيٌ بسوط ماء كان قبل أن يصفعك به مستقرا في كوب، تستفيق ويعود إليك وعيك، تسمع ضحكات الصبيان وقهقهاتهم، تُرسلُ يدك إلى حقيبتك لتجعلها فوق ظهرك وتكمل المسير، وفي قلبك شيء، وكيف لا يكون في قلبك شيء وأنت تعلم أنه بعد قليل سيلجأ هؤلاء الصبيان إلى أحضان أمهاتهم، ولا حضن يحضنك أنت؟ كيف لا يكون في قلبك شيء، وأنت تعلم أن لهم منازل ودور يسكنونها، وأنت لا سكن ولا إقامة

لك؟ كيف لا يكون في القلب شيء، وهم الآن متكئون على فرش بطائنها من قطن، ملتحفون بأغطية، متوسدون وسائدهم، وأنت فراشك الأرض، أغطيتك السماء، وسادتك حقيبتك التي لم يعد لها من وظيفة غير ذلك؟

وتبحث عن موضع لتبيت فيه ليلتك بعد أن ابتلع البحرُ الشمسَ أمام ناظريك، وشرعتِ السماء تغطي الأرض بغطاء الليل، وتمطرها بقطع الظلام، وبعد أن أخذ الناس يأوون إلى منازلهم، وأخذتِ الأرجل تَخِف وطأتها عن الأرض، وبعد أن طفق ضجيج المدينة ينخفض، فلا تجد غير أن تقترب من شاطئ البحر لعله يكون أرحم لك من وسط المدينة.

السكون يخيم على المكان، لا تسمع إلا تلاطم أمواج البحر، تنزل عن الطريق المحاذي للبحر، تتوغل قدماك في رمال الشاطئ، تنظر بعينين وجلتين مرتبكتين لعلك تجد مكانا تجعله موضعا لاستلقائك، وإذا بك تسمع همسات بالقرب منك في شدة الظلام الحالك، وإذا بتلك الهمسات تختفي مع قوة صوت عجلات سيارة كبيرة وصفيرها المزعج للآذان التي تقترب منك. ينزل من السيارة رجال.

في تلك اللحظة وأنت واقف في مكانك مبهوتا، رأيت أشباحا تنط من مخبئها؛ منها من يفرُّ ومنها من يقف مكانه، ليست

أشباحا، هم شباب لم تعلم بوجودهم قبل اللحظة، كانوا مختبئين بالقرب منك، إذن تلك الهمسات همساتهم. لاحق الرجال الذين خرجوا من السيارة الهاربين من الشباب، بينما قبض الآخرون على المستسلمين منهم في أماكنهم كفريسة سهلة.

في لحظة تجد أحدهم يقبض عليك أنت الآخر، لم تعد تفهم شيئا، سقطت البلادة على رأسك والتفَّ الغباء بك من كل نواحيك، تَرى الآن الشباب مستسلمين، يُقادون إلى السيارة بطواعية فتفعل مثلهم، تستسلم للأيادي التي تدفعك لدخول السيارة، انطلقت السيارة بكم، كانوا أحد عشر شابا، فتيات وفتيان، أنت يوسفهم، ثاني عشرهم.

ويجد وحيد نفسه مع خمسة شباب في السجن، لم يفهم إلى الآن شيئا مما يحدث، كان التعب والجوع والعطش كلها أمور تضغط عليه للنوم، استسلم لنشوة النوم وأجَّل التفكير فيما يعيشه من أحداث غريبة، ورغم غرابة الأحداث فقد ارتاح لما يحصل معه، فأن ينام في السجن خير له من أن ينام على شاطئ البحر تعصف به الريح من كل مكان، لم يشعر بذاته إلا وخيوط أشعة الشمس المتسللة من قضبان نافذة السجن تداعب جفونه، ظهْره يؤلمه، ألم في أطرافه، دوار في رأسه. استيقظ بعده الشباب الآخرون، الآن بعد أن أخذ قسطا من الراحة وإن كانت معدته تقرقر ورأسه يؤلمه إلا أنه وقت مناسب ليفهم ما

الذي يحصل معه، مالَ بجذعه على أحد الشباب القريبين منه يسأله عمن أتى بهم إلى هنا. التفت الشباب الخمسة إليه باستغراب، يمسكون قهقهاتهم مِن الانفجار، قال صاحب سجنه القريب منه وقد ظن أن سؤاله يتعلق بالمبرر الذي جعل الشرطة تمسك بهم.

ـ قبضت علينا الشرطة بتهمة الفساد في زعمهم يا صديقي، ما بالك تُقدِمُ على أمر ولا تدري عواقبه.

زاد جواب الشاب وحيد بلاهة، نظر إليهم كأبله، حينها فهم الشباب أنه لم يكن بمرافقة أحد في رمال البحر، سأله أحدهم ليتأكد.

ـ ألم تكن بمعية فتاة ما قرب شاطئ البحر؟

ـ أبدا، كنت بمفردي، جئتُ إلى البحر لأقضي ليلتي هناك، إذْ ليس لي ملجأ ألجأ إليه، أو مأوى يأويني.

فهم الشباب قصة وحيد إذن، أشفقوا عليه أن يكون ضحية بينهم، أشفقوا عليه كلهم إلا واحدا منهم رآه كذئب مسرور لما حصل له، يتشفى فيه بابتسامة سمجة، شرحوا له ما غاب عن إدراكه، فذلك المكان المتواري عن الأنظار يلجأ إليه الشباب مع عشيقاتهم لممارسة الحب كما قالوا له، يخلو كل عشيق بعشيقته بعيدا عن أنظار المتطفلين، ويفعلون ما أرادوا وما

يحلو لهم، لكن الشرطة يتعكر مزاجها أحيانا، أو يصيبهم الملل، فيلاحقونهم إلى ذلك المكان، ويفسدون عليهم متعتهم، وأُنْسَهم بخليلاتهم.

*****

(4)

ويمضي في طريقه بلا هدف، ويسير بلا وجهة. بعد أكلٍ وشربٍ في مطعمٍ، طفق ذهنه يتفتق عن أفكار كانت محجوبة بقوة الجوع والعطش، انطلق يسترجع شريط ما حصل معه ليلة أمس، ما رآه أمس قطعة من الزمن اقتطعها له خصيصا ليُريَّه نشأته الأولى، ليُريَّه سبب وجوده وكيف بدأ، أيكون والده منذ ثماني عشرة سنة كان في ذلك الموقف بالذات مما أدى إلى وجوده في هذا العالم؟ أيريد القدر أن يجيبه عن السؤال الذي شغل فِكره، وهو هل ينتسب لأبوين يعرف الناس حسن سيرتهما وسريرتهما أوْجَدانه من زواج شرعي أم هو ابن دعارة وفجور؟

ها هو القدر يجيبك عن سؤالك، فما الذي سيتغير في حياتك يا مقهور؟ ما الذي تبحث عنه؟ امضِ في سبيلك ولا تسأل، عش ما يسميه الناس حياة ولا تكترث للتفاصيل، من قال إن الحياة تكمن في التفاصيل؟ ها أنت تسير هائما على وجهك في شوارع المدينة، وما زلتَ تُعمل عقلك في التفاصيل، تُعذب

نفسك بالتفكير، تفكر في الشباب الذين خرجوا معك كالأشباح من تحت الرمال، إنهم لا يعرفون معاناتك حتى يُفكروا في نتيجة ما يفعلون، أنستهم نشوة الحب أن يدركوا أن بعد تسعة أشهر سيخرج كائن إلى الوجود ليجد ذاته قرب كيس من أكياس القمامة، أو أمام باب مسجد أو مستشفى، وفي أحسن أحواله أمام باب ميتم من المياتم كما وجدتَ نفسك أنت، سيكبر، ويكبر معه إدراكه، ويرى من نافذة الميتم آباء يأخذون بأيادي أبنائهم إلى المدارس، أو يحملونهم على أذرعهم، أو يضعونهم فوق أكتافهم، ويفكر هو في آخر مرة أمسك أبوه بكفه، أو حمله على ذراعه، أو وضعه فوق كتفه، فيجد أن أول مرة لم تكن، فكيف ستكون آخر مرة والأولى غير موجودة. ويكبر بعيدا عن حنان وعطف الأسرة، بعيدا عن الروح، لم يجرب يوما أن ينطق "بابا"، ولا "ماما". لا يعرف معنى الأبوة ولا الأمومة ولا الأخوة، لا أسرة له، ولا معنى العمومة ولا الخؤولة ولا الجدودة، لا عائلة له، لم ينطق لسانه كلمة أخي ولا أختي، ولا عمي ولا عمتي، ولا خالي ولا خالتي، ولا جدي ولا جدتي، لا يعرف لسانه هذه الكلمات، لا يعرف قلبه تلك المشاعر.

يخرج من الميتم بعد أن قالوا عنه إنه أصبح راشدا، عن أي رشد يتحدثون؟ وهل يَرشد من عاش بعيدا عن أكناف أسرته؟

كيف يرشد؟ وما الرشد إلا داخل روح الأسرة، ويعيش التشرد، ويعيش الإهمال، ويجرب المخدرات، ويجرب المسكرات، ويجرب كل أنواع الجرائم، من اغتصاب وسرقة وتهريب، ولمَ لا يجرب القتل كذلك؟ وكم من مرة سيجد السجن بيته الذي يرحب به بإخلاص دائم؟ بيته الذي يستقبله كلما اشتدت به الأزمات.

ويفكر في أن يُنهي حياته بشكل تراجيدي كما بدأت حياته بذلك الشكل، يُنهيها بالانتحار، شنق نفسه في غصن شجرة، شجرة احتضنت روحه، روحه تصارع للفرار من جسده، وقبل أن تفر روحه من جسده يرى عشرات، بل مئات، بل ألوف الشباب الذين كانوا قد تخلوا عنهم أهاليهم قد فعلوا مثله، شنقوا ذواتهم في الأشجار التي يراها الآن مد بصره، غابة من الجثث المنتحرة، غابة من الأشجار تحمل كل واحدة منها جثة فتاة أو شاب كان مِن قَبلُ بذرة زرعت في غير موضعها، فأصبحت الآن شجرة سامة ملعونة تنبعث من جسدها رائحة نتنة، رائحة الموت.

يشد وحيد رأسه بقوة، يمسكه عن التفكير، يسقط على ركبتيه وسط الشارع، يمد له أحد المارة يده ليقف على قدميه، يكمل رحلته التي ليس لها نقطة نهاية، رأسه يؤلمه من شدة التفكير، ظهره يؤلمه من شدة الوقوف، قدماه تؤلمانه من شدة المشي،

يستريح، أين؟ هو لا يعلم! يبكي بشدة، لماذا؟ هو لا يدري! يسمع الناس نحيبه، يشفقون على حاله، ينتبه إلى أنه يجلس وسط سوق يبكي، بل ينتحب، يكفكف دموعه، يفر من نظراتهم ووجهه في التراب، لا يريد شفقة أحد، لا يريد أن يرى نظرة انكسار من أحد، الناس كلهم منافقون، ينافقونه، يفضلون شهواتهم على معاناة أمثاله، ما بالك يا وحيد أصبحت هكذا؟ يسائل ذاته، ألم يكن مِن قبل شعلة من نور مرحة تغلب عليها الممازحة والبِشر؟ لَمْ تكن حينها الأفكار تلتهب في رأسه مثلما تفعل الآن، التفكير لن يجديه نفعا، سيوقفه، ألم تَقل له أمه رحمة أن كثرة التفكير تورث ضعف القلب، لَمْ يكن يعلم العلاقة بين أن يفكر وأن يضعف قلبه، لكن الآن يدري، بل يعيش تلك العلاقة.

*****

ـ أول ليلة في القبر!

عاد إليه شيء من مزاحه، غشي الليل وحيدا في شارع من شوارع المدينة الخالية، أراد أن ينام قرب بوابة كبيرة، بجانبها جداران يحرسانها، يشكلان غرفة صغيرة بلا سقف ولا باب معها، غلب على ظنه أن أهلها لا يستعملونها كثيرا، وألا أحد سيزعجه صباحا بإيقاظه من أجل فتح تلك البوابة، أفرَشَ

أفرشته القليلة قربها، وضع غطاءه فوق جسده وهو يتمتم بأنها أول ليلة له في القبر. نعم هي أول ليلة في قبره الواسع، أول ليلة يبيتها في الشارع، هل سيدوم هذا الإحساس طويلا عندما يتذكر ليلته الأولى له في الشارع في أواخر الخريف الذي بدأ يتحول إلى شتاء؟ هل سيحكي لأولاده إنْ رزقه الله زوجا وأولادا عن أول ليلة قضاها في الشارع دون غطاء ولا فراش إلا مما كان يسميه هو أفرشة وأغطية؟

أراد أن يسترسل في هذيانه، في أحلامه التي لن تتحقق، الزواج!! الأبناء!! يستحيل أن يتحقق له هذا، وإن تحققت فهي بعيدة المنال، لكن هناك شيء آخر غَيْر استحالة تحقق أحلامه منعه من التفكير، منعه البرد القارس! تلوى على نفسه، تكمش على ذاته، يرتجف، يرتعد بردا، يقاوم شدة البرد، ينام ويستيقظ، نوم متقطع، يرى أحلاما في كل نومة لم يدر كم طالت ومتى نامها، لكن لا يتذكر كذلك ما رآه في أحلامه وكوابيسه المزعجة. أبهذه السرعة أشرقت الشمس؟ متى نام؟ بل الآن سينام، الشمس ترسل أشعتها الدافئة كأنها أمٌّ تعوضه قسوة امرأة الأب، الليل!

ويمر عليك أسبوع يا مسكين منذ ليلتك الأولى في القبر، وتنتهي النقود من جيبك رغم حرصك على أن تكون مُقترا معها، فلم تكن تأكل إلى ما يجعل الجوع يتركك للحظات، ثم

يعود طالبا منك إشباعه، لكنك تتجاهله، وتَعِده أنك ستفعل ذلك معه في اليوم الموالي، وأما في ليالي مبيتك فقد أصبحتَ صديقا للبرد، لم يعد يزعجك كل الإزعاج، توطدت العلاقة بينكما، وحتى الأرضية الخشنة تصالحتْ معك، لم تعدْ تزعجك بالألم الذي كان يزور مفاصلك.

وها أنت أيها البائس تستعد لليلة أخرى، ليلتك هي نصف ليل ونصف نهار، وما أن حضر النوم ليستقر في ذاتك حتى سمعت أصواتا وجلبة، استيقظت فزعا، لتجد فوق رأسك من يشبهك في لباسك وحالتك، لن يعسر عليك أن تعرف من يُشبهك، لقد نَمَتْ فيك هذا الأسبوع موهبةً تَعرف بها مَن يُشبهك، إنهما متشردان مثلك؛ متشرد ومتشردة، استمررت تنظر إليهما مشرئبا بعنقك من موضع نومك كأبله، لم تسأل ولم يتكلما، النظرات وحدها من تتحدث في صمت دون معنى، حرَّكتَ رأسك، تخاطبهما، لكن ماذا تعنيه بذلك؟ أنت عينك لا تدري، كأن اللغة اختفت من عالمك لتجرب الحديث بها، لَمْ تُحدِّث أحدا منذ أكثر من أسبوع إلا لماما، عليك أن تجرب الحديث لتعلم هل ما زلتَ تتقن تلك العملية، الأمر سهل جدا، ما عليك إلا أن تحرك فكك السفلي ولسانك وشفتيك، وستخرج الكلمات وحدها، وفعلتَ ذلك، وحركت فكك السفلي، لكن لم

يخرج شيء إلا عواء كصرخة أبكم، أتُراك أصبحت أبكما؟ أعد المحاولة.. لا عليك سيتكلفون بالأمر عنك.

ـ هذا الحيز الذي تنام فيه يخصنا، تركناه منذ أسبوع، وها قد عدنا إليه.

ويفكر مرة أخرى دون أن يجيب، هل اختفت القبور من العالم حتى لا يجدا إلا هذا القبر؟ وهل هذا العالم الواسع يضيق على المتشردين أمثاله فلا يجدون إلا موضعا واحدا ينامون فيه كلهم؟ ترك وحيد ذاكرته تسبح في عالم الأفكار، أما لسانه فلم يجد ما يتكلم به، لم يعرف ما يقوله ببساطة، بقي صامتا يتفحصهما ببصره، ولم يعرف حتى ما سيفعله، بقي على هيأته تلك، أنقذته حديث المتشردة.

ـ هذه آخر ليلة لك هنا، سنعود غدا لنسترد مقر إقامتنا، ابحث لك عن مكان آخر.

*****

(5)

بينما الناس في المدن والقرى ينعمون بالدفء، يتمتعون بالسكون، تأويهم مساكنهم، يُطلُّون من نوافذها إلى الشوارع، يستمتعون بمراقبة غزارة الأمطار وصخب الرياح التي تجعل الأشجار ترقص طربا، وهم رغم وجودهم في منازلهم يلبسون أثقل اللباس وأشده وقاية من البرد، بينما هم كذلك ملتحفون أغطيتهم الدافئة يشاهدون التلفاز ويتواصلون مع أحبابهم فرحين مستبشرين، بينما العالم الساكن يعيش حياته المعتادة؛ يأكل إذا جاع، يشرب إذا عطش، يستحم إذا شعر بالأوساخ تقتحم حرمته، يلبس ما ترغب فيه نفسه من الألبسة إذا أحس بالبرد، يتحدث مع أهله إذا شعر بالوحدة، يشرب الدواء إذا زاره المرض، بينما الناس كذلك يعيشون حيواتهم المعتادة، إذا بشتاء سنة 2021 يُعلن قدومه ويدخل على المتشردين من أمثال وحيد ببؤس لم يروه من قبل.

كان فصل المطر لهذه السنة مستعدا ليثبت وجوده منذ أن سلَّم له الخريف مشعل إكمال المسيرة. أمطار غزيرة، هبوب

رياح قوية، برد زمهرير، جو مكفهر طول اليوم، سماء ملبدة بالغيوم السوداء والبيضاء، كان وحيد في شدة هذا البرد يُحس أنه في ثلاجة كبيرة، يقاوم البرد نهارا، فكيف والحال أن البرد تنخفض درجته تحت الصفر ليلا، لم يتذكر وحيد أنه بكى يوما من الذل، من المهانة، لكنه الآن يبكي، نعم يبكي بشدة، يبكي من القهر، يبكي من الحرمان، ينتحب من الضيق والشدة التي يعيشها الآن ولم يجربها من قبل، اجتمع عليه البؤس بكل أنواعه، ينام أينما اتفق، على أرصفة الشوارع؛ يحس بشدة البرد، قرب المحلات التجارية؛ يفتحها أصحابها صباحا، أمام المقاهي والمطاعم؛ يطرده منها أربابها، في الحدائق العمومية؛ تزجره الأمطار والرياح الغاضبة، لم يجرب مكانا إلا نام فيه، ولا مأوى إلا آوى إليه، لكنها لا تحميه من الأمطار، لا تدفع عنه شدة البرد.

أما بالنهار فلأول مرة سيجرب الأكل من حاوية القمامات، انقضَى ما كان معه من نقود، احتاج للطعام، تسوَّل المارة؛ منهم من يعطيه ومنهم من يمنعه، أكل من بقايا المطاعم؛ يأتي غيره من الفقراء الذين اعتادوا على أخذ تلك البقايا فينتزعونها منه انتزاعا، أما الآن فلم يبق له إلا أن يأكل من القمامة، وماذا يفعل؟ أيموت جوعا؟ أين نضَارته؟ أصبح شبحا شاحبا نحيلا تكاد تظهر العظام تحت جلده. فعلها، أكل من القمامة، لا

يستسيغ ما يمكن أن يسميه طعاما ورائحته مُقرفة، عفنة، يمضغه ويُغمض عينيه الغائمتين من القرف، يبتلعه بعد أن لاك اللقمة في فمه بسرعة، يتقيأ في حينه، لن يستسلم، لم يأكل منذ ثلاثة أيام يا سادة، يجرب مرة أخرى، ثم يجرب، ثم يجرب، ثم يتعود، ويا بؤس وحيد، ويا مرارة عيشه، لم يكره أبا عائشة كما يكرهه الآن، لم يبغض والدته التي لا يعرف اسمها ولا شكلها ولا من تكون كما يبغضها الآن، ما دمتما غير قادرين على الاعتناء بي فلم أنجبتماني؟ آه لو تعلمان ما أقاسيه بسببكما، يا أبا عائشة إني أختزن بين طيات صدري جراحات طفل معذب، وأعيش يوميات فتى ضائع، يا أبا عائشة ابنك يتسكع فقيرا معدوما في الشوارع فأين أنت منه؟ يا والدي إن شئت أن ترسم لوحة عن الفقر والبؤس فما عليك إلا أن ترسم لوحة ابنك مشردا في مدينة لا يعرف من أهلها أحدا، يا أبا عائشة كنتُ أبحث عنك فأنساني الجوع والحرمان والبرد ذلك، أنساني استعطاف المارة كي يرموا لي لقمة أكل مِن الاستمرار في البحث عنك، آه لو تراني وأنا أسير تاركا خلفي نظرات الشفقة والإحسان من عيون بعضهم، ونظرات القسوة والاحتقار من عيون آخرين.

وتشتد الكآبة على وحيد، وها هي ليلة أخرى من ليالي البرد القارس، ويبحث في كل موضع من مواضع المدينة عن مكان

يأويه، يحميه من البرد القارس، ويهتدي إلى جسر في مدخل المدينة، ينزل عن الطريق في ظلام الليل، يرقب نارا مشتعلة أسفل الجسر، ينزل، وإذا به ليس وحده، عشرة متشردون ينعزل كل واحد منهم عن الآخر تاركا مسافة بينه وبين غيره، منهم من ينام على الورق المقوى، أو على فراش بال زهد فيه أهله، أو على ثيابٍ كانت يوما ما ثيابَ الناس المعتادة، ما يميز هؤلاء المتشردين كلهم، أن وجوههم بئيسة، تحيطهم القذارة من كل جانب، الأوساخ تطفح بملابسهم الرثة، أي ملابس؟! بل أسمال بالية، يفتك بهم السل فتكا، يتقيؤون الدم عندما يسعلون، هذا هو عالمك يا وحيد، هذه هي حياتك يا يتيم.

ينزوي وحيد إلى ركن قصي من الجسر أمام نظرات المتشردين اللامبالية، كأنهم اعتادوا زيارة أمثاله، كأنهم لن يخسروا شيئا حتى يخافوا عليه، بل ماذا عندهم ليخسروه ليخافوا عليه، جلس وحيد على حقيبته التي لا يدري عن حالها وكيف أصبحت وماذا يوجد بها دون أن يكلم أحدا أو يكلمه أحد، ترك متشردٌ النارَ التي أشعلها مشتعلة ولجأ إلى موضع نومه، اقترب وحيد من النار، أحس بشيء من الدفء، أخذ يتأمل لهيب النار وألسنتها التي ترقص له، التفت إلى المتشردين العشرة فألفى أغلبهم قد غلبه النوم، وغيرهم يتقلبون بأجسادهم المنكمشة من شدة البرد.

ويصبح لوحيد حيزا خاصا به تحت الجسر، ويصبح الجسر مأواه، يلجأ إليه ليلا أو نهارا، فهو بيتهم المشترك، ويكون مرة أخرى حادي عشرهم، يوسفهم معهم في الجب، فقد أجمعا أبويه أن يجعلاه في غيابات الجب، وها هو يحقق لهما أمنيتهما. ويخرج من قوقعته، ويتحدث باحتشام مع أصدقاء معاناته الجدد، ويبتسم له الكون شبه ابتسامة، هل هذه هي بسمة الكون؟ هل إن أراد الكون أن يبتسم لأحد يُرشده لمأوى تحت جسر، ويُعرِّفه على صحبة يشبهونه؟ فهذا نعمان هرب من الميتم بسبب قسوة المربيات عندما كان عمره سبع سنوات، وهذا أمين طردته امرأة أبيه، بعد موت أمه تزوج أبوه بها، وهذا خالد لا يتذكر له مكانا غير الشارع، ولا يتذكر متى جاء إليه أول مرة، هل ولد فيه أم في مكان آخر، وهذا سفيان غائب الفكر دائما، مسافر عن الدنيا بفعل ما يتجرعه بكثرة من مخدرات، وهذا كمال أمهر لص في هذه المجموعة، وهذا سمير منطوٍ على نفسه ومنعزل، وهذا.. بل هذه.. هذه إكرام، إكرام تقول إنها منشطة المجموعة، يقهقه المتشردون لكلامها، يضمها أحدهم إلى ذراعه، تزيح ذراعه عنها وتقترب من وحيد.

ـ أنت بائس مثلنا، وأنا إكرام أكرم هذه المجموعة، وإن شئت أن أكرمك وأخلِّصك من بؤسك وأزرع فيك النشاط والحيوية فما عليك إلا أن تدفع مثل زملائك، لن أزيد عليك.

يُقهقه المتشردون وتعود المتشردة إلى موضعها، ويفهم وحيد نوع التنشيط الذي تقصده، ويتحسر على ذلك بأسى وأسف.

يتذكر وحيد المتشرد والمتشردة اللذين التقاهما مذ شهرين من لقائهم الأول والأخير، أراد أن يدعواهما إلى هذه الرفقة القابعة تحت الجسر، لعل هذا المكان خير لهما من مكانهم ذاك، وهل يحنُّ المتشردون على بعضهم البعض؟ هل تأخذهم الشفقة على بعضهم البعض؟ خرج قاصدا مأواهما، وصل إلى المكان الذي جعلاه مقاما لهما، أقْبَلَ عليهما بابتسامة بينما رمقاه هما في استغراب، أصبح قُبالتهما، وقبل أن يتحدث أحدهم فغر وحيد فاه من الدهشة، ألجمته صاعقة نزلت على قلبه عن الحديث، ما رآه جعل قلبه يكاد يخرج من صدره، المتشردة حامل!! لم ينتبه لانتفاخ بطنها عندما زاراه في المرة الأولى، استقرت نظراته الجاحظة على بطنها في بلاهة، لا يفعل شيئا في مثل هذه اللحظات إلا التفكير، يفكر في جنون هؤلاء المتشردين، هل بعد كل ما يتجرعونه من معاناة يتسببون في خروج نسمة أخرى إلى هذا العالم البئيس لتعيش التشرد

والحرمان هي أيضا؟ ألا يكفيهم بؤسهم فقط؟ ألا يتعظون مما يعيشونه فينزجروا على أن يكونوا سببا في بؤس غيرهم؟

انتبهَ له المتشرد، فهم معنى نظراته الحائرة.

ـ مرحبا بك، اجلس.

ـ لماذا تسببت في حمل الفتاة؟

كان وحيد ينزل بجذعه ليجلس، بينما عيناه مستقرتان على بطن الفتاة، ولسانه يلوك تلك الكلمات في حيرة ودهَش، أجابه المتشرد بغضب متجهم الوجه وقد أبعد عينيه ينظر بهما إلى السيارات التي تقطع الشارع المجاور لهم قطعا.

ـ كيف أتسبب في حمل شقيقتي يا أبله، لست أنا من فعل، رجل متجبر استطاع استدراجها حتى وقعت في فخه.

صمت وحيد، لا يدري أيُحس بالحرج أم الشفقة، كانت الفتاة تنظر له بعتاب مقلصة الحاجبين تلومه على طول مكوث عينيه على بطنها، حينها فطن لذلك فنظر حيث ينظر أخوها ثم تمتم لسانه بسؤال.

ـ وما الحل الآن؟ هل ستسكتان على ذلك؟

ـ وماذا نفعل؟ المتوحش قضى مأربه ولا نعلم أين يكون، ثم إنك في غابة، القوي يأكل فيها الضعيف.

حركت المتشردة كتفيها تقول في لامبالاة وهي تنظر إلى الشارع كما ينظر الآخران، تخالها تدافع عن نفسها جراء عتاب قُصدت به.

ـ لا أعرفه، ولم أدرك نفسي حتى وجدتُني معه في حيز خال من الناس.

مضى المتشرد الذي كان في عمر وحيد وأختُه الأصغر منه بسنتين يتحدثان مع وحيد، استأنس وحيد بهما، ابتسموا، ضحكوا، تمازحوا رغم قلة اليد وبؤس العيش، إلا أنهم أرادوا أن ينسوا همومهم في تلك الجلسة ويسمُروا ليلهم ضاحكين، أفضى كل واحد منهم للآخر بكل ما في قلبه، قصوا على بعضهم كل ما عاشوه، وكأنهم كانوا بحاجة إلى هذه الصحبة حتى يُفرغوا ما في خواطرهم من أشجان وأحزان لبثتْ مخزنة في أجوافهم لمدد طويلة.

ـ وتأكل من حاوية القمامة يا أبله، هل انقضت طرق الحصول على الطعام من الحياة؟

صاح بها المتشرد بعتاب على وحيد، لما أخبره أنه أخذ يجرب الأكل من القمامة، وقد ألف ذلك الآن، فأجابه وحيد بحيرة.

ـ وماذا أفعل يا عصام؟ هل أموت جوعا؟ ليس لي حيلة غيرها.

ـ ما زلتَ بليدا وساذجا يا وحيد، جدير بك أن تعلم أنك في غابة كل الطرق مشروعة فيها، نحن المتشردون نفعل كلَّ شيءٍ، كلُّ شيء مباح لنا لأننا أولاد الشوارع، يا صديقي جرب التسول بشدة، تسول المارة كأنك تريد انتزاع حقك منهم لا أنك تستعطفهم، وإذا حصلت على مال كاف فيمكنك أن تشتري لوازم مهنة مسح الأحذية مثلا، جرب هذه المهنة، أو امسح زجاج السيارات الواقفة عند إشارات الوقوف، وأجبر صاحبها على أن يدفع لك ثمن ما أسديته له من خدمة وإن لم يطلب ذلك منك، أو يمكنك بيع السجائر، ومع كل هذا لا تنس السرقة، نعم السرقة مباحة لنا، ما بك ترمقني بهذه النظرات المستغربة؟ أنا أقول الحق، السرقة شيء جائز في عالم أولاد الشوارع، اسرق كما سرقوا حياتك، اسرق من الأسواق ما تأكله، هل تريد أن تموت جوعا يا صديقي؟ إذا استطعت أن تسرق من المتاجر فافعل، انهب من المحلات التجارية ما ترتديه، لا تخف، كل شيء مباح.

أصاب كلام المتشرد شيئا ما في صدر وحيد، وكأنه دله على ما كان غافلا عنه، كيف لم يتنبه لذلك؟ نعم كل شيء مباح، أما العطف ومشاعر الحنو والرأفة والرقة، فتلك أخلاق

البشر الذين يعيشون حياتهم بشكل طبيعي، أما المتشرد فكل شيء مباح في عالمه. عزم وحيد على أن يمضي في طريقه، ويفعل ما نصحه به صديقه المتشرد، من الآن ستتغير حياته، لن يجعل حياته تضيع منه، سيعمل على الحفاظ عليها بكل الطرق المشروعة أو المشروعة عند المتشردين، وبعدها سيكمل طريقه للبحث عن أبي عائشة هذا.

وَعد وحيد المتشردَين أنه سيزورهما أحيانا، ووعداه أيضا أنهما سيأتيانه كل حين تحت الجسر، أما أن يُقيما معهم هناك فلا يمكنهما ذلك، فقد كانا بدايةً، ذلك هو مأواهما الأول، لكن المتشردين يتحرشون بأخته، ويجبرونها على ممارسة الجنس معهم، وهو وحده لا طاقة له بهم، ولا قوة له لردعهم وإلزامهم حدودهم، فعنَّ له ترك الجسر لهم.

كان وحيد بعد أن تركهما قد مضى يمشي في الشارع إلى الجسر يُفكر في مجتمع المتشردين كيف أن كل شيء مباح عندهم، حتى الاعتداء على بعضهم البعض، قد يفهم اعتداءهم على غيرهم، لأنهم يُشكلون كتلة واحدة ينصر أحدهم الآخر ظالما أو مظلوما، أما اعتداؤهم على بعضهم البعض، واغتصاب بعضهم للآخر، وممارسة الشذوذ على بعضهم، والاستهزاء والسخرية فيما بينهم، وسرقة أحدهما للآخر، فذلك ما لم يفهمه.

عاد إلى الجسر ليجد حقيبته قد سُرقت منه، سأل عنها فلم يجد جوابا من أحد منهم، إلا مِن المتشردة تبتسم في بلاهة وترفع حاجبيها وكفيها فوق كتفيها علامة على براءتها من ذلك، براءة الذئاب من حقيبة وحيد، فتلك ليست وظيفتها، ووظيفتها تكفيها لتحصل منها على قوت يومها. هنا تأكد أنه في عالم إذا كان فيه حملا وديعا فسوف ينهشونه ويخرجون أمعاءه، فليس عليه من الآن إلا أن يكون ذئبا يعيش مع الذئاب إن أراد الفرار بجلده والمحافظة على شرفه وحياته، إن كان ما يزال يحتفظ بشيء يسمونه الشرف والحياة.

*****

(6)

من يستطيع الانتقام من المجتمع؟

الذي يستطيع الانتقام من المجتمع هو من حُرم عطف هذا المجتمع، هو من لم يعطه الوطن شيئا، بل سلب منه كل شيء، كيف أرحم مجتمعا يعاملني بفظاظة وغلظة القلب؟ كيف أقدره وهو لم يقدرني ولا مكانة لي فيه؟ كيف لا أنتقم منه بالسرقة وقد تخلى عني؟ هذا المجتمع يدعو بالويل والثبور على قاتل قتل أحد أفراده، أو سارق سرق فردا من أفراده؛ يطالب بإنزال أشد العقوبات عليه حتى يرتدع غيره، لكن هذا الغير لن يرتدع لأنه المجتمع نفسه، فقد نسي هذا المجتمع الذي يطالب بالقصاص أنه هو من تسبب في هذه الجرائم، لو توقف أفراد هذا المجتمع عن إفراغ شهواتهم في دور الدعارة وعلى شواطئ البحار، وفي سفوح الجبال، وفي وسط غابات الأشجار ما وُلدت أشباح مشوهة تنتقم من هذا الذي تسبب في وجودها، لو أخَذ الوطن بيدٍ من حديد على كل من يُطلق العنان لشهواته ويتسبب في خروج أطفال يُحرمون حنان الأب والأم،

ويعيشون بعيدا عن أكناف أسرهم ما حدثت هذه الجرائم، كل جريمة قتل أو سرقة أو اغتصاب أو تشويه للوجه، أو عربدة، أو تكسير للمحلات التجارية، أو اعتداء على أملاك الدولة والعموم، سببه المجتمع الذي سمح بممارسة الفاحشة، أو تغاضى عن رذائل مقززة يقوم بها أفراده. فكيف يتهم هذا المجتمع الأطفال المتخلى عنهم بأنهم قذرون وقليلو التربية وقطاع طرق، وهو من تسبب في وجودهم؟ تبا لك أيها المجتمع، هؤلاء الذين تتقزز منهم ما هم إلا نتاج أفعالك.

كانت هذه الأفكار قد عششت في رأس وحيد واقتنع بها اقتناعا تاما، فهو الآن سينسب كل ذنب سيُذنبه أو جريمة قد يرتكبها لهذا المجتمع الذي حرمه عطف أبويه ورمى به في الشارع، وزاد اقتناعه بهذه الأفكار ما عاشه في الميتم وفي الأشهر الأخيرة من قسوةٍ ومعاناةٍ وبؤسٍ.

فجفاء ابن الحاجة رحمة التي رمى بها ابنها في دار العجزة قطرة في كأس قلبه، وجمود قلب أبيه الذي سمحت له نفسه بوضعه في دار الأيتام قطرة أخرى، وبؤس أشهر الشتاء التي كادت تذهب بروحه، قطرات أخرى أضيفت والكأس تمتلئ، وجفاف قلوب المتشردين الذين ينتقمون من بعضهم البعض، القطرات في كأس قلبه على حافة الفيضان، وقبل ذلك قسوة المربيات معه في الميتم، كل هذه القطرات من القسوة، من

الغلظة والصلابة والشدة التي عاشها، جعلت قلب وحيد يقسو كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، أما قلب وحيد فلن يتفجر إلا بالحقد والبغض، فالآن سيرتكب ما يريد ارتكابه بضمير ميت وقلب مرتاح، وقبل هذا وذاك هو فقط يريد الحفاظ على حياته التي أراد المجتمع إزهاقها، فلن يأكل من القمامة بعد الآن، فله طرقه الخاصة التي أدركها عند تواصله مع صديقه المشرد عصام.

يتغير وحيد، فيصبح شخصا آخر، يقتلع من جوفه قلبه الطيب الرحيم ويرمي به بعيدا بعيدا، ويضع مكانه قلبا شرسا شريرا قاسيا، ويمضي بحثا عن لقمة أكل يدفعه إليها الجوع دفعا، احمرت عيناه من شدة الغضب، التهبتا بشرارة تخرجان من حدقتي عينيه، ويدخل السوق.

وها أنت يا وحيد تبحث بعينيك الزائغتين عن فريستك، وتمد يدك خلسة إلى تفاحة في صندوق، قلبك يضرب بقوة، ما به قلبك؟ ألم يتجمد بعد؟ ألم يصبح قاسيا بالشكل الذي تريده حتى لا يزعجك بخفقانه؟ وتقضم من التفاحة، أحسست بلذتها، لكنها لم تقتل الجوع في أحشائك، ثم تجد يدك تنهب برتقالة، تلتفت يمنة ويسرة، الأمور تحت السيطرة، ثم موزا، لم يرك أحد، ثم...

ـ اللص، أمسكوا به.

وتهرب مهرولا، وتنطلق بسرعة لم تكن تعرف من قبل أنك بهذه السرعة، متى خُلقت فيك؟ تندفع بين جموع الناس، تعصف بهذا، تدفع هذا، تهب في وجه هذا، تُسقط هذه المرأة، وتنظر خلفك وأنت ما زلت تعدو لترى من سقطتْ، وتسمرتْ كل جوارحك في مكانها لثانية، قلبك يدق كطبول إفريقية، عيناك متحجرة على المرأة التي سقطت، إنها الحاجة رحمة!! دارت الدنيا بك، تلاطمت الأفكار داخل رأسك، تنظر المرأة إليك بلوم ولؤم، قلبك واجف مذعور، وتنتبه من إجفالك على صوت الباعة وهم يقتربون منك، سينتقمون منك، وتكمل سيرك دون أن تلتفت مرة أخرى، وتخرج من السوق، وتدخل في زقاق، ثم تخرج منه، ثم تدخل في آخر، ثم تقطع شارعا، ثم شارعا. كفى يا وحيد، قف مكانك، ما هذا الجبن؟ لمَ أنت مذعور مرتعد جبان هكذا؟ لقد ابتعدت كثيرا عن السوق، فما بالك ما زلت تهرول؟ هو طريق اخترته فتحمل مسؤولية كل ما يقع لك.

تجلس في حديقة بعيدة عن السوق تسترجع أنفاسك، صدرك يرتفع وينخفض دون انتظام، تشهق وتزفر بقوة، ينتظم تنفسك أخيرا.

ـ هل هي الحاجة رحمة، أمي رحمة؟

تتساءل مع ذاتك باستغراب، ألم تتركها في مركز الوفاء الاجتماعي لرعاية المسنين؟ فكيف وصلتْ إلى هنا؟ حركتَ رأسك تريد التخلص من تلك الفكرة، ربما ليست هي، ربما تشابهت لك تلك المرأة مع الحاجة رحمة، وما ذنبها المسكينة لتُسقطها أرضا؟ لكنها هي من وقفت في طريقي.

ويمضي وحيد في تفكيره، لقد ادّكر الحاجة رحمة بعد أمَّةٍ من النسيان، تذكر أنه وعدها بزيارتها لكن أنساه شيطان ذكرها فلبث في سجنٍ تشرده أشهرا، آه كيف أنتِ الآن يا أمي رحمة؟ أ ما زالت دموعك تنساب من مقلتيك على خديك حزنا علي؟ اشتقت لك أمي رحمة، لكن لا أستطيع زيارتك، كيف لي أن أزورك بحالتي هذه؟ جسد نحيف يخلع القلوب من صدورها، ملابس رثة ممزقة، وجه أسود متسخ، شعر زاد تجعدا على تجعده وطال بشكل مقزز، جسد تنبعث منه رائحة عفنة، لم أستحم منذ شهور، حتى أني أحس بالدود ينهش جلدي، أظفار سوداء من الأوساخ، أعتذر منك أمي رحمة، لا أستطيع زيارتك.

لا زال يسبح في تفكيره، خطر بباله سيدته إحسان، هل يفي بوعده لها؟ لقد وعدها بحركة رأسه أنه سيصير ذا أهمية في

وطنه، وسيبذل ما في وسعه ليصل إلى شيء مرموق فيه، أمْ الأفضل له أن يكمل طريقه الذي بدأه في النهب والسرقة والاختلاس؟ إذن فليكمل طريقه في النهب والاختلاس، فما عليه إلا أن يكون أكثر احترافا، فسرقته لبعض الفواكه جعلته أمام نفسه أضحوكة كَونُه ما زال مبتدئا في عمله.

ويكمل طريقه في النهب والسرقة، مضت أسابيع لم يُفتضح أمره، أصبح محترفا، بخفة يد يختلس الفواكه من الأسواق، يدخل حوانيت المواد الغذائية فيأخذ منها ما تصله يده دون أن يُلفت انتباه البائع، يلج متاجر الملابس فيغفل الكاميرات المنتشرة في كل زاوية من زواياه والتي ترقبه في حذر، ويختلس أقرب الثياب إلى يده ثم يفر هاربا، فلا يأبه أن تكون الكاميرات قد رأته، فعلى كل حال لن يعود إلى ذلك المتجر مرة أخرى، ويبيع ما يحصل عليه، ويلج الحمام لأول مرة منذ تشرده بعد أن رفض صاحب الحمام دخوله، لم يستسلم له، لم يتحرك من مكانه حتى سمح له بالدخول على ألا يتأخر فيه كثيرا، ويستحم باستمتاع لوقت طويل، ويغير ملابسه القديمة واضعا إياها في كيس، وقد رمى بها بعد ذلك في حاوية القمامة، ويلبس ملابسَ جديدة اشتراها بما حصل عليه من مال، يزور الحلاق، يحلق شعره، يقلم أظافره، ثم يخرج إلى الشارع بهيئة جديدة.

ـ أنا وحيد الجديد.

يقولها ويطلق قهقهة لم تتوقف إلا بعد أن أشبعت نفسه مرحا، منذ متى لم تمزح يا وحيد؟ منذ متى غادرك مرحك ومزاحك؟ أين اختفت عنك خفة دمك؟ وتمشي بخيلاء، وتزهو بنفسك، وتدخل وسط الناس، وإذا بإغراء جديد يجذب قلبك، هاتف محمول يلمع من حقيبة صغيرة بيد امرأة، هل ستفعلها؟ وهل ستُقلع الراقصة عن الرقص؟ إنها تشبه أمك رحمة، هل ستسرق أمك رحمة؟ نعم لا عليك، افعلها، أنت محتاج للمال، بل للهاتف أيضا؟ لكنه ملكها، ولا حق لك فيه، لكنها تغريني به وتجعله يظهر من حقيبتها، إذن هي فرصتُك أن تُنبهها لإخفاء هاتفها وتكون إنسانا صالحا، لكن أنا متشرد، والمتشرد يباح له كل شيء، ومفهوم الصلاح في مجتمع المتشردين هو مجرد مسكن أو منوم. وما زالت القرارات تتضارب في رأسك بين فعل وترك، ولم تنتبه إلى أنك قد فعلتها وسرقت الهاتف منذ مدة وأنت ما زلت تخطط، الهاتف في يدك الآن، وأنت قد ابتعدت في وسط الزحام دون أن تثير انتباه أحد، وكان عقلك ما زال يتخاصم مع قلبك، هل نتركه يفعلها أم لا.

ـ اصمتا عني أيها الأخرقان فقد فعلتها.

تخاطب عقلك وقلبك وضميرك، ليصمتوا، أصبحت أنت سيد نفسك، وأصبح عقلك تابعا لك، يفتي لك بكل حُرمة، ويبيح لك كل فِعلة، لكن هيهات هيهات، الدنيا دوارة، وقاسمة الظهر آتية.

وتكمل السير، تمسح زجاج السيارات فتجبر صاحبها على دفع ثمن خدمة لم يطلبها منك، وتبيع السجائر، وتتسول من المارة، وتتسول أمام أبواب المساجد، لكن هنا التسول لا يكفي، هذه الأحذية أو بعضها، لم لا تكون من نصيبك؟ قلتَ المساجد؟!! ماذا يفعل الناس هنا، ما هذه الحركات، قيام، ركوع، سجود، وتتذكر الحاجة رحمة.

ـ وحيد، لقد أصبحتَ الآن بالغا يا ولدي، عليك أن تصلي.

ـ لا أعرف كيف أصلي أمي رحمة، علميني.

وتعلمك أمك رحمة الصلاة، وتصلي معها، وتسجد مع سجودها، تنظر بطرف خفي لها، تقوم فتقوم لقيامها، تضع يديك على صدرك كوضعها ليديها على صدرها، لكنك تضع اليسرى على اليمنى، وتمد يدها وهي في صلاتها لتضع يمناك على يسراك، مِن أين جاءتك هذه الذكريات؟ لقد جاءت من مكان سحيق في عقلك، لِمَ تَتذكر كل ما يتعلق بالحاجة رحمة فقط؟

ويُخرجك صوت الإمام من ذكرياتك وهو يقرأ القرآن الكريم بصوت عذب: {قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وتُزعزع الآيات قلبك، ويخشع فؤادك، وتتراجع عن فكرة سرقة الأحذية، وتعود أدراجك، وتتيه في الشوارع حتى وجدت قدميك تقودانك لسوق الأبقار، يُقال إن بائعي الأبقار يتوفر عندهم مال كثير! ها هو المال يغريك مرة أخرى، {ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ}، المال بكثرة يناديني هنا، {ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ}، يُعدُّون أموالهم، يظهرونها أمام ناظري، {ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ}، يتعاملون فيما بينهم بالأوراق النقدية ذات قيمة كبيرة، {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، بائعو الأبقار مالهم كثير، {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

أعمى المال عينيك، ووضع رانا على قلبك، وسد منافذ بصيرتك، فلم يبق إلا إقدامك لاختلاس الأوراق المالية التي تسحر عينيك، وتجعل وميضا بارقا يلمع منهما، وتقترب خلف فلاح ضخم فارع الطول، وهل من فلاح نحيف هنا؟ لا يوجد، وتقترب، عيناك تلمعان، مال كثير يبرق أمام بصرك، كيف السبيل لهذا المال؟ تمد يدك ببطء، تسترسل يدك في التمدد، تصل إلى حقيبة المال، تكاد تلامسها، وقبل أن تفعلها، تجد نفسك معلقا من رقبتك في السماء، تنظر بصعوبة بعينين

جاحظتين خلفك وأنت لا زلت معلقا، قلبك يدق نقوس الخطر، خطر حقيقي زلَّت قدماك إليه لا مفر منه، استطعت بمشقة الأنفس أن ترى من يمسكك من رقبتك ويجعل قدميك تلهوان في الهواء كالبهلوان، شاب قوي البنية، ضخم الهيئة، عريض المنكبين، كأنه عملاق من العمالقة أمام قزم من الأقزام السبعة، يقول بصوت غليظ أجش كأنه يخرج من بئر عميقة:

ـ أبي هذا المشاغب أدركته للتو يريد سرقة مالك، كادت يده تخطف محفظتك لولا وصول يدي إلى رقبته.

*****

(7)

أشعة شمس الربيع تخترق نافذة الغرفة، تتسلل إلى السرير حيث يبدو أن وحيد غارق في نومه، تداعب بشُعاعها اللطيف جفونه، يتقلب بجسده إلى الجهة الأخرى هربا من ممازحة الشمس له، ما زال مخدرا بالنوم ولا رغبة له في تقبُّل لعب الشمس معه، لكن يبدو أن الكلاب متواطئة مع الشمس، فقد أيقظه نباحها من نومه.

استيقظ وحيد من نومه مرحا مرتاحا كعادته هذه الأيام، هذه الأيام أفضل أيام حياته، بل أفضل من سنواته التي عاشها في الميتم، وأفضل من شهوره التي كان فيها متشردا، لم لا يكون سعيدا وقد أصبح ينام في غرفة واسعة بمفرده؟ ووسط الغرفة سرير دافئ، وله من الملابس والثياب ما لم يلبس منها في حياته، ويأكل أحسن الطعام وأشهى الأشربة، ويستيقظ على صياح الديَّكة، وخوار الأبقار، ونباح الكلاب، وصهيل الأحصنة، يستيقظ في عالم الطبيعة الخلابة التي لم ير مثلها في حياته، لقد أسرت قلبه، لم يكن يتخيل أن يتبدل حاله من حال

سيء، بل سيء جدا إلى أفضل حال بين لحظة وأخرى، فدوام الحال من المُحال، بل لم يكن يعلم أن السرقة ستكون سببا في اجتثاثه من عالم التشرد، ما زال يتذكر ذلك اليوم بوضوح، ما زال يتذكر إقدامه على سرقة فلاحٍ في سوق الأبقار، ومازال يحس بقبضة ابن الفلاح وهي ترفعه عاليا من رقبته.

ـ أنزله يا ولدي، لا تعنفه بتلك الطريقة.

ـ أراد سرقتك يا أبي، يلزم أن يأخذ جزاءه.

ـ ما الذي دعاك لسرقتي يا بني؟

استغرب وحيد من طريقة محاورة الفلاح له، ومن حُسن ملاطفته له، ومن العطف والحنان الذي يحمله صوته، بل ما جعل قلب وحيد يخفِق أنه يناديه بولدي، هذه الكلمة التي لم يسمعها يوما في حياته من رجل، نعم أمه رحمة تناديه بولدي، ولكن هذه الكلمة لم يسمعها مِنْ فِي رجل إلا اللحظة، ألجمه سماع تلك الكلمة عن الجواب، لبث متأثرا وهو يحدق في الفلاح ذاهلا، هل ما زال لك قلب يا لص؟ ينظر إلى الفلاح نظر المغشي عليه من الموت بدمعتين تترقرقان في مقلتيه.

ـ ما بك يا ولدي مذهولا متحيرا، لن نؤذيك، أنا أسألك فقط؟

كيف تريد أيها الفلاح أن يجيبك عن سؤالك وهو الآن في جذبته، يتمتع بكلمة لم تسمعها قط أذنيه، هو الآن في حال من أحوال النفس العلوية يغيب فيها قلبه، ومترفع عن أحوال البشر، "ولدي"! هل أنا أيضا يُمكنهم أن ينادوني بهذه الكلمة؟ هل حقا أستحقها؟ هل أستحق العطف كهذا العطف من البشر؟ ماذا قلتُ؟ من البشر!! وهل أنا لستُ بشرا؟

ـ حسنا، لا داعي للإجابة بني، لا عليك.

صحا وحيد من وَجْده، عاد إلى عالمه السفلي بلسان متعتع.

ـ عمي... أنا آسف... أقدمتُ على سرقتك... العوز... العوز والحاجة دفعتني لذلك... أنا مجرد متشرد لا أحد لي، لا مأوى، ولا وملجأ، ولا أسرة... ولمَّا ناديتني بكلمة ولدي، أسَرتْني، أسرتني هذه الكلمة، لمْ أسمعها قط في حياتي من فم رجل، اعذرني يا... يا.... يا أبي.

وانفجر وحيد بالبكاء، عانقه الفلاح الطيب، فرغم ضخامته وتصلب وجه، ولحيته التي اختلط فيها السواد بالبياض، وعيناه الثاقبتين، إلا أنه رجل طيب، ربت على ظهره، مسح بيده الضخمة على رأسه، وتحدثا جالسين على كرسيين قرب بوابة سوق الأبقار، حتى أتى الفلاح على عرْضٍ عرضه على وحيد، هذا العرض هو الذي جعل حياة وحيد تتغير.

ـ أملك مزرعة في البادية، على بعد سبعين كيلومتر من المدينة، فيها خيول وأحصنة وأبقار وماشية وغيرها من الحيوانات المنتجة، وعندي خدم كثر، وأحتاج خادما آخر يخدم معهم في المزرعة، فهل تقبل أن ترحل معي إلى هناك، ولك فيها غرفتك تأوي إليها، ومأكلك ومشربك، وتنزهك في يوم راحتك، وأجرك كذلك طبعا.

هل سيقبل؟ هل سيتردد؟ يفكر أن مهمته الأولى هي البحث عن أسرته، عن الروح، عن أبي عائشة، وإن وافق وغادر إلى البادية فسيتخلى عن هدفه، لكنه يرغب في تحسن حاله، لذلك وافق على الفور.

صدق ربُ الإمام العظيم الذي كان يقرأ عبده الإمام في صلاته {وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ}. مضت أيامُ وشهورُ وحيد في مزرعة الحاج موسى بأفضل حال، مزرعة عظيمة كبيرة، وَضَيْعة واسعة جعلت حاله يتحسن كل التحسن، تخلص من نحافته، أشرق وجهه وزارته الحمرة التي تدل على صحته الجيدة، كانت حياته مع الطبيعة، فمزرعة الحاج موسى كبيرة جدا، فيها كل أنواع الحيوانات المنتجة، وكثير من الأشجار المثمرة، وكان عمل وحيد سهلا ممتعا يُحبه، بل يعشقه؛ يستيقظ في الصباح الباكر، يعمد إلى عريش الأبقار، يحلب بعضها؛ يُحب تلك الأبقار ذات اللون الأبيض وبها بقع سوداء،

ويحب سماع خوارها عندما يضع آلة الحَلْب في ضرعها، يتجه إلى حظيرة الماشية يتفقدها، ثم إلى زرائب الأغنام ثم الخرفان ليعطي لهم علفهم، ويُمأمئ مع مأمأتهم، يمر في طريقه على بحيرة تقع على أطراف المزرعة يسبح فيها البط، يُقلد طريقة سباحتها، ويقلد صوت بطبطتها، يتنحى عن مزراب مُركب بجانب دار صغيرة حتى لا تسقط عليه قطرات مائه، يمر على الدجاج في قنِّهم، يجمع بيضها في سلة، ولا ينسى أن يستمتع بالجري وراءها وهي تتشتت وتتقافز هلعا منه، عاد له نشاطه وروحه المرحة، عادت له الحياة الوردية، يتحدث مع الحيوانات ويقلد أصواتها، فهذه أرانب يُطل عليها، وهذه ديَّكة يصيح في الصباح مع صياحها، وهذه الحمام يستمتع بهديلها، ويردد سجعها، ويمسكها ثم يطلقها في السماء ليرى الوجهة التي تتجهها قبل أن تعود إلى عشها، وهذه العجول يخور مع خوارها، وهذه العصافير يستمتع صباحا بزقزقاتها، وهذه الخنازير اصطادها الحاج موسى والعمال يأخذونها خارج المزرعة لرميها، وفي يوم عطلته يتجه إلى الاسطبلات ليركب ظهور الخيل والبغال والحمير، وليتمتع بزينتها.

دارت عليه كل الفصول في المزرعة، وكل فصل كان يجد فيه ما يبهجه عن غيره، عند قدومه المزرعة صادف قدوم

الربيع أيضا، استمتع فيه بجني ما لذ وطاب من فواكه وخضروات، يأكل منها ما يشتهيه قلبه وتلذ عينه، فهذه أشجار المشمش في صفوف مبهجة، وهناك فراولة، وهناك أشجار برتقال بشكل بديع، وفي الجهة الأخرى حقول مدَّ البصرِ للجزر، وحقول للطماطم، يجني منها ما يجنيه مع العمال الآخرين ويضعونها في صناديقها.

ويُقبل عليه الصيف ليتمتع بالسباحة في بحيرة المزرعة الواسعة، ويأكل من فواكهه، عنب وخوخ ومشمش وبطيخ قد استوى على الأرض وحاز مساحة كبيرة في المزرعة، وتين لم يأكل مثله يوما.

ويدخل عليه الخريف بتساقط أوراق الشجر في المزرعة، لتسقط الورقة التاسعة عشرة من عمره، وليُكمل سنة منذ خروجه من الميتم، نسي كل ذلك، هو الآن يستمتع بأكل التفاح وتصفيفه في صناديقه الخاصة.

ثم يهجم عليه فصل كان قاسيا معه منذ سنة، جرعه بؤسا ومشقة لا تُحتمل، فصل الزمهرير والمطر، لكنه في هذه السنة، سنة 2022 كان لطيفا معه، بل إنما وحيد هو الذي استعد لهذا الفصل، فهو الآن يستمتع بدفء غرفته، يلتحف من الثياب والأغطية أكثر مما يحتاجه كأنه ينتقم من أشهر الشتاء

البئيسة التي عاشها منذ سنة، يخرج إلى عمله وقد كسا ما يَقيه البرد، يأكل الموز، يجني الرمان، يخدشه شوك أغصانه، يلتذ بأكل أنواع العنب وترتيب كل منها في صناديقها الخاصة ليأخذها غيره من العمال إلى السوق لبيعه.

سنة كاملة وبضعة أسابيع عاشها وحيد في مزرعة الحاج موسى كانت خير أيامه، تحسن حاله فيها كثيرا، طابت نفسه، استوت هيأته، غاب البؤس عن ملامحه وحضرت النضارة مكانه، غاب الحزن وأثناء غيابه أرسل البشاشة ليحتل مكانه. أكلَ وشربَ مما لم يأكل ويشرب منه في حياته قط، لم تكن بطنه وحدها من استفادت، بل حتى روحه، شجعه الحاج موسى على الصلاة، حافظ عليها وحيد منذ أدائه لها في أول يوم له، ولم يتركها قط، بل حتى عقله أخذ قسطا من الفائدة، فقد كانت للحاج موسى مكتبة بها كتب كثيرة، وكان يستعير منه كتبا يطالعها ليلا، لاحظ أنه بعد سنة من احتكاكه بالكتب أصبحت قراءته ونطقه للكلمات يتحسن عما كان عليه، إذ إنه قبل أن يأتي إلى المزرعة كاد أن ينسى الكتابة والقراءة. كما أن تعامل الحاج موسى وابنه معه كان تعاملا في غاية اللطف والاهتمام، لكن فكرة تُشغله الآن، تفكيره في هذه الأيام الأخيرة معلق بشيء واحد فقط، هدفه الذي قرر تحقيقه عند خروجه من

الميتم، البحث عن الروح، عن أسرته، عن أبيه، أبو عائشة، أين هو منه الآن؟

أصبحتْ فكرة ترك المزرعة تسيطر على عقله، وتشغل باله، حتى جاء اليوم الذي أفصح عن ذلك للحاج موسى، أخبره عما ينوي فعله، وأنه قرر استئناف البحث عن أبيه، بعد تململ لدقائق من الحاج موسى، وبعد محاولات لثنيه عن ذلك؛ فهو يعيش هنا بأفضل حال، ولن يطرده أحد من المزرعة، ويمكنه أن يتزوج ويستقر فيها، بعد ذلك استسلم الحاج موسى لقرار وحيد، منحه أجره من عمله وزيادة، مال كثير لم يلمس وحيد مثله في يوم ما من أيام حياته، وبعدها حشا ثيابه التي كان يشتريها في حقيبة كبيرة، ثم حافلة أوقفها بجانب الطريق أقلّته إلى المدينة حيث كان منذ أكثر من سنة، وها هو في مدينة الدار البيضاء.

*****

(8)

قد يعاني الناس في حيواتهم، لكن هذه المعاناة ليس بالضرورة أن تكون جسدية، ليس بالضرورة أن تتعلق بالأجساد التي قد تُبتلى بشيء من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، بل قد يتقلب الإنسان في أنواع النعيم، ويجرب مختلف ما تشتهيه ذاته من أطعمة، ويركب أفخر السيارات، ويسكن القصور، لكن قد تعاني نفسه، قد يتوفر له كل شيء لكنه عقيم فيعاني نفسيا، أو يشعر بالوحدة فيعاني ذاتيا، أو يشعر بالخوف على مستقبله فيعاني معاناة نفسية، أو تكون علاقته مع شريك حياته على فوهة بركان، خصومات، ومشاحنات، ونزاعات لا تنتهي، فيعاني، أو أن يكون فاشلا في حياته رغم ما تملكه يده فتزوره المعاناة أيضا.

وحيد استطاع أن يتخلص من معاناته الجسدية قبل أكثر من سنة، والآن استأجر منزلا في حي شعبي في مدينة البيضاء، يحتوي غرفة صغيرة تتسع لسريره ومجال تحركه، ومطبخا، يُطلق عليه اسم مطبخ تجاوزا، فهو أقرب إلى الحمام في

مساحته، وحماما ضيقا خانقا على شكل مستطيل متساوي الضلعين، وهذان الضلعان يحس بهما وحيد كأنهما يزدادان ضيقا يوما بعد آخر كلما دخل الحمام.

ورغم ذلك فوحيد لا يهمه شيء من هذا، هو الآن له بيته الخاص، ينام متى أراد، ويستيقظ متى شاء، لكن آثار المعاناة النفسية ما زالت جاثمة على صدره، يُحس بالوحدة، يشعر بالخوف على مستقبله، يبكي بعض الليالي دون سبب، يختنق صدره بشدة، يستيقظ مرات عديدة من نومه على كوابيس مزعجة، يُفكر في أبي عائشة الذي تخلى عنه، يُفكر في أمه رحمة. الآن بعد أن تخلص من المعاناة الجسدية، وبعد أن استقر المال في يده، كأن نفسه وجدت وقتا فائضا لتعكر عليه مزاجه النفسي بما لم تفعله معه من قبل.

منذ أسبوع من وصول وحيد إلى المدينة، ومنذ استئجاره لهذا المنزل لم يخرج منه إلا قليلا، لم يستقص أخبار أبي عائشة ولم يسأل الناس عنه بعد، ثم إنه يفكر في زيارة أمه رحمة ولم يفعل ذلك بعد أيضا، وفكرة أخرى تداعب عقله وهي أنه ودَّ أن يعرج على الميتم ليأخذ بعض الحلويات للأطفال، لكن حتى هذه الفكرة بقيت حبرا على ورق عقله، نفسه المكتئبة المريضة تؤجل له كل شيء. لكن لندع جانبا

الحديث عن نفسه المهمومة، ولنخمن فيما ينتظره غدا من أحداث.

استيقظ وحيد هذا اليوم عازما على زيارة أمه رحمة، أمه التي لم تلده، أمه التي لم يرَها منذ أكثر من سنة ونصف، كيف سيكون حالها يا ترى؟ ما الذي سيكون قد تغير فيها؟ وهل سيجدها هناك؟ وماذا لو ماتت؟ جاءته هذه الفكرة كالصاعقة، نفض رأسه يريد إسقاط هذه الخاطرة العالقة فيه وأسرع يخرج من بيته، وبينما كان بجانب الباب يضع المفتاح في القفل ليُغلقه سمع خلفه ترحيبا.

ـ مرحبا بك أيها الفتى، كيف حالك؟

تصلب وحيد لثوانٍ أمام الباب، يسمع خلف ظهره صوتا أنثويا ناعما رقيقا يخاطبه، لم يلتفت كأنه ينتظر من هذا الصوت أن يؤكد وجوده بمخاطبته مرة أخرى، من تكون هذه التي تخاطبه؟

التفت خلفه ليجد بدرا منيرا لم ير مثله، بل هذا البدر يتحدث معه، فتاة أوَّل ما أثار انتباهه فيها أنها ما زالت تبتسم له بعد أن سألته عن حاله، تطلع فيها ينظر إليها من قدميها إلى رأسها صامتا وجلا، فتاة طويلة، رقيقة الجسم، زادها سروالها وقميصها الضيقان اللذان تلبسهما طولا ورقة ورشاقة، ونحافة

أيضا، قصيرة الشعر، يصل شعرها الأسود إلى منتهى رقبتها، بيضاء جميلة البشرة، بل جذابة، اكتسى خداها بالحمرة، وأعذب ما رأى فيها نظراتها وابتسامتها، تحمل حقيبتها الصغيرة على كتفها، وعطر أخاذ ينبعث منها، خمن في أن يكون عمرها أكثر من عمره بأربع أو خمس سنوات.

ـ أنا جارتك، أسكن بهذه الدار.

التفت وحيد للدار المجاورة لداره كأنه يراها أول مرة، كأنه لم يعلم بوجود باب بجوار باب بيته إلا اللحظة.

ـ تشرفت بك.

قالها وحيد بخفوت وخجل غمر وجهه حمرة، ما زال واقفا مكانه منتصبا ينتظر أن تُكمل حديثها أو أن تقول ما تود قوله، لكن لما ألفاها تنظر له مبتسمة دون أن تضيف عما قالته شيئا، وضع رأسه أمامه وأسرع الخطى مبتعدا عن منزله، في حين تناهى إلى سمعه عندما كان يبتعد ضحكتها المشفقة عليه من خجله.

تابع وحيد طريقه إلى مركز الوفاء لزيارة أمه رحمة، لكن صدفة التقائه بتلك الشابة شتتت أفكاره، من تكون هذه الجارة التي لم أرها منذ أسبوع من استئجاري للبيت؟ وهل كنتُ أخرج من البيت أصلا؟ وأين كانت ليلتها الماضية؟ يبدو لي أنها تدخل

بيتها للتو هذا الصباح، ولماذا تحدثت...أوه انس الأمر، لا شأن لي بذلك.

صرخ بها وحيد على نفسه وتابع طريقه، ها هو يقترب من محيط عاش فيه ثمانية عشر عاما من عمره، يتراءى له مركز الوفاء وجمعية الأيتام، لقد اشتاق للحاجة رحمة، سيبدأ زيارته منها أولا، كيف سيكون حالها يا ترى؟

تنفس الصعداء لمَّا استأذن لزيارتها فأذنوا له بذلك، ها هو الآن ينتظرها بقاعة الزيارات، وها هي الآن مُقبلة عليه.

تنهض من مقعدك ثم تتوجه إليها مسرعا في الوقت الذي تتجه إليك مسرعة، وتعانقها عناقا حارا، وتبكيان بكاء يخال مَن يراكما أنه لن ينقطع، وتقبِّل باطن يديها وظاهرهما، وتعود لعناقها، ملأتَ ثيابها دموعا، وبلَّلتْ قميصك بكاء.

ـ حبيبي ولدي، حبيبي ولدي.

ـ أمي رحمة، اشتقت لك، اشتقت لك كل الشوق.

ـ آه يا ولدي قلبي يتفطر على فراقك، لم تتركني خاطرة سيئة إلا وجاءت في بالي، ظننت الدهر قد أرداك ميتا.

يتهدج صوتها، تأخذ بيدها، ثم تُجلسها على كرسي، وتجلس قبالتها، تنظر إلى عينيها الدامعتين، تُشبع ناظريك من وجهها،

تتأملها بحسرة وشفقة، تجعد جبينها، اجتمعت التجاعيد في وجهها ترسم خيوطا مبعثرة، شحب وجهها وذهبت بارقته، ارتخت جفونها وانحنى ظهرها، كل هذا نتيجة الحزن عليك يا وحيد، وتسألك أين قضيت أكثر من عام ونصف؟ وتحكي لها باقتضاب دون أن تشير من قريب أو بعيد إلى معاناتك، وتُطيل السرد عندما شرعت في الحديث عن حياتك التي عشتها في المزرعة، لتختم بقولك إنك الآن قد استأجرت بيتا تقيم فيه لوحدك.

ـ لذلك أمي رحمة جئت من أجل أن آخذك لتسكني معي في مسكني الجديد، فأنت أمي وأنا ولدك.

وتترقرق الدمعات في حدقتي أمك رحمة، وتبكي في صمت، وتشد على يديك بحنان معتذرة، فقد ألفت هذا المركز الآن، كما أنها استأنست بأطفال الجمعية الخيرية، وتُعيد أنت طلبك برجاء، وتتوسل إليها في تودد أن تفعل، وتشرح لك بإسهاب ارتباطها النفسي بهذا المكان، وتعتذر إليك بلطف، وتعدك أنها ستفكر في الأمر، وستتصل بك حالما تُغير رأيها، وتُعطيها رقم هاتفك، وتَخرج وأنت تَعدها أنك ستكون في تواصل مستمر معها، تخرج وقد امتلأ صدرك بالسعادة والحبور. وتدخل جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، هذه الجمعية التي عشت فيها عمرك كله، تتجول بعينيك في أسوارها ومرافقها بشيء من

الحنين، توزع الحلوى على الأطفال، ترحب بك المربيات في سعادة حقيقية، يعانقك من يتذكرك من فتيان الجمعية، تدخل إلى مكتب إحسان مديرة الجمعية، تتفاجأ بوجودك، تبش في وجهك وتطيل الترحيب بك، وتطلب منك الجلوس على الكرسي الذي جلست فيه آخر مرة منذ رحيلك عن الميتم، تتحدثان، وقبل أن تغادر تقول لك كأنها تذكرت شيئا.

ـ وحيد، لقد زارني منذ سبعة أشهر رجل يبحث عنك.

ـ رجل يبحث عني أنا!!

ـ نعم، قال لي إنه يسأل عن ابن أبي عائشة، وأبوه اسمه أبو عائشة تركه في هذا الميتم منذ أكثر من تسع عشرة سنة.

ـ وماذا كان ردك؟

ـ قلت له إنه غادر الميتم منذ ما يقارب السنة.

ـ وهل تعرفين ذلك الرجل؟

ـ لا أعرفه، لكن لا أدري لمَ خاطري يقول لي إنني رأيته في مكان ما! ملامحه ليست غريبة عني! كان حليق الوجه، أنيقا في لباسه، يرتدي بذلة ذات سترة وقميص وربطة عنق، يضع نظارة شمسية وقبعة فوق رأسه مما حجب علي رؤيته بشكل جيد، ولمَّا سألته من يكون؟ لم يجبني وانصرف.

وتخرج من الميتم كما خرجت منه أول مرة، فتمشي في شوارع الدار البيضاء، تفكر في هذا الرجل الذي يسأل عنك من يكون؟ وتجلس في حديقةٍ على مقعد خشبي بعد أن أحسست بالتعب، ابتسمت عندما تذكرت هذه الحديقة، إنها الحديقة ذاتها التي جلست فيها عندما فررت من الباعة الذين أرادوا الإمساك بك عندما سرقت منهم بعض الفواكه، لكنها الآن عصرا ممتلئة بالناس، شاب يقرأ كتابا هنا، وفتاة جالسة مع صديقتها هناك، وزوج مع امرأته عن يمينك، وأب وأم مع أولادهم في كل موضع من هذه الحديقة، أسر سعيدة مع أولادهم، أسر لا تبحث عن الروح فهي تكسبه، رؤيتك لهذه الأسر تلاعب أطفالها جعلتك تُغمض عينيك وتذهب في رحلة سعيدة.

ـ أمي سأخرج مع أختي عائشة للعب.

ـ انتظر قليلا سنخرج الآن مع أبيك للحديقة.

ـ حبيبي وحيد تريد أن تخرج مع أختك بمفردكما دوننا؟ انتظر، اليوم سنأخذكما وأمك إلى مدينة الألعاب، ثم سنمر على حديقة الحيوانات لترى حيوانات جميلة فيها.

وتخرج مع أبيك وأمك وأختك، تلعبون وتضحكون وتستمتعون، أبوك يمسك بكف أمك وأنت تمسك بكف أختك، هي أكبر منك سنا، وتصعد مع أختك بجانب بعضكما البعض

في مركبات متنوعة، تنزل من هذه وتصعد في هذه، تُجربان ركوب دولاب الهواء، تنتقلان للعبة الأفعوانية الطائرة، تركبان في السيارة الاصطدامية. بعدها يأخذكم والدك إلى حديقة الحيوانات، هذا أسد في قفصه يزأر، وهذا قرد فوق شجرة يلعب ويضحك، وهذا فيل يبلل ثيابكم بالماء الذي يُخرجه من خرطومه الطويل، وهذه نعامة كبيرة، وتلك أفاعٍ داخل زجاجها تسمعون حفيفها. وترجعون إلى البيت وأنتم في قمة السعادة، وتنام هنيء البال، ويوقظك من غفوتك صوت الشاب الذي يقرأ في كتاب وأنت ما زلت في الحديقة، يتحدث في الهاتف مع صديقه ويقول: "صدِّقني كنتُ أفكر في أن أتصل بك يا صديقي"، وتعود إلى نفسك، وتعود إليك نفسك، وتبتسم، تبتسم لأنه ليس لك صديق يفكر فيك، هل يا ترى يوجد من يفكر فيك الآن من غير أمك رحمة؟ هل فكر فيك شخص ما في يوم من أيام وجودك في هذا الكوكب؟ هو يفكر في صديقه، وأنت إن شئت أن تُحضر شخصا ما إلى ذهنك لتُتَوجه بتاج التفكير فيه، فمن سيكون؟ لا أحد غير أمك. وتسمع الفتاة تقول لصديقتها إنكِ مثل أختي، وأنت يا يتيم، هل سمعت هذه الكلمة يوما ما تُقال لك؟ هل قيل لك يوما "يا أخي وحيد"؟ الأخوة التي لا تعرف معناها، حُرمت من هذه الآصرة ولم تجربها يوما يا صديقي.

أخذ السواد يغطي المكان، وأخذ الجمع ينفض من حولك، الشاب غادر مقعده، الفتاتان تحركتا حتى غابتا عن ناظريك، الأسَر رحلت، بقيتَ وحيدا في الحديقة كوحدتك في نفسك وكاسمك الذي يعبر عن حالك، هل اشتقت للشارع؟ هل تريد أن تُمضي ليلتك في هذه الحديقة؟ هيا غادر المكان والجأ إلى منزلك.

وأنت تدخل منزلك تديم النظر إلى باب جارتك الجديدة، تتطلع فيه لعلك ترى لها أثرا، تذكرتها بعد يوم طويل قضيته خارج منزلك.

وتنام على فراشك، وتعود سيرة أبي عائشة إلى ذهنك، من هو أبو عائشة هذا؟ يجب أن أجده، وتقرر أن تبدأ بجد وعزيمة بحثك عنه حتى تجده.

تخرج صباحا في الوقت نفسه الذي خرجت فيه أمس، قرار أملاه عليك عقلك لعلك تلتقي بتلك الفاتنة، لكن لم تلتق بها، ولا تدري لم جاءتك فكرة ملاقاتك لها، تبحث ليوم كامل تسأل الناس عن أبي عائشة، تخبرهم بمواصفاته، وأنه طويل القامة، له لحية كثيفة، يلبس جلبابا، لكن لا تهتدي إلى جواب.

وتتذكر صديقا لك، هل لك صديق؟ نعم، صاحبك عصام في التشرد، تذكرته وعزمت على الفور زيارته، مضيت إلى حيث

يقيم فوجدته قابعا في مُستقره كأنه لا يتزعزع منه، زُرع هناك مثل شجرة، ما إن رآك حتى وقف منتصبا يعانقك بشدة، وضع يديه على كتفيك يرمقك مستغربا، يحملق فيك متطلعا من قدميك إلى رأسك في تعجب لذيذ، فهمت سؤال نظراته فحكيت له عن كل ما حصل معك. تجولُ بنظراتك باحثا عن شخص افتقدته أيضا، أخته، تسأله عنها أين هي؟ خفق قلبك عندما أشاح بوجهه عنك في حزن، تدور تلقاء وجهه وتقترب منه لترى عينيه دامعتين، تعيد السؤال بقلب وجل في توتر وقلق، فيقول لك بصوت متهدج.

ـ ماتت، رحلت عني وتركتني وحيدا.

صاعقة كهربائية أصابت فؤادك، تنظر إليه بعينين جاحظتين متخشبتين على وجهه، وبفم فاغر من الدهشة والارتياع والرعب، فيردف قائلا.

ـ ماتت أختي أثناء وضعها لحملها، كانت ليلة صعبة، كدت أفقد فيها عقلي، لم أعرف ما أفعله، اكتفيت أحملق فيها وهي تموت، قتلتُها يا أخي وحيد، بل قتَلها الجبار المجرم الذي اغتصبها.

وتعود إلى بيتك هائما على وجهك، حزينا على بؤس تلك الفتاة المسكينة التي لم يرحمها الشارع، لم يرحمها مَن أنجبها

فرماها في الشارع، ولم يرحمها مجتمعها الذي اغتصب طفولتها، وتحقد مرة أخرى على المجتمع، وتتمنى لو تنتقم منه.

مضى اليوم الأول والثاني والثالث ولم تجد أبا عائشة، لكن في اليوم الرابع صادفت الفتاة تلج منزلها في الوقت نفسه الذي أردت أن تلج فيه أنت منزلك.

ـ أهلا أيها الشاب، لم تخبرني عن اسمك؟

ما زالت تلك البسمة مرسومة على مُحياها، وكأنها لم تغادرها مذ رأيتها مرسومة على ملامحها لأول مرة، وما زالت تلك النظرة البريئة تنبعث من عينيها.

ـ اسمي وحيد.

اعذريه، لا يحسن غير هذا، لا يحسن الاسترسال في الكلام، لا يستطيع أن يتحدث مع أنثى دون خجل وتلعثم، لم يتعلم أن ينطق الحروف والكلمات بثقة في نفسه.

ـ تشرفت بك يا وحيد... مم أنا اسمي جوري... حسنا كما أخبرتك من قبل أسكن بهذا المنزل... آه نعم هو... أقصد المنزل طبعا ليس منزلي، استأجرته فقط... مثلك... حسنا إن احتجت لشيء ما فأنا في خدمتك، ما عليك إلا طرق الباب.

صامتٌ أنت، لا تدري ما تقوله، لم تجد منك تجاوبا، تركتها كالبلهاء تتحدث بمفردها، أنقذتْك كلمتها الأخيرة التي فهمتَ منها أنها ستنصرف، وضعتَ المفتاح في الباب لتدلف في خشوع، وبعد ساعة تسمع طرقا في الباب، من يعرفك يا ترى ليسأل عنك؟ وتفتح الباب لتجد الفتاة مباشرة خلفه، تخشبت ملامحك، أحسست بذعر في قلبك، وبعرق يتجمع في جبهتك، وبقطرة منها تتزلج على ظهرك، أيقظك صوتها الرقيق من شرودك.

ـ أحضرت لك هذا الطعام، أعرف أنك وحدك في البيت وربما لا تحسن الطبخ فأتيتك به.

أمسكتَ بصحن الطعام في جمود ووجوم كأنك رجل آلي، أفقت مرة أخرى من دهشتك لتجد الفتاة قد غادرت إلى بيتها، وتركتك كتمثال منحوت أمام الباب.

لكن بما أن عالمك عبارة عن صدف فقط، وأن كل شخص تلتقيه في حياتك يأتيك صدفة ويغادر مثلما أتى صدفة، فكان هذا حال جوري أيضا، غادرت عالمك كأنها لم تكن، فمذ أسبوع لم ترها، ولم تر باب بيتها يُفتح أو يغلق، تشجعتَ وسألت صاحبة الدار التي استأجرتْ لكما المنزلين عنها، فقالت لك إنها أنقدتها أجرتها، وأخبرتْها أنها ستترك البيت.

إذن جوري غادرت البيت، ورحلت كأنها لم تكن، لبثتْ ذكراها في رأسك لمدة شهر كامل، وبقي صحنها في دارك إلى الآن، أنساك فيها بحثك عن أبي عائشة، خمسة أشهر من البحث ولا جديد، تستعين على تحصيل قوت يومك ببيع بعض المواد الغذائية متنقلا بها.

ها هو خريف آخر يذكرك بسقوط ورقة العشرين سنة من عمرك، اتصلتْ بك أمك رحمة وحدها تهنئك، وها هو شتاء 2023 يذكرك بأقسى معاناة في حياتك، وها هي بارقة أمل تسطع في الأفق، هناك من أرشدك إلى بقال في حيٍّ شعبي في المدينة يعرف أبا عائشة بالمواصفات التي تذكرها لهم.

ـ سيدي أين هو منزل السيد أبي عائشة، أخبروني أنك تعرف منزل رجل يدعى أبا عائشة، له لحية كثيفة، ويلبس جلبابا و...

ـ من أنت الذي تسأل عنه؟

لم يدعك تكمل مواصفاتك، قاطعك في تجهم فأجبته مرتبكا:

ـ أنا... أنا... أريده في أمر يخصني.

ـ أترى هذا الباب أمامك؟ هو باب بيته.

وتقف أمام البيت وجلا، وتعصف بك الأفكار والذكريات، مطر غزير كخيوط من السماء إلى الأرض، طفل صغير

ملفوف في خرقة يحمله رجل، ريح عاصفة غاضبة، الرجل يترك الطفل ويغادر، يكبر الطفل في ميتم، يخرج منه، يعاني البؤس والتشرد، يكاد يموت في شتاء قارس كهذا الشتاء. ماذا ستفعل؟ هل ستبقى واقفا أمام الباب دون حراك؟ ألَن تطرقه؟ هيا اختر أحد الأمرين، إما أن تطرق الباب أو تنسحب بكبريائك دون رجوع؟ وتقرر أنك ستطرق الباب، وتفعل، وتسمع خطوات تقترب، والطَّرقات نفسها تسمعها في قلبك، والخطوات نفسها تمشي على صدرك، وتعبث بك الأفكار، وتتجاذبك الذكريات والخواطر، هل أعصف في وجهه؟ هل أصرخ فيه بما جمعته من غضب طول هذه السنين؟ هل أستمع له ولعذره؟ هل... وفُتح الباب، وإذا بالرجل بتلك المواصفات واقفا أمامك مباشرة بوقار وإجلال يتفرس في وجهك متأملا، وإذا بك لم تعصف به ولم تنطق بكلمة، استمر صمتك برهة من الدهر تتأمله في هدوء، لم يستمر تأملك له، أخرجك من هدوئك بهدوء صوته قائلا:

ـ أي بني، هل تريدني في شأن ما؟

وتقول في تردد بعد ثانية من وصول آخر حرف من سؤاله البطيء إلى أذنك.

ـ هل أنت أبو عائشة؟

ـ نعم أنا هو، فيمَ تريدني أن أخدمك يا ولدي؟

ويجيب الصمت على سؤاله، لا تدري ما تقوله، ولا تدري أي الكلمات قد تخدمك في هذه اللحظات، أو ما هو الشعور الذي سيكون مناسبا لك معه، لا تعرفه، هل ستبكي؟ أم تصرخ؟ أم تُسمعه قصتك؟ أم... ويُعفيك من التفكير في ردة فعل مناسبة معه، ويطلب منك الدخول، رُبَّ ما تريد قوله لا يصلح للتلفظ به أمام الباب، وتتبعه بخطى ثابتة، بل وجلة، وتجلس على الأريكة، وينادي على ابنته.

ـ يا عائشة، أكرمي ضيفنا بما رزقنا الله.

وتلتقط أذنك اسم عائشة، أختك، وتشتاق لرؤيتها، ويحثك الرجل مرة أخرى على الحديث، وتستجمع قواك من أعماق أعماق قلبك لتقول في ثقة، وعيناك تكادان تثقبان عينيه:

ـ أبي لمَ تخليت عني؟ لم وضعتني في جمعية الإحسان لرعاية الأيتام عندما كنتُ رضيعا؟

الصمت هو الجواب، بل الانتباه الشديد ثم رجوعه بظهره إلى الخلف، ثم الدهشة، ثم الاستغراب، ثم الذهول، ثم تقطيب الجبين، ثم الفم الفاغر، ثم البسمة الساخرة، ثم بسمة إشفاق، ثم القهقهة، ثم الربت على كتفك.

ـ هل أنت بخير يا ولدي، هل تَعي ما تقوله؟

تدخل عائشة تحمل صينية شاي وحلويات، فتاة في أواخر العشرينيات من عمرها، بحجابها المسدول على ظهرها وصدرها، وتنظر إليك باستغراب وقد سمعت سؤالك، وتنظر إلى والدها، تسأله:

ـ من الشاب؟

ـ لا أعرف شيئا عن حاله بعد، ربما يعاني من اضطرابات عقلية، أو اختلط عليه الأمر.

ـ لا أعاني من أي اضطراب يا سيد، أنا ابن رجل يدعى أبا عائشة، وضعني في دار للأيتام منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا منذ سنتين أبحث عنه، ولما سألتُ الناس عنه، دلوني عليك.

عصفتَ بتلك الكلمات على وجهه، صرخت بها وقد أسعفتك هي الأخرى فاندفعتْ من فمك مع بصاق يتسابق معها، نظر إليك الرجل مرة أخرى بشفقة، ثم قال في هدوء:

ـ فهمتُ قصتك الآن يا بني، أنا متعاطف معك بصدق، لكن لا ذنب على مَن دلوك علي، أنت سألتهم عن رجل يدعى أبا عائشة، وأنا هو، لكن لستُ أبا عائشة الذي تقصده، وكم من رجل

يُسمي ابنته عائشة، ويُلقب بأبي عائشة، لذلك قطعا والدك شخص آخر ربما يحمل الاسم نفسه، أو لنَقُل اللقب نفسَه.

رباه... وتبكي، ويتحول بكاؤك إلى شهقات، وتتساقط شلالات الدموع من عينيك، دموع قاسية محرقة، دموع أسى، دموع خيبة، دموع انكسار، دموع إحباط، وتنهار في مكانك، وتخور قواك، وتنتحب بصوت مسموع، ويحضُنك أبو عائشة، ويقبض كفي يديه بقوة من فرط توجعه لبكائك وتحسره لحسرتك، وتتسلل دمعات من عيني ابنته عائشة، وتتحامل على نفسك، وتحملك قدماك، بل تحملهما أنت وتجرهما جرا في انكسار لا يستطيع وصفه والتعبير عنه أبرع الأدباء وأنبه الشعراء.

*****

بطل من ورق

(بعد سنتين)

(9)

يوم جديد من أيام الربيع، يوم مشمس وهادئ، الشمس أشرقت لتستأنف عملها اليومي الذي تقوم به بجد ونشاط، الطيور تغني أغنية الصباح، زقزقة العصافير تكاد تختفي مع تزايد حركة الناس الرتيبة الصباحية وهم يباشرون أعمالهم، الباعة المتجولون في مدينة فاس يرفعون أصواتهم مُعلنين عن بضاعاتهم وأثمنتها، أصحاب المحلات التجارية يفتحون أبواب متاجرهم، الأطفال يولون وجوههم شطر مدارسهم، الطلاب يقصدون جامعاتهم، الموظفون يركبون سياراتهم مقبلين على أعمالهم، الناس في حركة عادية، السيارات في الشوارع لا تتوقف عن الحركة، تلتقي عند إشارات التوقف لتُلقي التحية على بعضها البعض ثم تكمل طريقها.

الشمس تراقب كل ذلك من بوتقة السماء، تحفظ عن ظهر قلب كل ما يقوم به الناس، ولربما ملت من حياة الناس الدائمة الثابتة على حالة واحدة، فها هي الآن قد وصلت إلى كبد السماء، قطعت ربع مسافة منذ رحلتها التي شملت سكان

الأرض، ثم ها هي تميل مغادرة هؤلاء القوم، لتستقبل قوما آخرين في أرض أخرى. ثم ها هي السماء بدأت ترسل قطع الظلام على الأرض، وتُشكل من تلك القطع ستارا أسود دفنتْ به عالم الناس، فيقابل الناس هذا الستار الأسود المظلم الذي يُدفنون تحته بإشعال أنوار مصابيحهم في بيوتهم.

الأضواء تنبعث من نوافذ منازل الناس ومساكنهم، مَن يرى مِن بعيد هذه النقط الصفراء تتوهج يحسب أن الناس اتفقوا على إشعال قناديل بيوتهم بالتدرج كما تضيء مصابيحَ السماءِ السماءَ بالتدرج، ولمَّا اكتملت إضاءة النجوم في السماء، كانت منازل الناس في فاس قد اكتمل فيها الضوء المنبعث من أسرجتهم، إلا بيت واحد كانت أضواؤه هامدة، وبتعبير أصح هي فيلا في ضواحي فاس وليست ببيت.

فيلا كبيرة وواسعة، يُغطيها ظلام دامس، إلا مِن أضواء خافتة متفرقة تنبعث مِن مكان ما فيها، لا يُسمع فيها لغوا ولا حسيسا، بعد هذا السكون المريب، والصمت المخيف، اشتعلت أضواء الفيلا كلها في لحظة واحدة، وانبعث منها لغو وضجيج وضوضاء وجلبة هزت الفيلا، ضج فناء الفيلا بالهتاف والتصفيق والضحك، ليظهر تحت ألوان أضوائها المختلفة اختلاف ألوان قوس قزح شباب وفتيات ونساء ورجال مبتهجين فرحين، تحيطهم من كل جانب بالونات مختلفة

الأشكال والألوان، ووسطهم منضدة مستديرة ممتلئة بالحلويات والمشروبات، وأمام تلك الطاولة تقف فتاة بلباسها الجذاب بيدها سكين مستعدة لتقطيع الكعكة التي زُرع فوقها اثنتان وعشرون شمعة.

إنه عيد ميلاد أسيل، تحتفل اليوم بمرور عقدين وسنتين من عمرها، منذ سنوات دأبت في مثل هذا اليوم من كل سنة بدعوة أصدقائها وصديقاتها ليحتفلوا معها بعيد ميلادها في فيلا أبيها حسام، وها هي اليوم قد جمعتهم مرة أخرى ليشهدوا بلوغها من السنوات عدد الشمعات المرتبة فوق الكعكة، وها هي قد لفتت أنظارهم مرة أخرى بجمالها ورشاقتها كما تلفت أنظارهم دائما، فتاة كأنها قصيرة القامة، وليست بقصيرة، ينسدل شعرها على كتفيها كأنه شلال عذب طويل، وليس شعرها بالطويل البائن، أو كأن شعرها مصنوع من الحرير الناعم لرقته وعذوبته، ترتدي فستانا ورديا قصيرا اكتفى ببلوغ ركبتيها المكتنزتين، بيضاء البشرة، أنفها كأنه خُلق بحجمٍ ليناسب تفاصيل ملامحها، عيناها متسعتان وشفتاها امتلأتا أكثر، امتلأتا إذْ افتر ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسنانا بيضاء منتظمة إلا واحدا منها مال عن البقية في فكها العلوي، وإن ظل جميلا لافتا للنظر، ولولا ما يزيدها ذلك السن من جمال عندما تبتسم لقامت بتصويبه وتصفيفه مع إخوته.

مالت بجذعها نحو الكعكة وقد ملأت رئتيها بالهواء لتصوبه من مدفعية فمها تلقاء الشمعات الواقفة أمامها في رضوخ واستسلام.

ـ لحظة.

أوقفها والدها حسام وهو يردف قائلا بابتسامة تكاد تتحول إلى ضحكة ثم قهقهة.

ـ لمَ نحن مستعجلون؟ دعينا حبيبتي نرقص ونغني، وبعد أن يُنهكنا الرقص والغناء يمكنك أن تطفئي شمعاتك.

قالها وقد مد يده ليرفع من صوت الموسيقى الصاخبة، اندفعت الموسيقى من الفيلا بجنون، في اللحظة نفسها انتظم الشباب راقصين، يأخذ كل شاب منهم بيد صديقته ليرقص معها، وكان نصيب أسيل من الرقص على يد صديقها أويس الذي يكبرها بخمس سنوات، هو صديق أبيها أيضا، والدها يرجو أن يكون أويس زوج ابنته المستقبلي، ولمَ لا يكون زوجا لها وهو شاب وسيم الطلعة، يحب حسام أفكاره وثقافته، طويل القامة، حليق الوجه، يصفف شعره إلى الخلف بزيت الشعر ليبدو جذابا لامعا.

أخذ أويس بيد أسيل وقد وضعت يدها الأخرى على كتفه، ويده الأخرى على خصرها، وغاب الكل في نشوة الغناء

واللحن والطرب، فلا تسمع الآذان إلا الموسيقى الصادحة، ولا تشم الأنوف إلى عبق الطيب المنعش، ولا ترى الأعين إلا حركة الرقص الدائري، ولا تخرج من الأفواه إلا الابتسامات والضحكات والقهقهات، الكل يرفل في ثياب جميلة جذابة، تحول الفناء إلى خلية نحل بعد أن كثر الهرج والمرج، يرقصون على أنغام الموسيقى بخفة ورشاقة، ضحكاتهم وصلت عنان السماء، أفواههم لا تسكت عن كلام الحب والغزل، شفاههم لا تهدأ، وحسام راض كل الرضى عن هذا الجو البهيج الذي أسعد به ابنته.

كان حاسم جالسا مع روفيدا رئيسة جمعية "النساء قادمات" التي يُنسق معها كثيرا للقيام بأنشطته التوعوية، وكان ينتصب خلفه حارسه الشخصي، كان حسام يرى حارسه الشخصي قوي البنية طويل القامة عريض المنكبين، ضخم الرأس، هكذا يراه.

لكن ليس كل من في البيت سعيد مبتهج، ففوق هذا الجمع الصاخب، تُطل عليهم عفاف أم أسيل من نافذة غرفتها بعين دامعة وقلب وجل، يبدو أنها غير راضية على ما تراه أسفلها، لم تتوقف الدمعات عن النزول من عينيها منذ أن بدأ هذا الجمع بالرقص والغناء، ترقبهم بقلب مضطرب خائف وبنظرة إشفاق عليهم، ترقب زجاجات خمر في ناحية من المائدة لمن يريدها،

هي غير راضية عما تراه، تعتبر ذلك مجونا ومتجاوزا للحد، أي حد؟ الحد الذي تؤمن ألا ينبغي تجاوزه، وهو الانضباط للأخلاق والقيم السامية، واحترام الآداب العامة، فما تراه الآن لا انضباط ولا احترام فيه، وما يؤرق قلبها أن كل ذلك تحت أنظار زوجها حسام، بل هو من يشجع على ذلك ويدعو له، وآه كم تشتاق لتعود إلى سنوات خلت، سنوات كانت فيها مطمئنة هادئة، لا يعكر صفو خاطرها مثلما تراه الآن.

بعد ساعات من الرقص والغناء واللهو، هتف حسام منطلقا في كلامه بتحفز وحماس:

ـ الآن يمكنكِ إطفاء شمعاتك صغيرتي، لقد تعبنا من الرقص.

اقتربت أسيل من الكعكة واستعدت للنفخ على الشمعات، وما أن كاد الهواء يخرج من فمها حتى توقفت كأنها أبصرت في الكعكة حشرة، أو ربما تذكرت شيئا.

ـ ما بك بُنيتي، لمَ توقفت؟

ـ أبي نسينا أن ندعو وحيد للحفلة، لا يليق بنا أن نحتفل وهو في الأسفل وحده، لابد أن ننادي عليه ليَحضر معنا إطفاء الشمعات، وليأكل معنا ما تشتهيه نفسه.

صاح حسام في غضب وقد انتفخت أوداجه، وقليلا ما يغضب بهذا الشكل على ابنته أسيل:

ـ أهذا الذي أوقفك، هذه الفكرة التافهة؟ ابنتي أسيل لا تُبددي فرحتنا ومتعتنا بهذه الفكرة الطائشة.

ـ أبوكِ معه حق يا أسيل، هيا أطفئي الشمعات، ودعينا نتمتع بالتذوق من هذه الأطباق اللذيذة.

هكذا هو دائما أويس، يوافق حسام في كل شيء، يرى بعينيه ويسمع بأذنيه، ويمشي برجليه، لا يختلف معه في رأي، ولا يأتي برأي مخالف لحسام، وإذا ما قال برأي ثم تبين له أن حسام قال بغيره، فإنه يغيره في لحظة ليوافق ما قاله حسام. لكن قرارات أسيل لا تتخلى عنها بسهولة، عنادها يجعلها دائما تتشبث بما تريده، أليس هذا ما علمه إياه والدها، علمها أن تكون عنيدة شرسة، أن تتمسك بحقوقها وآرائها، أن تُسمع صوتها للناس عاليا، علَّمها ألا تضع رأسها أرضا، وأن تواجه بعينيها كل من يريد أن يسلبها حريتها وحقوقها، حتى لو استدعى الأمر أن تُدخل عينيها في عينيه، لذا صاحت أسيل من بين أمارات الغضب التي بدأت تلوح على محياها، وقد بدا أنها لا تريد التخلي عن رأيها:

ـ لن أطفئ الشمعات حتى يحضر وحيد، ومن أراد أن ينوب عني في إطفائها فليفعل، لم أنس فضله بعد.

صمت الجميع من هياجها خوفا من أن تَغضب في يوم عيد ميلادها فيُفسدوا فرحتها، ردَّ صدى صمتهم على صوتها، فلمَّا لم تلقَ جوابا، طلبت من الخادمة أن تنزل للأسفل للنداء على وحيد.

توقفت حركة الكل منتظرين هذا الوحيد الذي أوقف سهرتهم ومُتعتهم، فكثير هنا لا يعرفونه، ولا يعرفون دوره في هذا المنزل، في حين نهشت الغيرة قلب أويس، والغضب قلب أبيها.

دخل وحيد والصمت المطبق يعم المكان، وفي لحظة انكسر هذا الصمت بكلمة أنثوية.

ـ وحيد!!

ـ جوري!!

أصبحت النظرات في دهشة وحيرة تترنح بين وحيد وجوري، يتساءلون في صمت كيف يعرف أحدهما الآخر، كيف تعرف جوري رئيسة الجمعية النسوية الشهيرة التي بلغت شهرتها الوطن كله، بل خارج الوطن، والتي ما أن تسمع

السلطات باسم جمعيتها حتى يُرخصوا لها للقيام بأنشطتها، كيف تعرف هذا الخادم الذي لا يعرفه حتى أهل هذه الدار؟

بعد انتهاء الحفل انزوت جوري مع وحيد إلى زاوية قاصية لتسأله السؤال السرمدي الذي استقر في عقلها منذ دخوله، ما قصته؟ وكيف تعرَّف على أسرة المفكر العظيم والباحث اللامع والمدافع الشرس عن حقوق النساء والإنسان، السيد حسام؟

*****

(10)

قدَّر القدر قدَره، وقضى القضاء قضاءه بأن أوجدني في ميتم بعدما تخلى عني من أوجداني في هذا الكون، خرجتُ من الميتم بعد بلوغي سن الرشد، قالوا إني بلغتُ سن الرشد فاخرج، حددت هدفي بأن أبحث عن أسرتي، عن روحي، لعلي أعرف ذاتي، ولما عرفتُ اسم والدي شرعتُ أبحث عنه، فتعرضت للتشرد شهورا، وللمعاناة والبؤس سنوات، ولما التقيتكِ في المنزل الذي استأجرته، كانت أحوالي قد تحسنت، وكنت حينها في كل يوم أسأل عن والدي، فلا أهتدي إليه، وبعد اختفائكِ بسنة، وفي يوم من تلك الأيام التي أخرج فيها صباحا، كانت أسيل رفقة ثلاثة أصدقائها منهم أويس، كانت سعيدة مع رفقتها، تتحدث بصوت مرتفع وتضحك، تنتقل بينهم بخفة نحلة بين أزهارها، في تلك اللحظة مر شبح كالبرق خطف حقيبتها الصغيرة المعلقة على كتفها وانسل من بينهم كالضوء الخاطف، من فرط دهشتها وخوفها وارتجاف قلبها وضعت يدها على فمها، لم تستطع أن تُخرج حرفا واحدا من شفتيها،

نظرت إلى أويس تحثه بنظراتها على اللحاق باللص، لكنه بدا كأبله غير مستوعب لما حصل، أو أنه يتظاهر بعدم الاستيعاب، لم تترك له الفرصة، صرخت في وجهه.

ـ الحق به يا أويس، في الحقيبة هاتفي وأوراقي الشخصية، وبطاقات مهمة تلزمني، هل جئنا من فاس إلى الدار البيضاء لنُسرق؟

لكنه في تلك اللحظة كان مغفلا، أو يدعي ذلك، بل ظهرَ في صورة جبان رعديد، فما كان منه إلا أن استمر ينظر فاغر الفاه حيث اختفى اللص دون حركة، كل هذا المشهد مر أمامي في ثوان، كنت خلفهم مباشرة، لم أتحمل الظلم الذي لحق بتلك الفتاة فأطلقت سيقاني للريح، اندفعت مهرولا بمحاذاة منهم بسرعة تذكرتها عندما كنتُ لصا أيضا، مضى وقت طال بعض الشيء عندما كنت أجري وراء ذلك اللص الذي يختفي في شارع ويظهر في آخر، ويخرج من زقاق ليدخل زقاقا آخر، لم أستسلم، وبدا أنه يريد الاستسلام من شدة التعب، وحقا ذلك ما حصل، توقف عن الفرار يركع لاهثا، لحقت به وأمسكته من تلابيب ثيابه.

ـ عصام!!

ـ وحيد!!

كان اللص صديقي المتشرد عصام، خجلت منه، خجل مني، حملق في وجهي في رعب ودهشة وهتف:

ـ ألمْ أقل لك إن كل شيء مستباح في عالم التشرد.

ـ اعذرني صديقي، سآخذ منك هذه الأمانة لأردها لصاحبتها، أشفقتُ عليها من فعلتك هذه.

ـ أي إشفاق يا أبله! هل أشفقَوا علينا ونحن - المتشردون - نأكل من القمامة، وننام على الرصيف، هذا حقنا نسلبه من الأغنياء يا وحيد، رفضوا أن يعطوه لنا طواعية فأخذناه كرها منهم.

ـ قل ما شئت يا صديقي عصام، وافعل ما شئت، لكن صِدّقني لن تأخذ شيئا مما سرقته، شيء ما في قلبي يحثني بقوة على إرجاع الحقيبة لصاحبتها، يمكنك أن تعيد محاولة السرقة مع شخص آخر، لكن ما حصلت عليه في هذه المحاولة سترده لي لأعيده لصاحبته.

تجادلنا لبرهة من الزمن، ثم خطفت منه الحقيبة وعدت مسرعا بها إلى صاحبتها، تركت ورائي شتائم قبيحة وكلاما نابيا في حقي من فم صديقي عصام، وصلت إلى أسيل وأعطيتها الحقيبة، أخبرتها أني لحقت باللص واسترجعتها، بكت حينها من الفرح، انقضت علي لتعانقني فأمسك بها أويس

لتهدأ، تنوعت كلمات الشكر من لسانها، والدموع لم تكف عن الانسياب من مقلتيها، ويداها تبحثان في الحقيبة عن محتوياتها هل ما زالت في مكانها، ولما اطمأنت أن كل شيء في مكانه، قالت:

ـ لا أستطيع أن أشكرك، في الحقيبة بطاقات وأوراق مهمة جدا بالنسبة لي، لا أستطيع أن أكافئك على صنيعك هذا، أرجوك اترك لي رقم هاتفك أريد أن أتحدث معك فيما بعد.

كنتُ في غاية السعادة، ليس لأني استرددت لها حقيبتها، لكن لأنني فعلتُ الخير، ولأنها قالت لي شكرا، هل تستوعبين أن يفرح يتيم متشرد بفعل الخير وبسماع كلمة الشكر، منذ متى شكرني آخر شخص؟ لا أذكر، بل ربما لم يشكرني أحد في حياتي، ربما لأني لم أفعل من قبلُ خيرا قط، وها أنا فعلتُ اليوم الخير، أنا إنسان صالح إذن. تركتُ لها رقم هاتفي، وفي اليوم التالي اتصلتْ تحدد موعدا للقائها بي، جاءت يومذاك كفراشة مختلفة الألوان، التقينا في مقهى، كانت قد أتت بمبلغ مالي لتجازيني على صنيعي، لكن رفضت المال، وبعد أن تحدثنا عرفتُ أنها تقطن بفاس، وأنها جاءت مع أصدقائها إلى الدار البيضاء في نزهة، وأنهم يأوون إلى شقتها التي جعلها والدها باسمها هناك، وعرفتْ من كلامي أني يتيم، وأني غادرت الميتم منذ سنوات بعد أن قضيت فيه عمري كله،

وحدثتها عما عشتُه بعد خروجي دون أن أخبرها أن ذلك في سبيل البحث عن رجل تخلى عني حفاظا على كرامتي، قالت بعدها كأنها تأمر لا تطلب:

ـ وحيد، نحتاج في فاس إلى بستاني ليقوم على شؤون بستانٍ في فيلتنا؛ يقلِّم أغصان أشجاره ويسقي أزهاره، وينقيه من الأعشاب الضارة، أريدك أن تشتغل بستانيا فيه بأجر سيروقك، فكما أخبرتني أنت لا عمل قارٍ لك، كما أنك جربتَ حياة المزرعة.

بعد تردد واعتذار بأدب وافقتُ على إلحاحها، وافقت لأني كنت أحس بالوحدة في غرفتي، كما أن ما كان معي من مال بدأ ينضب، فخشيت العودة للتشرد في الشارع مرة أخرى، قلتُ مخاطبا ذاتي:

"المرء لا يسأل القدر عندما يبتسم له، لماذا ابتسمتَ لي".

لكن فيما بعد أخبرتني أسيل أن والدها رفض في البداية أن أشتغل عندهم في البستان، ثم بعدها أقنعتْه على مضض، استغلت مكانتها عنده، فهو لا يرد لها طلبا. وهكذا كما انتقلتْ بي إحدى عمليات السرقة إلى المزرعة، انتقلت بي عملية سرقة أخرى صاحبُها صاحبي إلى فيلا حسام.

انتقلتُ لأعيش معهم في غرفةٍ أسفل الفيلا، وبعد أشهر من مكوثي معهم، عرفتُ بعض طباع كل فرد منهم، فأسيل وإن كانت متحررة مثلك يا جوري، إلا أن قلبها طيب مثل قلبك أيضا، وأبوها حسام أفكاره يطبعها بطابع الحداثة والتنوير أيضا، لكنه يبدو لي مغرور وأحمق، وأما أويس الذي يزورهم كثيرا فأستطيع أن أهمس في أذنك وأقول إني أراه مثل ذئب في ثوب إنسان، يستغل أي فرصة ليحقق مآربه التي لا أدري عنها أي شيء إلى حد الآن، أما ما لم أفهمه، ولم أستطع تفسيره، ويجعل عقلي يجن هو أن حسام رغم ما يتسم به وابنته أسيل من تحرر، إلا أن أمها عفاف شديدة الحشمة والوقار، بل يا جوري تُرخي نقابا على وجهها كلما خرجت، ولم أرها يوما دون نقاب، والأعجب أن زوجها لا يمانع ذلك، ولم يطلب منها يوما أن تخلعه، بل الأغرب أني سمعت بعض الخدم يتحدثون خلسة أن زوجها هو من يأمرها بارتداء النقاب وعدم خلعه.

نظرتُ إلى وجه جوري وأنا أتحدث عن عفاف فرأيتها تحرك رأسها في حيرة، سألتُها مستفهما، فقالت:

ـ ما تقوله صحيح يا وحيد، لا أحد يعلم عن نقاب زوج حسام شيئا، كلنا نعرف أن عفاف تضع نقابا، لكن كيف أن مفكرا عظيما مثل حسام امرأته ترتدي نقابا؟! هذا ما لا يستطيع أحد فهمه!

ـ دعينا الآن من عفاف، أخبريني عن قصتك، كيف تَركتُكِ في منزل مستأجر في الدار البيضاء، وأنت الآن أمامي في فاس؟

قلتُ ذلك بتحفز وابتسامة غير مصطنعة، فقالت بمرح وابتسامة ماكرة.

ـ أين اختفى خجلك، أنسيت أنك كنت تقف بجانبي فترتعش أوصالك، وترتبك الكلمات في لسانك، ويتجمع العرق في جبينك.

قالت ذلك وأطلقت قهقهة مدوية، لم أعِر ضحكتها اهتماما، قلت في لامبالاة:

ـ تلك الأيام قد ولَّتْ، وقد علمتني السنوات التي جاءت بعدها أن أعرف حقيقة الحياة، وحقيقة التعامل مع أهلها، وها أنا أتحدث معك بطلاقة، فلم يعد للخجل حيز في قلبي، وشكرا لسنوات الحياة على درسها الممتع.

ابتسمتْ، ابتسمتُ، ثم قالت تختم كلامها وقد ابتعدت منصرفة:

ـ ستعرف قصتي فيما بعد.

ـ أرجو ذلك، ولا تنسي أني ما زلت أحتفظ بصحنك، سأرده لك في أقرب مناسبة إن كنتِ ما زلت ترغبين فيه.

*****

(11)

قد تكون جوري مقصرة في حق حسام إذْ وصفته بمفكر عظيم وباحث لامع ومدافع شرس عن حقوق الناس، إنما هو أرفع من ذلك، ذلك الوصف قليل في شأنه، مَن لا يعرف حسام؟ من لا يعرف ذلك الرجل الكبير الذي وهب سنواته الأخيرة من حياته للدفاع عن كل ما يمت بصلة للنور، للحداثة، للتقدم؟ هذا أقل شيء يفعله لتعويض سنواته التي عاشها في الظلام، في الجهل، في التخلف، هو يعترف أنه كان في الظلام وخرج إلى النور، خرج ليعلن للعالم أنه رجل هذا الزمان، رجل المرحلة، لا أحد يضاهيه في جرأته واستماتته في الدفاع عن المظلومين، ومن يكون المظلوم في عصر حسام إذا لم تكن صاحبة الجلد اللين والصوت الرقيق والمشاعر المرهفة، الملَك في جنس بشر، الجنس الذي إذا قيل عنه جنس لطيف كأنه سبة في حقها، فهي تستحق وصفا أعظم من هذا الوصف، تستحق أن يَبذل الشعراء والأدباء والفصحاء والبلغاء كل أوقاتهم في وصفها والحديث عنها، مَن تكون إذا لم تكن المرأة.

المرأة هي المظلومة في عصر حسام، وعليها يدافع، ولها يعيش، ومن أجلها يُقاتل، هي مركز الكون، الولاء والبراء يدوران حيثما دارت. أما الرجل.. فحسام لا يدافع عنه، وإن كنتَ تتساءل لماذا؟ فبكل بساطة لأن الرجل هو خصم المرأة، هو عدوها اللدود، لذلك نذرَ حسام حياته للدفاع عنها منه، وإعلاء شأنها على حسابه، والانتصار لها عليه، فهو يُسبِّح بحمد المرأة في كل ملتقياته ومحاضراته، يَذكرها في كل مجالسه، ينام على ذكرها ويستيقظ على ذكرها، بل أذكاره اليومية هي المرأة، المرأة مئة مرة في الصباح، ومئة مرة في المساء، بل هي دواؤه الذي يتناوله قبل فطوره، ويتجرع منه ثلاث جرعات بعد الغذاء، ويختم به عشاءه.

بفعل جرأته في الدفاع عن حقوق المرأة كسب حسام أصدقاء كثيرين، وفقد مثلهم أيضا، كم يُبغضه خصومه عندما يرونه على شاشات التلفزة وقد دخل بيوتهم دون إذن منهم، ويتحدث بأريحية عما يغيظهم، يلبس بدلته الرسمية من سترة وقميص وربطة عنق في كل لقاء تلفزي له، كأنه يريد أن يُمعن في النكاية بهم وإحناقهم. ولا شيء يعلم أنه يوغر صدورهم بشدة مثل ابتسامته، نعم لا يُنكر أحد أن حسام رجل وسيم وإن كان على عتبة الخمسين من عمره، إلا أن ابتسامته هي التي تفسد عليه وسامته، فكلما ابتسم بعفوية وجد ابتسامتَه تخرج مثل

ابتسامة ثعلب ماكر ساخر، وهل يبتسم الثعلب؟ عندما يبتسم حسام تميل ابتسامته بشكل ملحوظ إلى شدقه الأيمن من فمه، فتبدو وكأنه يريد أن يبتسم بمكر، لكن في الحقيقة تلك هي ابتسامته، حاول أن يصلحها مرارا ولم يستطع، كم وقف مع المرآة يعدل من بسمته، يُغير من حركة ابتسامته، يُغير من حركة شفتيه وخديه، لكن دون جدوى، الابتسامة هي الابتسامة، لا تخرج من فمه إلا ماكرة كمكر ثعلب، لكن لمَ يجاهد ذاته ليُخرجها بشكل تليق به أكثر إذا كانت بسمته تغيظ أصحابه القدامى؟ فليحافظ عليها ما دامت تزيد في حنقهم، أما أصحابه الجدد فيعلمون أنه لا يملك غيرها، لا يملك غير هذه الابتسامة الماكرة. ما يثير حفيظة أصحابه القدامى أيضا مشيته بطول قامته الفارع ورشاقة جسده، ولمعان وجهه وشعره، فتجده يُترع حساباته الشخصية في مواقع التواصل بصوره؛ يمشي، يجلس، يتأمل غروب الشمس. ها هو في باريس، وها قد انتقل إلى لندن، وفي اليوم نفسه تجده في فيينا، ثم في الغد يعرج على الرياض، وبعدها وقبلها في دول لم يصل إليها من قبل.

أصبح حسام في هذه السنوات الأخيرة في شغل مستمر بندواته الوطنية والدولية، ولقاءاته الرسمية، وفي استضافة شبه دائمة للقنوات العامة والخاصة، وكاتب له وزنه في أعمدة

الجرائد والصحف الورقية والالكترونية، وفي تنسيق دائم مع الجمعيات النسوية، ومن بينها جمعية جوري وحركة وجمعية "النساء قادمات" التي تقودها روفيدا.

روفيدا المرأة التي يريد حسام أن تكون كل النساء على شاكلتها، إلا زوجُه، لا يريد من زوجِه عفاف أن تكون مثل روفيدا، فلتكن ابنته وبنات العالمين في تحرر روفيدا وحداثتها ودفاعها المستميت عن حقوق النساء وحريتهن، روفيدا بشَعرها الأشقر الذي تُسقط خصلات منه على عينها اليسرى، وأنفها الواقف بثبات مع خديها، وفمها الواسع، و....

حسنا هذه ليست مواصفاتها الحقيقية، هي لم تكن جميلة بقدر هذا الجمال قبل قيامها بعدة عمليات للتجميل، وبعد صبغ شعرها بأنواع من الألوان، وبعد عرض جلدها لمختلف الأدوية والدهون، هي وإن كانت تغادر السنة الأخيرة من عقدها الثالث، وتستقبل سنتها الأولى من عقدها الرابع، إلا أن من يراها يحسب أنها في عقدها الرابع، نعم يخالها في عقدها الرابع رغم عمليات التجميل واهتمامها المبالغ فيه بجسدها وملامح وجهها، لم يقلص اهتمامها المبالغ فيه بذاتها من عدد سنواتها التي عاشتها، أربعون في العمر هي أربعون في الوجه، لكن وإن وصلت إلى هذا العمر، فقطار الزواج لم يفتها بعد، ومن قال إن الزواج قطار تركب فيه مَن هن في

العشرينات من عمرهن فقط، بل الزَّواج في نظر روفيدا حري بأن يكون لمن تخطت الأربعين، حينها تكون قد تمتعت بحياة شبابها كما تحب، وبعدها مرحبا بزوج يخدمها، ويسهر على شؤون ليلها، أما في نهارها فلا تمكث في البيت، إن شاء أن يهيِّئ لها الطعام فستكون له من الشاكرين، ثم إن روفيدا لا تقبل أيا كان ليكون زوجا لها، فكم رفضت من خطيب وردتهم بأدب، والعهدة عليها، هي تريد زوجا يكون زوجا حقا، يأتيها على فرسٍ من نور، فارسٍ بسيف وهاج ينزل من فرسه، يركع على ركبتيه ليقبِّل كفها اليمنى، وقدمها أيضا، ولمَ لا التراب الذي تمشي عليه، آنذاك يمكن أن تفكر في الزواج، أما وهذا الفارس يعيش معها في الأرض ولم يأت من السماء، فلن تقبل بأحد منهم، هذا إذا تَقدَّم لخطبتها من يرضى لنفسه أن يكون خادما لها.

حسام الآن في فيلته أمام المرآة يعدل من ربطة عنقه، يصفف شعره ويلمعه، عزم السير ومعه حارسه الشخصي نحو جمعية "النساء قادمات" استعدادا للقاء جديد سيتحدث فيه عن... عن المرأة طبعا، لكن هل قبَّل المرأة التي تركها في غرفتها قبل مغادرته للفيلا؟ هل ودعها بابتسامته التي يوزعها على النساء خارجا؟ ومن يدري.

وصل حسام إلى الجمعية، وجد في استقباله روفيدا.

ـ أهلا حسام، تزداد وسامة يوما بعد آخر يا رجل، وكأن السنين تتناقص من عمرك لا تزيد.

ـ أعتذر عن التأخر روفيدا، الشوارع مزدحمة كالعادة.

ـ لا بأس يا رجل، المهم أنك لم تَحْرِمنا من رؤية نور وسامتك.

ـ ما هذا الغزل الصباحي يا امرأة، لا تنسي أني متزوج.

ضحكت روفيدا وضحكت النسوة اللواتي كن معها، جلسن حول مائدة مستديرة لمناقشة تفاصيل الندوة التي ستكون من تنظيم جمعية "النساء قادمات"، كان عددهن ثمانية، إنما على الأصح عددهم ثمانية، ثامنهم كلبهم، ثامنهم حسام مع سبع نسوة، وإن كان حسام يرى أن اللغة أيضا ظلمت المرأة، فماذا يعني أن يكون هو الرجل الوحيد مع سبع نسوة، ثم تقول اللغة عنهم، عددهم ثمانية، يعني أن كفة اللغة مالت إليه وحده رغم وجود سبع نسوة في الكفة الأخرى، هذا ظلم، هذا ظلم من اللغة، بل عددهن ثمانية.

شرع الجمع يتحدث عن موضوع الندوة التي سيشارك فيها حسام مع ثلاث نسوة، الندوة تم تقرير تاريخها مِن قبل، وتم الاتفاق على أن يكون موعدها يوم 19 نونبر، وكان النسوة قد حسمن في اختيار موضوع الندوة قبل مجيء حسام، فأخبرنَه بما اتفقن عليه.

ـ اتفقنا يا حسام على إثارة موضوع لن يتنبأ أحد بأن جمعيتنا ستتناول الحديث فيه، سنفاجئ جمهورنا هذه المرة يا حسام، أنا متأكدة من ذلك.

نظر حسام إلى النسوة ثم التفت إلى روفيدا يرقبها بعينين مقلصتين ينتظرها أن تفصح عما تود قوله، كأنه في تركيز شديد لتسديد رصاصة إلى جبينها، ولا يريد أن يُخطئ الهدف، قال مستفسرا:

ـ لن يُخِيفني أي موضوع كيفما كان، أنا مستعد للحديث عن أي موضوع تختاره الجمعية، لكن ما الفكرة التي تعرِضْنها للبحث والحوار؟

ـ نعرض عليك أن نتحدث عن حقوق الرجل، حقوق الرجل على المرأة، فكما تعلم أن الندوة ستكون يوم 19 نونبر، وقد عرفنا فيما بعد أن هذا التاريخ يصادف اليوم العالمي للرجل، لذلك سنحتفل به في هذا اليوم، ثم لابد من تنويع الموضوعات التي نتناولها في جمعيتنا.

لأول مرة يرتبك حسام عند سماعه اقتراح الجمعية لموضوع ما، لأول مرة يبتلع ريقه في ذعر، يحس بقلبه قد زادت نبضاته عن معدله الطبيعي، عرق جبينه بشكل واضح

حتى أنه أخرج منديله الورقي وقام بتمريره على جبينه، رشقها بنظرة ثاقبة.

ـ حقوق الرجل على المرأة؟! وهل يحتاج الرجل حقوقا أخرى تُقدمها له المرأة مع تسلطه عليها وجبروته؟ حسبها يا روفيدا ما تعانيه وما تتجرعه من هؤلاء الذكور المتوحشين في مجتمعنا.

ـ هكذا اتفقتُ مع عضوات الجمعية يا حسام، فهذا التاريخ له رمزيته بالنسبة للرجل، ولا يمكن أن نتحدث فيه عن غيره، ولا يمكننا كذلك أن نغير تاريخ الندوة بعد برمجتها، ثم هذه مناسبة لننوع من موضوعاتنا التي لا تخرج عن الحديث عن المرأة.

*****

(12)

لم تكن أسيل تهتم بأنشطة والدها من قبل كما تفعل الآن، ما جعلها تهتم أو تُظهر اهتماما بذلك هو حديث زملائها في الجامعة بشكل مبالغ فيه عنه، ذلك ما شجعها وأضفى على نفسها اعتزازا به وبذاتها، وهذا الاهتمام لخرجات حسام لا يختص بها محبوه فقط، بل حتى خصومه، حتى هم يتابعون أنشطته باهتمام وتحليل ونقد. فها هي الآن جامعة سيدي محمد بن عبد الله التي تَدرس فيها أسيل لا يكف طلابها الحديث عن الندوة التي سيشارك فيها حسام؛ سواء التنظيمات المعارضة أو الفصائل المتفقة مع توجه حسام، لكن هذه المرة صاحَب حديثهم عن محاضرة حسام استغرابهم من الموضوع الذي سيتناوله، سيتحدث عن حقوق الرجال على النساء!!

وينتشر الخبر في الآفاق، ويعتزم كل من سمع عنوان الندوة حضورها، ويصبح حديث الجرائد وألسنة الناس هو حسام وموضوعه الجديد، بل حتى جمعية "النساء قادمات" التي يُعرف عنها تحيزها الشديد للمرأة ودفاعها المستميت عنها ضد

الرجل، حتى هذه الجمعية نالت نصيبها من حديث الناس، فحسام وهذه الجمعية موضوعاتهم معروفة، المرأة وحريتها الجنسية، المرأة وحرية جسدها، المرأة وحرياتها الفردية، المرأة وجمالها، المرأة والمرأة والمرأة، لكن أن يدخل الرجل على خط المرأة ويمحو أثره ليتجاوزه داخل مربعها، فهذا ما لم يتصوره أحد يوما.

وتتباهى أسيل بنفسها، وتزهو أمام زملائها، فاسم والدها على كل لسان، وصورته معلقة على الجدران في كل مكان، وتتحرك بكل خفة هي وأويس لنشر الإعلانات الخاصة بالندوة، أويس الذي لا يُرى إلا معها أو مع أبيها، فابحث عنه مع أحدهما وستجده.

وتعود أسيل إلى مسكنها، وقبل صعودها إلى غرفتها تتذكر وحيد، تستأذن وتدخل عليه إلى غرفته، يستغرب وحيد من وجودها في غرفته، فأول مرة يجد قدماها تقتحم عتبة الباب لتتجاوزه، تسأله هل يحتاج شيئا فيجيبها بالنفي، ثم تقول بمكر وابتسامة تعلو وجهها، وقد أحنت ذقنها على عنقها وارتفع بؤبؤ عينها إلى أعلى:

ـ التقيت جوري، وأخبرتني أنك تلتقي بها أحيانا، علينا الآن أن نَحسب لك ألف حساب يا أخي وحيد بما أن لك معرفة بتلك الشابة المتألقة.

ابتسم وحيد ولم يجبها، ابتسم لأنه سمعها تُشركه في علاقة جديدة في حياته، علاقة الأخوة، آه لو كانت له أخت أو أخ. وأخته عائشة، أين اختفت؟ وبما أن عائشة غير موجودة فليتخذ من أسيل أختا له، أردفت أسيل تقول:

ـ لقد أوصتني بالاهتمام بك، قالت إنك تكبرني بخمسة أشهر فقط، وبما أنك في مثل عمري فقد طلبتْ أن أهتم بك، وألا أتركك وحدك في غرفتك ومع عملك طول الوقت، إذن علي يا سيدي أن أكون مرشدتك السياحية من الآن فصاعدا.

قالتها بشبه استهزاء وأطلقت ضحكتها العذبة، وربما البريئة، ابتسم وحيد لذلك ولم ينبس بشيء بعد، أضافت أسيل على كل ما قالته، وكأنها لا تنتظر منه أن يشاركها في الكلام.

ـ بالمناسبة، والدي سيلقي كلمة في إحدى الجمعيات، أريد أن تحضر معي لتعرف حساما آخر غير الذي ألفتَه هنا في البيت.

ما زالت تضحك، لكن الآن أجابها وحيد بدهشة وامتنان.

ـ حقا، سأكون سعيدا جدا بالاستماع إليه، ربما أحب الموضوعات الثقافية.

وتأتيك فرصة من حيث لا تدري، وتحس بنفسك أنك ارتقيت إلى درجة تكاد تصبح فيها إنسانا لا عبدا أو متشردا كما ألفَتْ نفسك، فابنة أسرة مرموقة تتحدث معك، وتريد أن تصحَبها دوما إلى محاضرات وندوات ولقاءات والدها، بأي صفة؟ لا تسأل، ألستَ أنت الذي تقول: لا تسأل القدر عندما يبتسم لك، لماذا ابتسمتَ لي، اترك القدر يبتسم لك وامضِ في طريقك معه ولا تخف، فلعله يحدثُ ما يجعل منك إنسانا بكل مواصفات الإنسانية المتحضرة، تُعبر، تتحدث في الثقافة، تتعلم أشياء جديدة، تحاور، تناقش، أليس الإنسان هو الفكر والعقل، ودونهما لا شيء.

وتمضي مع أسيل إلى مقر جمعية "النساء قادمات"، ويجتمع خلق كثير، خلق أغلبه من الجنس الذي يُحب حسام الحديث عنه، ثلثان منه، والثلث المتبقي مِن جنسك، وتقترب من الصف الأول فتجد جوري جالسة بمفردها، وتجلس معها وقد جلست أسيل مع أويس بعدما قام بمساعدة المنظمين للندوة في توضيب قاعة الندوات، وتجهيز آلات التصوير فيها.

ـ أهلا وحيد، سعيدة أنك هنا.

ـ بسبب شفاعتك لي يا جوري أنا هنا، أخبرتني أسيل بوصيتك لها.

وتضحكان ببراءة، وتبدأ الندوة، فوق المنصة أربع نسوة، أربعة رجال، ثلاث نساء ورجل، اختلط على وحيد أي منهم النساء وأي منهم الرجال، فحسام وسيم كالنساء، والنساء اللواتي معه قصصن شعورهن حتى بَدَوْنَ كالرجال.

تفتتح الندوة روفيدا، تتحدث عن بعض حقوق الرجل على المرأة في البيت، وتتحدث إحدى عضوات الجمعية عن حقوقه عليها في العمل، وأخرى تتحدث عن بعض حقوقه عليها في الحياة العامة.

وتحدثن كأنهن لم يتحدثن، وأصاخ الجمهور لكلامهن كأنه لم يُصخ، الكل مترقب لكلمة فارس عصره، وبديع زمانه، وقاهر الجيوش بلا منازع، ما الذي سيقوله؟ فيمَ سيتحدث؟ الناس حفظوا كلامه عن ظهر قلب، هو لا يتحدث إلا عما له علاقة بالمرأة، بل عما يعلي شأن المرأة ولو على حساب الرجل، فماذا سيقول عن الرجل؟ ويقترب بجذعه نحو مكبر الصوت، ويتنحنح، وتلمع قطرة عرق في جبينه، ويتأمل الجمهور، وقبل أن ينطلق في حديثه يلتفت إلى حارسه الشخصي الذي انتصب خلفه وقد عقد يديه على صدره، أو هو كما يحب حسام أن يراه

في مثل هذه اللقاءات رجل ذو مستوى رفيع في الدولة، أشار له بإشارة خفية ثم انطلق في موضوعه.

ـ الرجل في الحقيقة له حقوق، لكن حقوقه مقارنة بحقوق المرأة عليه لا تقارن....

ويمضي في كلامه، وقد نسي المحور المطلوب منه الحديث فيه، تركه جملة وتفصيلا، ونسي الجمهور الذي فتح فمه دهشةً، نسي القاعة التي يتواجد بها، ويعلو صوته، ويتطاير الرذاذ غضبا من فمه، ويخرج من القاعة، ويستل سيفه من غمده، ويبدأ في محاربة الأعداء، أعداء النساء، ويشرع في القتال، يصادف رجلا غطى ابنته بحجاب حتى كاد يخنقها صيفا فقتله، يبارز رجلا رفض لامرأته أن يكون لها صديق، فغلبه، ويجد أمامه جيشا ممن يزعمون أن لهم الشرف والكرامة لذلك يرفضون لنسائهم علاقات خارج إطار زواجٍ، زواجٌ لم يكن له وجود مِن قبل، زواج ضيقوه بشروط وأركان غبية، يرتفع عاليا فوق رؤوسهم وينزل بحُسامه على أمخاخهم المتخلفة، ما زال يقاتل، يمتطي صهوة فرسه ويحثه على اللحاق بالفارين من أشباه الرجال، يقطع عنق رجل علم أنه لا يريد للفتاة أن تكون حرة في جسدها، يلحق بآخر، يُسقط السيف على أم رأسه؛ لأنه سمعه ينتقد المهرجانات التي تغني فيها النساء عاريات في نظره، يرمي برمحه شابا غض بصره عن

المرأة، فيقع الرمح في عينه، خِفتَ أن تفقد بصرك بالنظر إلى نضارة النساء، وها أنت تفقد بصرك برمح حسام، وما رميت إذ رميت الرمح ففقأت عين الشاب ولكن الشيطان رمى.

ويثير غبارا فظيعا في ساحة المعركة، وحده بفرسه وسيفه ونباله ورماحه استطاع هزيمة جيش عرمرم، هم كثيرون، لكنهم غثاء كغثاء السيل. الغبار والدماء والأشلاء في كل مكان حوله، لم تنته المعركة بعد، ما زال يقاتل.

يزيل عنه سترته، يَبرزُ بلل من إبطيه، يمسح عرقه، يخفف من ضيق ربطة العنق عليه، ثم يستعد للمواجهة مرة أخرى، هذه المرة سيهاجم الأئمة والخطباء، يدخل عليهم في مساجدهم بسيفه، يخافون إذ يرون الشرر يخرج من حدقتيه. أنت الذي تقول إن الحجاب واجب على المرأة، خذ هذه إذن يا من تخال نفسك فقيه زمانه، وأنت تتبجح بأن العلاقة الحميمية بين المرأة والرجل خارج إطار ما تسمونه الزواج حرام، خذ هذه إذن يا عدو الحب، وأنتم إذن مَن تستنكرون عليها أن يكون لها صديق وحبيب سواء كانت فتاة أو امرأة، خذوا هذه إذن وادخلوا جحوركم يا فئران القرون الوسطى.

وينتصر على الجميع بسيفه البتار، وينزل من فرسه، ويعيد سيفه إلى غمده، ويعود إلى القاعة يمشي بين الصفوف

منتصرا، وقد عرق قميصه، وبح صوته، يقف كل الجمهور له تصفيقا وتأييدا، وأول من وقف أويس، كأنه يعلم آخر كلمة سيقولها، فوقف قبل أن تخرج تلك الكلمة الأخيرة من فمه، وتقف معه أسيل، ويقف الجمهور، ويستمر وحيد وجوري جالسَين في مقعديهما، جوري تصفق، ووحيد يُعدد عدد المرات التي ذكر فيها حسام كلمة امرأة أو مشتقاتها، لقد ذكرها 100 مرة، هنيئا لك، أكملت وردك لهذا اليوم.

*****

(13)

كثيرة هي الأشياء التي نحسب أننا امتلكنا ناصية حقائقها، وأننا أحطنا بها علما، فنلبث أعمارنا معتقدين أن الحقيقة هي ما نعرف، وأنها لا تخرج عن ذلك، حتى نتفاجأ في لحظة صفاء ذهني، أو في برهة خاطفة من الزمن، أو عند سماع كلمة صادقة من شخص ما، حتى نتفاجأ حينها بأن الحقيقة ليست ما كنا نعتقد، بل هي خفية تحتاج إلى مزيد تأمل وتدبر وبحث واستقصاء وسبر أغوارِ حقيقةٍ ظاهرة لعلها تشي بحقائقها الخفية الباطنة. فكم من أمر يبدو للناس ألاَّ جدال فيه، ولا يمكن أن يتناطح حوله عنزان، لكن بمجرد أن تقتحم القشرة الخارجية لتلك التي تبدو للناس حقيقة، وتلج إلى داخلها، حتى يظهر لك أن صحة ذلك الأمر مختلف تماما عما يراه الناس حقيقة؛ فالحقائق الحقيقية لا تظهر على حقيقتها إلا بعد جهد مضن وإحاطة فكرية للشيء من كل نواحيه.

في الأشهر اللاحقة حضر وحيد مع أسيل ندوات ومحاضرات والدها، حينها خَلُصَ إلى أن ما يتحدث عنه حسام

لا يتجاوز المرأة وحريتها التي لا يريد أن يكون لها سقف، فهي حرة في علاقاتها، حرة في جسدها، حرة في حريتها، هنا تأكد أن ما عاشه من تشرد وبؤس وشقاء، كان وراءه مُنظِّر ومفكر يشجع الناس على إخراج أجنة من بطون أمهاتهم والتخلص منها في أقرب حاوية للأزبال، إنه السيد حسام، البطل الذي تسبب في معاناة وحيد وشقاء آلاف المتشردين مثله.

كان وحيد يتساءل في استغراب، هل ما يدعو له حسام يقصده حقيقة أم يتظاهر به فقط؟ هل كل الناس يدعون لما يدعو له أم أن كلامه فيه شيء من المبالغة، يبالغ فيه لحاجة في نفسه؟

اغتنم وحيد فرصة دعوة جوري له لزيارة جمعيتها ليبوح لها بما في نفسه، انصرف إليها وقد أزمع حضها على الإفصاح عن رأيها في حسام وكلامه، خصوصا أنها لفتَتْ انتباهه عندما رأى في ندواته ومحاضراته عدم حماسها لكلامه، وحتى عدم وقوفها مع الواقفين للتصفيق على ما يتفوه به من كلام يُعجب النسوة الحاضرات، فبما أنها من اللواتي يدافع حسام عنهن، فلابد أن يُعجبها كلامه، فلمَ لا تُظهر احتفاءً به، وإعجابا بحديثه؟

وترتدي أجمل ثيابك، وتحاول تمشيط شعرك المتجعد وتسريحه إلى الخلف، وتمضي إلى الجمعية، وتُطلق العنان لعقلك ليسيح في عالم الأفكار، بالأمس كنت يتيما في جمعية، والآن ستزور جمعية كضيف له وزنه، بالأمس قاسيت الحرمان، عانيت البؤس والتشرد، جربت الوحدة والألم النفسي، واليوم، واليوم يا مقهور ها أنت في فيلا أسرة مرموقة، وها أنت مدعو إلى جمعية فتاة مشهورة، أي أحداث هذه، أي لعبة يلعبها معك الزمن؟ أم أن الأيام تضحك لك اليوم لتُبكيك غدا، لتَبكي عليك غدا، لتضحك عليك غدا؟ هل تثق في هذه الأيام التي كانت بالأمس القريب تُذيقك الويلات، والآن تَضحك في وجهك؟ آه كم تتغير علينا الأيام، وتنسينا قسوتها التي تجرعْناها منها البارحة، وإذا سألناها عن ذلك، قالت إنها تُعلِّمنا الصبر، وتمتحن قدرتنا على التأقلم مع مختلف الظروف، ثم إن الحياة خُلقت على هذه الشاكلة، فلا نعيم مقيم ولا عذاب مستمر.

وأنتَ كذلك تفكر في أيامك الماضية إذ أخرجك منها ما تراه أمامك، انزويت خلف حائط وتركتَ أويس يمر بالقرب منك متأبطا ذراع فتاة، ألم تقل أسيل إن أويس سيكون زوجها المستقبلي؟ وهذا ما يرجوه حسام أيضا، فماذا يعني أن يتأبط ذراع فتاة أخرى؟ بل الآن يضع يده على كتفها، بل الآن يدير

يده وراء ظهرها، ويمسكها من خصرها، ما بال هؤلاء القوم يتبجحون بالحديث عن حقوق المرأة، ويخونونها عند أول فرصة؟ ماذا تعني حقوق المرأة عندهم؟ هل تعني أن يخرجوا معها في الشوارع وتكون لعوبا بين أياديهم، حينها فقط يتأوهون بارتياح أنها أخذت حقوقها، هل هذه هي حقوقها؟

وتصل إلى جمعية جوري، وتستقبلك بسعادة وكأنك شخصية ذات مكانة ومنزلة عالية، وتأتيك ومضة عن ذكرياتك في الميتم في جزء من الثانية ثم تختفي، وتدخل خلفها وهي أمامك تسبقك إلى مكتبها، تطلب منك الجلوس ثم تجلس بعدك، هل أنت وحيد حقا؟ لقد ارتقيت مرتقى عاليا يا متشرد، وتتحدثان، وتُحدثك عن جمعيتها، ثم تغتنم لحظة صمت لتسألها عن كلام حسام، فكل كلامه في كل الندوات واللقاءات التي حضرتَها له جعلتك تدمن التفكير في مدى صحة ما يتفوه به، وباعتبار جوري امرأة، سألتها.

ـ هل كلامه المبالغ فيه ـ في رأيي ـ عن المرأة يستحق كل ذلك الاندفاع، كل ذلك التفال، أم أن وراء ذلك شيئا لا أعرفه؟

وتنظر إليك باسمة، وتزيد في ابتسامتها، لا تدري هل تبتسم لبراءة تفكيرك أم لسذاجة أفكارك؟ وتستمر بابتسامتها محملقة في وجهك، وكأنها ستبقى الدهر كله على تلك الحال، ثم في

لحظة لم تتوقعها تبددت بسمتها وانكسرت على وجهها شظايا ثم أزالت نظرها عنك لتنظر في الأفق، وتتمتم دون أن تلتفت إليك.

ـ ما رأيك أنت؟

بماذا ستجيبها؟ وماذا تعرف حتى تجيبها به؟ أجبتَها، لكن جوابك كان بعيدا، ذَكَّرْتَهَا بما تعلمُ عنك وأنك عشت وحيدا، يتيما ومتشردا، وقبل ذلك وبعده فقدتَ ذاكرتك، وبالتالي لا تعرف حقيقة الأمور كما هي؛ لأنك لم تخالط الناس حق المخالطة، ولم تعش معهم كما تستوجب الحياة، فقد تكون مخطئا في تفكيرك، لذلك لجأتَ إليها لتعلم رأيها فيه، فهي وحدها من تثق فيها وتتجرأ أن تُسمعها خواطرك كما تُسمعها لنفسك.

تنظر إليك بإشفاق، تحس بقلبها يتألم لأجلك، كأنك تشعر باضطرابه عطفا وحنانا عليك، تديم النظر في ملامحك فترى من خلال عينيها استعدادها للحديث بجدية، وذلك ما حصل، امتلأ صوتها بنبرة الجدية والحزن في آن واحد، ثم حملقتْ فيك في تركيز شديد، قالت ما لن تستطيع فتاة قوله، صارحتك بالحقيقة، أي حقيقة؟ أخبرتك عن قصتها، شرعتْ تحكي لك قصتها حينما كانت تستأجر منزلا بجوار منزلك في الدار

البيضاء، لا شك أنك تتذكر منزلك حينها، كان منزلا بسيطا، وكذلك كان منزلها.

كانت مجرد طالبة في الجامعة، تحلم مثل غيرها أن يكون لها مستقبل زاهر، وظيفة وعمل قار تساعد به والديها الذين يقبعان تحت عتبة الفقر، لم تكن في بداية دراستها في الجامعة بهذا اللباس الذي تراه عليها الآن، أو بهذا الشعر الذي تصبغه وتقوم بقصه، كانت هي أيضا ترتدي ما يسترها، ولا تتفنن في إظهار ما يفتن إخوانها الشباب، كانت تهتم بدراستها وتحافظ على صلواتها، وتلبس حجابها، وكانت لها صديقة تراها يوما بعد آخر ترتقي درجات الرقي والتألق، كانت تعلم أن الدرجات التي تصعد عليها صديقتها ليست هي عِلمها وعَملها وثقافتها واجتهادها، بل تلك الدرجات هي جمالها، هي تفننها في إظهار ما يُغري الرجال، هي خضوعها بالقول وانجذابها لكل ما يحبه الرجل، هي تمايلها في المشي، كل ذلك كانت عبارة عن درجات صعدت صديقتها عليها نحو تألق موهوم، وكانت جوري تحضر مع صديقتها ندوات ولقاءات تخص المرأة وحقوقها، فلاحظت مفارقة عجيبة أربكتها، لاحظت أن هذه المرأة التي يتشدقون بالحديث عنها، هي امرأة بمواصفات معينة، هي ليست كل امرأة، هي امرأة بمقاييس معروفة عندهم، ليست المرأة القروية من يقصدون بحديثهم، وجوري

فتاة قروية، ليست امرأة تختفي في حجابها من يُعِرنَها اهتماما، وجوري فتاة محجبة، ليست الفتاة التي هدفها المحافظة على كرامتها وشرفها من يخاطبون، وجوري ذلك هدفها، حينها علمتْ أنها لن تبرح مكانها إذا لم تكن مثل ما يريدون، قررت أن تتغير، أن تُغير من شكلها ومن أفكارها، وفعلت ذلك.

ومن حينها، وهي لا تدري هل يستغلها هؤلاء الرجال السذج الذين يتشدقون بالحديث عن المرأة، أم هي من تستغلهم؟ نعم بعدها ارتقت في المناصب رغم صغرها، تركت صويحباتها اللواتي كن بالأمس بشكلها وأفكارها نفسهما خلفها في الأسفل، لكن كذلك انحدرت في دركات الشقاء، جعلت نفسها كما يحب هؤلاء الذين يتحدثون عنها دون انقطاع، وجعلوا منها ما تريد، فلو لم تفعل ذلك ما وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، هي الآن في أوج شبابها وجمالها، وهم الآن في أشد الحاجة إليها، هي أميرتهم، بحركة أصبعها تحقق ما تريد، تُدني من عرشها من تشاء وتقصي من تشاء، هي سيدتهم، هم كلاب راكعون على ركبهم يُقبلون كفها، هم كلاب يتمسحون بالقرب منها ويتبركون بعطرها، هم ذئاب تتمرغ فِراؤهم على الأرض إرضاء لها، وتتراقص أذيالهم سعادة بجانبها، يُغَنِّي أحدهم طربا إذا حدثته، ويطير قلب الآخر إذا تصدقتْ عليه بنظرة

امتنان، ويكاد يسجد لها من تنادي عليه باسمه المجرد، بل يستعد الآخر للفداء بكل ما يملكه تلبية لطلبها.

هي أميرتهم، لكنها ليست كروفيدا، روفيدا أميرة أقل منها مكانة، روفيدا أخذوا منها كل شيء، روفيدا أعطت كل ما عندها، لم تبال بشيء وهي في القمة، لكن كلما أعطت سقطت درجة، وكأن عطاءها أصبح منعا، وتقربها أضحى بعدا، وتذللها أمسى عزة، أما جوري فإنها لا تعطي إلا بالقدر الذي يجعل الكلب يقترب ويرقص بذيله خدمة لها، بل لا تعطي لتجعل كل ممنوع مرغوب، فكلهم قريبون منها لكنهم بعيدون عنها ولا يصلون إلى شيء منها، فهي تعلم أن اليوم الذي سيصلون فيه إلى شيء منها سيكون هو اليوم الذي سيرمون فيه بها من أعلى قمة الهرم إلى قاع الجب، انزلي يا سافلة، يا دنيئة، يا ابنة الفقراء، أنت لست مثلهم، أنت لست الفتاة التي ندافع عنها. لكن على كل حال هي تعلم أن اليوم الذي سيدفعونها من القمة إلى منحدر سحيق، تعلم أن ذلك اليوم آت لا مفر منه. وتسألُها أنت في بلادة:

ـ وكيف يأتي ذلك اليوم الذي يتخلون فيه عنك، وأنت تقدمين لهم كل شيء، وحققوا بك مبتغاهم، ووصلوا إلى عروشهم التي هي تحت عرشك ركوبا على ظهرك؟

تأوهت جوري في أسى وقد أزاحت نظراتها عنك لتنظر بها إلى زاوية في قاعة الجمعية:

ـ أووه يا وحيد، أووه منك يا وحيد، وهل تظن أن هذا الجمال سيستمر، وأن هذه النضارة ستبقى مشرقة، وهذه الرشاقة في الجسد ستدوم؟ يا وحيد، ما يهمهم جمال المرأة ورشاقة جسدها، أنا الآن على أعتاب الثلاثين، أحاول أن أجعل هذا الجمال حيا لأطول وقت ممكن بما تراه من ألوان مقززة خسيسة، ستمر بي السنون وسيذبل جمالي، وتفقد نبرة صوتي عذوبتها، وسيأخذ جسدي في التقوس والهوان، وستظهر التجاعيد على وجهي رغم محاولة إخفائي لها، حينها ستراني يا وحيد أهوي من الأعلى إلى أسفل الأسفلين، سأكون أقل شأنا من أولئك المتشردين الذين حدثتني عنهم، سأكون حقيرة في لباسي، لعبت بي السنون وكنتُ أظن أنني ألعب بها، ولعب بي الأوباش وكنت أظن أني أستغلهم، سأفيق من حلمي الجميل لأجد نفسي قد تخطيت الأربعين، ثم أنفض عني المتملقين ولم أحقق شيئا في حياتي سوى المال الذي سيذهب عند أول تجعيدة ستظهر على جبهتي، لم أنشئ أسرة، ولم أشرك في حياتي زوجا يحفظ شرفي وطهري، ولم أُخرِج من بطني أولادا أتنعم برؤيتهم وأحس بالحبور حينما يلعبون ويلهون أمام ناظري، والأدهى والأمَر أني سأجد نفسي لم أقترب من إلاه رحيم

خلقني، ولم أعمل بشيء مما طلبه مني، ولم أتدين بالدين الذي اختاره لي حق التدين، لن أحقق شيئا يا وحيد، لن أحقق شيئا.

ومضت جوري في بكائها، مسحت الدموعُ عنها الماكياج الذي رسمته على وجهها، فنزل منه خطان يجريان بالألوان المختلفة، وضعت كفيها على وجهها، شهقت شهقات متتالية، تنتحب وتبكي بكاء آلمك يا وحيد، بكاء قطع قلبك وجعلك تشفق عليها، وتقترح عليها أن تترك ما هي عليه، فلم يفت الوقت بعد، تطلب منها متوسلا أن تعود إلى دراستها لتحقيق أحلامها الحقيقية، رشقتك بنظرة وما زالت تبكي، قالت بسخرية واستهزاء من نفسها ومن أوضاعها.

ـ أتظن الأمور بهذه السهولة يا وحيد، ليس الدخول كالخروج يا رجل، حياتي كلها بين أيديهم، جئت إلى فاس بعد موت والدَيّ كلاهما في حادثة سير وتعرفت على حسام وصحبه فتعززت مكانتي بينهم، وعلموا أن لا أحد لي غيرهم، وأني أحوج ما أكون إليهم، نعم رفعوني فوق رؤوسهم لأني جعلت ذاتي كما يحبون، لكن ما أن أطلب أن أتحرر منهم حتى يسقطوني أرضا، ولك أن تأخذ العبرة من صحفيات أردْن التحرر فتحايلوا عليهن حتى أدخلنهن السجن، ويا ليتهم يفعلون بي ذلك فقط، يا ليتهم يُسقطونني أرضا فقط، بل سيرفسونني بأرجلهم، سيُشهرون بي، سيدفعونني إلى الانتحار دفعا، نحن

نتعامل مع قوم بلا قلوب يا وحيد، بلا ضمائر، لا يغُرنَّك مدحهم لنا، وحديثهم عنا بعد الشروق، وحديثهم معنا بعد الغروب، لا يغرنك دفاعهم عن حقوقنا في زعمهم، هم بذلك يصطادون الساذجات من أمثالي، فإن حصلوا عليها أصبحت مِلكا لهم، ولم تعد ملكا لنفسها، فأنت عندما تسمعهم يقولون: جسد المرأة ملك لها؛ فإنما يقصدون ملكا لهم، وعندما يقولون من حق المرأة أن تُظهر جمالها ولا تخفيه في نقاب أو حجاب فإنما يقصدون أن تُظهره لهم ويتمتعون به هم، وعندما تسمعهم يستنكرون زواج القاصرات في نظرهم ويحثونها على تأخير الزواج؛ فإنما يفعلون ذلك ليتمتعوا بجمالها وجسدها أطول سنوات ممكنة، وبعدها يرمونها كوردة ذابلة. أتظن يا وحيد أني أحتفي بما يقوله حسام وغيره، أم أصدقه؟ بل أعلم علم اليقين أنهم في اصطياد دائم للفرائس والفراشات، وبما أني في غابتهم وتحت قبضتهم فإني أعلم حقيقة أمرهم وحقيقة كلامهم، فأصفق لكلامهم من باب التملق لهم حتى لا يخلعوا عني عرشي ويطيحون بي، أما في نفسي فأعلم أنهم منافقون ومخادعون، ويا ليتني أجد فرصة لأعود إلى رشدي، وأتخلص من الأدران التي أولغوني بها، ومن القذارة والنجاسة التي جعلوني أسبح فيها.

وتمضي هائما على وجهك، حزينا مشفقا على فتاة تركتها تبكي على سطح مكتبها، تشفق إشفاقا أعظم من إشفاقك على نفسك في أيام محنتك، ما أقسى هذا العالم، وما أقسى قلوب رجاله عن الرحمة، قلوب ذئاب يستغلون الساذجات والمحتاجات من أمثال جوري ليسقطوهن في الغاوية، لا تدري لم شبهت شقاء جوري بشقاء أخت عصام رحمها الله، أو أن معاناة أخت عصام تكملة لسلسلة المعاناة التي خاضتها جوري؛ فأمثال جوري استغلها ذئاب لتحقيق مآربهم، فعانت وأنجبت لهم مثل أخت عصام، فها هما كلتاهما عاشتا البؤس والحقارة، فلولا شقاء الأم ما كان شقاء البنت، لولا خضوع الأولى للابتزاز وتحقيق أرباح بجسدها لما عانت الثانية، ولو عاشت الثانية لأنجبت ربما بنتا تكمل الشقاء الوراثي أبد الدهر، فالموت خير لها.

لعلك الآن قد علمت يا وحيد الأمور على حقيقتها، وعلمت القصة من بدايتها إلى نهايتها، فبداية من استغلال لسذاجة المرأة بداعي الدفاع عن حقوقها وحريتها، لتستمر القصة تتحدث عن معاناتهن ومعاناة من يأتي من أولادهن في المياتم والجمعيات الخيرية، إلى أن تنتهي قصة البؤس بموت المتشردين تحت جسور الطرق، أو على أرصفة الشوارع، أو بموت بعضهن وهن يُخرجن لهذا العالم بائسا آخر وحقيرا آخر

ترفسه الأرجل عما قريب إن كان ذكرا، وتلعب بها الذئاب إلى أن يذبل جمالها إن كانت أنثى.

وها هو الشر يعود لقلبك مرة أخرى يا وحيد، ها هي قسوة القلب تريد مرافقتك، بالأمس أحسست بمقت فظيع لمجتمع يساهم في معاناة الأبرياء، واليوم تحس بالمقت عينه، لكن ربما انحسر ليشمل فقط حسام وأصحابه.

*****

(14)

يوجد ألف داع يمكنه أن يجعل العالم ينفجر ويتحول إلى شظايا، أسباب كثيرة تكفي أن تُرغم الكون على الانشقاق والانفطار والتصدع، أسباب كافية لتجعله يُخرج ما في أحشائه من نار ولهيب، أو يرمي بما في سمائه من حجارة من سجيل لتجعل الناس كعصف مأكول، أو يُرسل عليهم رجزا من السماء بما كان الناس يظلمون، فلو أن للكون شيئا من ماء وجهٍ لتوقف قلبه ومات؛ فرغم نفاق البشر وتناقضاتهم ما تزال الشمس تواظب على شروقها وغروبها غير آبهة بشرورهم، رغم ما في قلوبهم من خداع تتابع الكواكب سباحتها في فلكها بمرح طفولي غير مبالية بهم، وتبقى الأيام في ديمومة تجري دون إعياء، وتُثابر عقارب الساعة تدور لاهثة دون توقف، وتُتابع الأرض دورانها دون أن تُعكِّر على البشر صفوهم بزلازلها وبراكينها المرعبة، دون أن تَقذفهم بشظايا من نار، كأنهم يستحقون أن تمضي الحياة معهم هانئة هادئة، كأنهم

أبرياء براءة الذئب من دم يوسف، وهم أشرار أشر من قابيل الذي سفك دم هابيل.

أصبح وحيد حانقا على البشر، ليس على كل البشر، على بعضهم، على صنف يستغل الضعفاء ليحقق بهم ما يرنو إليه، هدفهم الوصول إلى رغباتهم وإن كان ذلك على حساب غيره.

كان وحيد غافلا في البستان يقلِّم الأشجار، يزيل عنها الأغصان اليابسة، يكنس الأوراق المتساقطة، يقطف الثمار، يسقي الحقول الصغيرة، كل هذا وعقله ليس معه، يداه تعملان بآلة القطع، وعقله يقطع المسافات والأزمنة يفكر هنا وهناك، انتبهت أسيل التي كانت جالسة تقرأ في كتاب بالقرب منه، انتبهت لغياب عقله وشرود ملامحه، وضعت كتابها واقتربت منه، لم يشعر بوجودها، تأكدتْ أنه يسبح في عالم الظلام وحده، حدقت فيه باهتمام شديد، ثم سألته ما بال عقله شرد بعيدا، أفاق من إجفاله، تنبه لأسيل القريبة منه تنظر إليه نظرة حنو ورفق، تمتم مرتبكا، "لا شيء، لا شيء".

أصاخت أسيل لجوابه كأنه يعزف سيمفونية موسيقية بكلماته، ولثوان ساد الصمت فقررت العودة لمقعدها لإكمال قراءة كتابها، بينما أكمل وحيد عمله الذي لم يتركه عندما أجاب أسيل.

في لحظة توقف وحيد عن تقليم أغصان الأشجار، غفل عن أفكاره التي كان يفكر فيها وتذكر شيئا آخر أراد البوح به لأسيل، تردد في ذلك، تتنازعه فكرتان، هل يبوح بما خطر له في باله، أم يصمت فلا شأن له به؟ أخيرا عزم على الإفصاح بما يخالجه من أفكار، ترك ما في يده واقترب من أسيل التي انتبهت لقدومه نحوها، أغلقت كتابها تحدج فيه بنظرات تشجعه بها على الإفصاح عما يود قوله، تنحنح ثم أبدى لها أنه يود الحديث معها في أمر يزعم أنه يخصها، فهل يتسع صدرها لكلماته؟

تململت أسيل لثانية في مكانها، تغضنت ملامح وجهها واكتستها الدهشة، زادت دقات قلبها بعض الشيء عن معدله الطبيعي وقد حركت رأسها حركات متتالية خرقاء تحدق فيه باهتمام شديد تحثه على الكلام، لكنه لم يقل شيئا بعد، ما زال حذرا، تمتم يقول في عدم ثقة نفس إنها إن اقتنعت بكلامه الذي سيقوله فلتنظر في أمرها، وإن لم يعجبها فلتعتبر أنه لم يقل شيئا، وأن أذنيها لم تسمع ولو كلمة مما قاله.

لكن ما زالت نظراتها المستفسرة معلقة على شفتي وحيد تنتظره أن يفصح عما يود قوله، فأفصح أخيرا وهو يقول:

ـ في الحقيقة يا أسيل... أنا غير مرتاح لأويس... لا، ليس بيني وبينه شيء، لكن تصرفاته لا تطمئنني... لا تنظري لي بهذه النظرات، أحس أنه يريد استغلالك واستغلال والدك للوصول... إلى هدف ربما قد رسمه... أقول الصدق، هكذا أحس يا أسيل، أخبرتك لأني... أريد لك الخير... حسنا لا تأكليني بنظراتك أنا لا أدري هل شعوري هذا صائب أم خاطئ؟

ـ أكيد خاطئ يا وحيد، أنت لا تعرفه كي تتحدث عنه بهذه الطريقة.

صاحت بذلك بطريقة دفاعية وبعصبية ظاهرة، ارتفع صوتها بعتاب، أجاب وحيد مدافعا عن نفسه ومشهرا آخر سلاح في جعبته، فقد نسي أن مثل هذه المعارك لا يدخلها الناس دون أسلحة، دخل معها المعركة والسلاح في غمده، ظنا منه أنها سترحمه وهو في معزل عن سلاحه، لكنه اضطر الآن لاستخدام سلاحه المتواضع.

ـ لقد رأيتُ منه ما جعلني أتفوه بهذا الكلام، رأيته يتأبط ذراع فتاة، ويضع يده على خصرها، وأعلم أنه وعدك بالزواج، فكيف يستقيم أن يعدك بذلك ويخونك مع أخرى أو أخريات؟

سلاح وحيد كغصن شجرة مثل الذي كان يقلِّم فيه قبل قليل ظنه سيفا، وظن أنه في زمن استعمال السيوف في مواجهة الخصوم، لم تترك أسيل فرصة له ليستوعب أنه يحارب دون سلاح لترمي عليه قنبلة خنقته وكادت ترديه مقتولا.

ـ ومن قال لك إن مجرد تأبط ذراع فتاة يُعتبر ذلك خيانة، لمَ لمْ تتساءل مع نفسك أن تلك الفتاة التي رأيتها معه قد تكون صديقته؟ ما الضير إن عاملها برفق؟ أم أنكم تريدون للإنسان أن يكون متبلد المشاعر، لا يشعر ولا يُحس ولا يعبر عن شعوره وأحاسيسه؟

كانت قنبلة ذرية خانقة، خنقت حنجرة وحيد عن الكلام، توقفت الحروف في حلقه، توقف في مكانه مبهوتا، توقف عقله عن العمل لبرهة من الزمن، "صديقته"، "التعبير عن مشاعره"، هل يرضى هؤلاء الأقوام أن يَقْتسم من يُحبهم مشاعره على جيش من الفتيات، ولا ضير لهم في ذلك؟ كان الدخان ما زال منتشرا في ساحة المعركة، وكانت الغلبة لأسيل، فقد انهزم وحيد شر هزيمة، لكن لا يجب أن يقف جبانا هكذا، فإما أن يستسلم، أو أن يستسلم، لا خيار آخر له.

لكن جاءه السند والدعم من شخص لم يتوقعه، خادم من خدم حسام ينادي عليه ليساعده في شيء ما، بالكاد سمع صوته

وسط ضجيج المعركة، ترك وحيد أرض المعركة واتجه نحو الخادم الذي طلب منه أن يحمل معه خزانة خشبية إلى غرفة عفاف، فهي من طلبت منه ذلك، وهي الآن خارج غرفتها تنتظرهما أن يضعاها في موضعها.

حمل وحيد الخزانة مع الخادم وصعدا بها درجات السلم وعقله في واد آخر، في عالم الندم، ليته ما تحدث، ليته اهتم بشؤونه وترك عنه خصوصيات الناس، لكنه يحب لها الخير وأراد أن ينبهها لأمر ربما هي غافلة عنه، لكنها ليست بغافلة عنه، إنما راضية به.

ما زال وحيد في شروده، لم يفطن بعد إلى أنه دخل غرفة عفاف ووضعا الخزانة في موضعها، ولم يفق من شروده إلا على صوت الخادم يطلب منه أن يُخرج من دولاب كان في الغرفة، أن يُخرج منه مفك البراغي لتثبيت لوحة خشبية، اهتز برغي غير ثابت فيها، فجعل تلك اللوحة تهتز.

تقدم وحيد نحو الدولاب، مد يده ليسحب درجه وليستخرج منه مفك البراغي، وما أن فتحه واصطدمت عيناه بما في داخله حتى أحس ببرغي قد وكز قلبه، أحس بدوار في رأسه مما رآه، بل حقا دارت الدنيا حوله بشكل جنوني، يحس بها تدور حول نفسها وحول الشمس وحول كل الكواكب، تدور

كمجنونة شمطاء في المجرة، كاد أن يَسْقط أرضا؛ وجدها تنظر إليه وقد اختفت التجاعيد من وجهها، ألفاها تبتسم له في رضى، رآه حقا، لم يكن يتخيل أو يتوهم ما يراه، يُحملق الآن في دهشة مرعوبة في صورة أمه رحمة، الحاجة رحمة! صورتها في إطار متوسط في درج الدولاب، هي، يعرفها، متأكد من أنها صورتها، لن تكون امرأة غيرها وتشبهها، بل هي، الحاجة رحمة، من الذي أتى بصورتها إلى غرفة نوم حسام وعفاف؟! من وضعها في هذا الدولاب؟ ما هذه الصدمة المفاجئة التي لم يتوقعها، ولن يتوقعها أحد حتى لو جرب كل احتمالات الدنيا في الصدف؟!

ـ ألم تجد مفك البراغي بعد يا وحيد؟

كيف تريد منه أن يجده وقد وجد كنزا أعظم مما يبحث عنه، حتى لو تواجد مفك البراغي في الدرج فلن يراه الآن؛ فالشمس التي يراها قد حجبت عنه رؤية شيء آخر غيرها، شمس أمه رحمة.

وتعصف بك الذكريات، وتتذكر أمك رحمة، وتحبس دمعة تكاد تقفز من مقلتيك، تحبسها عسى أن تبقى في مكانها حتى تخرج من الغرفة، وتخرج منها تائها، وتدخل غرفتك، وتبكي بحرقة، وتبكي، لماذا تبكي؟ لا تدري، دموع من عينيك على

خديك ساخنة، آه من سبعة أعوام خُضر عشتها مع أمك رحمة، أعوام تتذكر أغلب تفاصيلها معها، تعلمك الصلاة، تعطيك النقود، تحضنك إلى صدرها، تمتعك بالحنان والعطف، تساعدك في تمارينك المدرسية، تضحك معك، تلعب معك، فضلتك على فتيان وأطفال الميتم رغم قبح منظرك حينها، اشتقت إليها، اشتقت لتراها، جاوز عمرك الثالثة والعشرين ولا زلتَ بالنسبة لأمك رحمة طفل ترعاه وتحن عليه، هذا ما تخبرك به في كل اتصال تتصل فيه بك، أو تتصل أنت بها، وعلى ذكرك للاتصال، هل تتصل بها وتخبرها أنك وجدتَ صورتها في غرفة نوم صاحبا الفيلا؟ هل تستوضح منها الأمر، أم تتحرى الأمر بنفسك لتعلم قصة صورة أمك رحمة في غرفة عفاف وحسام؟

لكن أهي أمُّ عفاف أمْ حسام؟ بل يقينا هي أمُّ حسام، فعفاف تعرف أمها، كم من مرة زارتها في هذه الفيلا، تأتي إليها ولا تمكث معها إلا ساعة من الزمان أو تزيد ثم تنصرف دون أن تبيت ليلتها معها، كأنها تخشى أن تلسعها الثعابين في هذه الفيلا المهجورة من الأمان، أما حسام فرغم سنواتك معه في هذه الفيلا إلا أنك لا تعرف أباه وأمه، كأنه غصن مُتخلى عنه مِن شجرة، لا تعرف له أصلا ولا أهلا إلا امرأته وابنته، فهل يمكن أن تكون الحاجة رحمة أم حسام؟ وقد أخبرتْك من قبل أن

من وضعها في مركز رعاية المسنين هو رجل وليست امرأة، فإذا كانت الحاجة رحمة أم حسام فكيف يدعي دفاعه عن النساء وواحدة منهن رمى بها في دار للعجزة؟

أصبح وحيد متأكدا أن كلام حسام محض افتراء وكلاما فارغا لا حقيقة له، تأكدتْ له شكوكه حول فقاعات حسام الذي يتفوه بها في ندواته ومحاضراته، هو مجرد نفاق لا ينطلي إلا على السذج من أمثال أويس الذي يتبع آثاره خطوة بخطوة. تأكد له كلام جوري كذلك التي أوضحت له أن أمثال حسام من المدافعين عن المرأة، إنما يستغلون ذلك للوصول إليها، إلى جسدها، لا أن يوصلوا لها حقوقها، إنهم عصابة شرسة، عصابة لابد أن يؤخذ على أياديهم بيد من حديد.

وتحنق على حسام أكثر، وتبغضه، وتتذكر اليوم الذي خرجتَ فيه من الميتم وتركت أمك رحمة تسبح في دموعها وأنت حانق على ابنها الذي تخلى عنها، تتذكر في ذلك اليوم أنك كنت حانقا على شخص لا تعرفه، أما اليوم فإنك تعرف هذا الشخص، تعرفه حق المعرفة، ابن أمك رحمة، وأخوك من حيث إنها أمكما معا، أمه البيولوجية التي ولدته، وأمك التي تكفلت بك واعتنت بك وربتك، هو تخلى عنها، وأنت...

وأنت تخليت عنها أيضا بحثا عمن تخلى عنك، لكنك عندما كنت في الدار البيضاء طلبت منها أن تقيم معك في البيت الذي استأجرتَه فرفضتْ، فلابد أن ترد لها بعض جميلها، وأول جميل ترده لها هو أن تتعامل مع حسام بما يستحقه إن تأكد لك أنه ابنها.

*****

(15)

ومضت بعض الأيام، ويجتمع خلق كثير لحضور محاضرة يلقيها المفكر العظيم حسام، يجتمعون هذه المرة في جامعة سيدي محمد بن عبد الله حيث تَدرس أسيل، نظم اللقاء فصيل من فصائل الجامعة، قاعة كبيرة ممتلئة بالطلبة إلى آخرها، حضر الندوة وحيد أيضا، جاء مع أسيل، وقد نسيتْ الكلام الذي أدى إلى إغضابها، فلم يجر على لسانها ذكر تلك الواقعة، فعلم وحيد حينها أنها طيبة القلب. جلس في الصف الأول مع جوري، وجلست أسيل في جهة أخرى مع أويس وروفيدا.

اعتلى حسام المنصة بنظرته الثاقبة وابتسامته الماكرة مكرا لا يد له فيه، ولباسه الرسمي، وخلفه ذلك الرجل الذي هو من كبار موظفي الدولة. عنوان موضوع المحاضرة التي سيشرع بعد قليل في النبش في تفاصيلها هو "الحريات الفردية حق المرأة أيضا"، إذن ما زال يدافع عن حقوق النساء، وبعض النساء من أهله لا حقوق لهن.

حملق حسام في جيش الحضور الذي أمام ناظريه، كما العادة ثلثاه من الفتيات، ينظر إليهم بثقة، ينظر إليهن بثقة، يطوف بعينيه في كل زاوية من زوايا القاعة لعله يرى فيها كرسيا فارغا فيغْضب، يغضب إن تركوا كرسيا فارغا والمحاضرة يلقيها الدكتور الفذ حسام، لكن لحسن حظه لم يجد كرسيا شاغرا، بل ما زالت الوفود تقتحم القاعة منتصبين بمحاذاة بابها، متكدسة أجسادهم تحتك بعضها ببعض، ابتسم لما رآه ثم شرع في الحديث ابتداء عن نفسه.

إنه حسام، إنه المفكر العظيم الذي انتخبته الطبيعة ليرد للمرأة حقوقها، إنه رجل المرحلة، رجل لا يشق له غبار، أنا سيد الحداثة، أنا ملهبها، أنا مصدرها، أنا البطل، أنا النور وغيري الظلام، أنا الحق وغيري الباطل، أنا الإنسان وغيري الحيوان، أن الكل والكل أنا، أنا وحدي لا شريك لي، أنا والدنيا دوني لا شيء، أنا والمرأة إن فقدتْ مساندتي لها ما هي إلا أَمَة تباع وتشترى، أنا حارسها، أنا مدافع شرس عنها، أنا أبوها الروحي، لولاي ما خُلقتْ المرأة، لولاي لانقرضتْ منذ أمد بعيد، أنا وحدي أستطيع هزيمة جيش من مستعبدي النساء.

ويلبس لأمَته، ويضع رجله على الركاب، ويركب صهوة جواده، ويحثه على اقتحام صفوفهم، صفوف من؟ صفوف المتخلفين المتبعثرة، أعداء المرأة، يقتحم ساحة المعركة

بمفرده، أمامه جيش عرمرم لا يُرى آخره، لا يرعبونه، يستطيع هزيمتهم بمفرده، يظنونه سيُخرج سيفه من غمده، لكنه تجاوز المتخلفين الذين يعيشون في الجاهلية في زمن السيوف بسنة ضوئية، هو الآن يتعامل بالأسلحة المتطورة التي اخترعها أسياد المتخلفين، يُخرج مسدسين من جانبيه مثل ما يشاهد ذلك في أفلام (الكاوبوي)، يشهرهما في وجوه الطغاة، يرشقهم بنظرة استهزاء، أنتم مجرد حفنة متخلفة بسيوف القرون الوسطى المهترئة تريدون استعباد المرأة، تريدونها متخلفة جاهلة مثلكم، تُغطونها بقماش تزعمون أنكم تحفظونها به، وإذ بكم في الحقيقة تَخنقونها، وتَئِدُون أهدافها التي ترجو أن تُحققها، لكنكم يا وحوش الغابة وقفتم بينها وبين أحلامها بثيابكم البالية التي وضعتموها على رأسها، ونسيتم أو تناسيتم أن جسدها ملك لها، وهي حرة في التصرف فيه، جسدها تفعل به ما تشاء. اقتدوا إن أعوزتكم القدوات بروفيدا وجوري اللتان تحررتا من ثياب بالية وأفكار جاهلية وها هما الآن في القمة، ها هما الآن سيدتا المجتمع.

ويُطلق حسام عليهم طلقات أردتهم قتلى، وينتفض في وجه جيش آخر، يتبعهم بخيله، يقفز به فوق رؤوسهم ليجدوه أمامهم مباشرة، أنتم من تقولون إن المرأة يلزمها أن تلتصق بالحائط حتى لا تُغلق الطريق عليكم، حديثكم دائما عن حرمة الخلوة

والاختلاط وكأنكم تخافون أن تأكل المرأةُ الرجلَ إن اختلت به، أو كأنكم تخافون من إيمانكم الهش أن يضيع إن اختلى أحدكم بامرأة وحدهما، ليس الشيطان ثالثكم، بل أنتم هم الشياطين الحقيقيون الذين لا يستطيعون امتلاك أنفسهم أمام امرأة جميلة، أنتم لا تستحقون الحياة ما دمتم لا تُقدِّرون المرأة، ولا تَقْدِرون على إمساك أنفسكم أمام جاذبيتها، ويطلق رصاصاته الطائشة عليهم، يتشتت الجيش في كل مكان، يعمد صوبَ مجموعة أخرى يراها تركب البحر في سفينة، يحث فرسه على اللحاق بها، وقبل أن يصل إليهم في البحر، ينزل من حصانه ويركب مدرعته الحربية، مدرعته المصفحة بالفولاذ فلا يستطيع أحد اقتحامها وهزيمته، يقذفهم بقذيفة جعلت أمواج البحر ترتفع فوق رؤوسهم كالجبال، جعلتهم شظايا في بحر لجي يغشاه موج من فوقه، موج من فوقه سحاب، ينطلق إلى سفينة أخرى هاربة، عرفهم، إنهم المستندون على القانون، المشهرون دائما في وجوه حماة المرأة الفصل 490 من القانون الجنائي الذي يُجرم العلاقات الجنسية، أتحسبون أنفسكم تحرصون عفة المرأة، من أنتم حتى سمحتْ لكم أنفسكم بالحديث عن عفتها؟ المرأة من حقها أن تستمتع بعلاقتها الجنسية كما تستمتعون بها أنتم، أنتم تتزوجون رباع، وتطلبون منها ألا تتزوج إلا بشخص واحد، أنا مخلِّصها من قانونكم البائد بعد أن أتخلص منكم،

وسيكون من حقها أن تتزوج بأربع كما تتزوجون أنتم، بل من العدل أن تتزوج بثمانٍ، فحقوقها تُضاعف حقوقكم، ومن حقها ألا تتزوج إن شاءت، لكن ليس من حقكم أن تستنكروا عليها اقترانها بمن شاءت إن هي رفضت الزواج، ليس من الصواب منعها من حقها البيولوجي، وليس من العدالة أن تستهجنوا عليها إجهاض جنين لا ترغب فيه، وليس من حقكم أن تختاروا لها مَن تتزوج ومَن ترفض، فإن رفضت فترفض لقناعة، وإن تزوجت أو اقترنت بمن شاءت فإنها تفعل ذلك بقناعتها الحرة، وولايتكم عليها أكلها الدهر وشرب، ولايتكم على الفتاة لا قيمة لها سواء أكانت قاصرة أم راشدة، فلا حق لكم أن تُزوجوها وهي قاصرة، ولا سلطة لكم عليها أن تُدخلوها فراش رجل عجوز منكم كزوج له وهي ما زالت تلعب مع الأطفال، ولا حق لكم من اليوم بعد أن أتخلص منكم، لا حق لكم في ولايتكم عليها، أو إرغامها على الزواج وهي صغيرة، أنا وليُّها، أنا خادمها المطيع، أنا حارسها منكم، أنا حسامها، ويُغرقهم في البحار لتأكلهم القروش.

ويَخرج مِن مدرعته بعد أن أوقفها على شاطئ أمان المرأة، ويصعد دبابته ليتولى مهمة القضاء على من تبقى من أعدائها، تلفِتُ نظره مجموعة أخرى تتسابق للهرب، عرفهم، هؤلاء من يجعلون الطلاق بيد الرجل، كم هم أنانيون هؤلاء الذكور،

يحتكرون الطلاق لأنفسهم، يتركون المرأة معلقة بين أرجلهم لا هي متزوجة، ولا هي مطلقة، يقذفهم بقذيفة صاروخية، يقرر بعد أن يلقوا حذفهم أن يجعل الطلاق بيد المرأة وحدها، تُطلق الرجل متى شاءت وتتركه متى أرادت. ويشرئب البطل حسام بعنقه يبحث عمن تبقى من أعدائه أعداء المرأة، فيتأكد أنه قضى عليهم كلهم.

يعود إلى القاعة يمشي بزهو وافتخار وسط تصفيق الجمهور، والورود تُنثر فوق رأسه، يمسح عرقه والتصفيق لم يتوقف، والواقفون لم يجلسوا بعد، والجالِسَيْن لم يقفا، أمامه يرى متكبرَين اثنين لم يصفقا ولم يقفا، لم يركعا ولم يسجدا تحت عرشه، وحيد وجوري، كأن لسان حاله يقول، إني أرى رؤوسا أينعت وحان قطافها.

وحيد حانق على حسام المنافق الذي يدافع عن المرأة وأمه قد رمى بها في دار العجزة، أليست أمه رحمة امرأة أيضا، أم أن النساء عنده هن الشابات الشقراوات كما قالت جوري، ويلتفتُ إليها يهمس في أذنها.

ـ يحدج بصره نحونا بغير عين الرضى، الكل واقف يصفق له ما عدانا أنا وأنت.

ـ مللت من النفاق يا وحيد والله، مللت من التملق، فليحدث ما شاء أن يحدث، لقد تأملت حالتي مع هؤلاء الأوغاد، فوجدت أني أضيع وسطهم يوما بعد آخر، وقد أيقظني كلامك من سباتي كي أعيد حساباتي.

ـ أتعرفين يا جوري، لم أبك ولم يحترق قلبي بالقدر الذي بكيته حينما ماتت أخت عصام أثناء وضعها لجنينها.

التفتت جوري إلى وحيد مندهشة.

ـ أخت صديقك المتشرد ماتت وهي تضع مولودها؟

ـ نعم للأسف، ماتت حين وضعِها لمولودها بعد أن اغتصبها شخص ما، لكن الأمر الذي يحز في نفسي هو أن حسام يدعو الطالبات الآن إلى إقامة علاقات جنسية ولو خارج إطار الزواج، فكيف سيكون مصير من سيلدونهم بعد تلك العلاقة؟ ألا يفكر في ذلك؟ هل رأيتِ أنه يلمّح إلى أنه لا مشكلة عنده في إقامة فتاة قاصر لعلاقة خارج إطار الزواج، لكن أن تكون تلك العلاقة داخل إطار الزواج فذلك يرفضه بشدة.

ـ لا تستغرب ولا تتأسف يا وحيد، هؤلاء القوم أنا أعْرَفُ الناس بهم لأني أعيش معهم، ما يريدونه هو الوصول إلى جسد المرأة بأي طريقة كانت.

وينفَضُّ الجمع، ينفضون من القاعة لكنهم يَلتقون في كل مكان، فدرْسُ حسام يحفظونه جيدا، ولابد من تنفيذه، ويطير الحجاب في السماء، وتلتقي الأجساد تحت الأشجار، وعلى شواطئ البحار، وفي غرف مستأجرة، وفي ساحات الجامعات وزواياها، فصك الغفران قد أخذوه من حسام، وبطاقة العبور قد مُنحت لهم، وهرموناتهم قد تدفقت بسبب كلامه الذي حرك مشاعرهم، وتتوجه أسيل مع أويس حيث شاءا، وتعود جوري إلى مسكنها نادمة على أيام كانت مع هؤلاء وفي صفهم، ويذهب وحيد رأسا إلى غرفته حزينا كئيبا يفكر في الأيتام والمتشردين الذين عرفهم والذين لم يعرفهم، ويفكر في كلام إحسان التي قالت إن جمعيتها تستقبل دوما أطفالا جُددا، فها هم أطفال ونسمات أخرى ستستقبلهم جمعيتها بعد أن ختم حسام على جواز خروجهم لعالم البؤس، ها هم سيولدون وسيتخلى مَن أنجبوهم عنهم، سيرمون بهم في المياتم، سيكبرون في مثل البؤس الذي عاشه وحيد.

يركب حسام في سيارته وبجانبه روفيدا التي طلبت منه أن يُقلَّها إلى شقتها.

ـ كنتَ عظيما اليوم يا حسام، كنت أكثر جرأة من أي يوم سبق.

ـ من أجلكن يا روفيدا، من أجلكن سأكون أكثر جرأة وشراسة.

ـ صدقني فاجأتني بخطابك القوي وكلماتك الواضحة، لا يستطيع كل الناس الحديث عن الجنس كما تتحدث عنه أنت.

كانا قد وصلا إلى شقة روفيدا، وقف أمام الباب يودعها، لكنها تابعت حديثها الذي يبدو أنها لم تنته منه بعد.

ـ لكنك متناقض يا حسام.

استغرب حسام من كلامها، سألها بحيرة لمَ هو متناقض في نظرها!

أجابته بابتسامة ماكرة تشبه ابتسامته، وبتغنج ودلال.

ـ لأنك تدعو لشيء ولا تفعله.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد يا سيدي أنك تنادي بالحرية الجنسية وإن كان الرجل متزوجا، لكنك تنأى بنفسك عن ذلك.

قالت ذلك بغزل وقد سحبته من كفه إلى داخل شقتها، ثم تكمل كلامها مع غمزة من عينها:

ـ سأخبرك بسر لا يعرفه أحد حتى لا تظن أن الأمر يتعلق بك فقط باعتبارك متزوجا، أنا متزوجة أيضا هيهه، زوجي يشتغل في الدار البيضاء، لا يعرف ذلك أحد غيرك الآن، لم أره منذ أكثر من سنة، وحتى أكون ممن ينفذ كلامك الذي تدعو إليه

بحذافيره ولا أستمع له فقط وأضربه عرض الحائط فإنني قررت أن أتزوج بك دون علم زوجي هيهه، ما رأيك؟ أليس من حق المرأة أن تتزوج من شاءت ومتى شاءت كما يقول السيد حسام؟

قالت ذلك وقد غمزته بعينها وقهقهت بغنج داعر وهي تجره.

*****

(16)

من قال إن التغاضي عن زلات الآخرين هو خير سبيل للتعايش معهم بسلم وأمان؟ ألا يحتاج المرء أحيانا بل في عدة مواقف إلى مواجهة الآخر؟ إلى أن يكون وجها لوجه معه، أن يبين له أخطاءه وسقطاته التي قد لا ينتبه لها، كم من شخص يلزمه مرآة ليرى فيها عثراته، وإذا لم ير نفسه في هذه المرآة، فلا شك أنه سيستمر في مزاولة زلاته وغلطاته أبد الدهر.

وحيد يريد أن يتحول إلى مرآة ليري حسام من خلالها خطيئاته وجرائره، وبعد أن يضع وحيد يده على جرح حسام فليقض في حقه ما يريد آنذاك، فليقض أن يطرده من مسكنه، أو أن يتخذ في حقه أي إجراء يحبه، وقبل مواجهة حسام، عنَّ له التواصل مع عفاف ليكون على بينة من أمره، استغل خروج حسام وأسيل ليتحدث معها.

ربما وحيد فقد عقله، ماذا دهاك يا وحيد حتى تُقدم على تنفيذ تلك الأفكار الطائشة؟ من هو العفريت الذي ينط في رأسك

حتى أزمعت التحدث مع عفاف زوج حسام؟ هل سئمت الرتابة وتبحث عن الإثارة؟ هل تريد تجاوز حدودك والحديث مع عفاف التي لم تر وجهها مِن قبل؟ هي ليست كغيرها، إنها ترتدي نقابا يستر وجهها، لا أرى إلا أنك ركبت رأسك وعزمت على المضي في وضع نهاية لحتفك.

ها أنت تنادي على الخادمة تطلب منها أن تُخبر عفاف بأنك تود الحديث معها في أمر مهم تريد أن تعرف خباياه، وها هي الخادمة تدخل غرفة عفاف ثم تنتظر خروجها لتُخبرك بما اعتزمت، قلبك ينبض بقوة، مَن أرغمك على ذلك؟ الخطأ خطؤك، أصلح هفواتك قبل أن تفكر في إصلاح عثرات الناس.

خرجت الخادمة، ولّت وجهها ناحيتك، ترقبها في وجل، عيناك على شفتيها.

ـ اسبقها إلى صالة الضيوف، ستضع نقابها وستلحق بك.

لا تدري هل ستسعد أم تضطرب، تتراجع أم تتقدم؟ ما زلت مبهوتا وواقفا في مكانك.

وتحمل قدميك حملا إلى الصالة، تدخل، تجلس، تعطي الأوامر لعقلك بأن يسبح في عالم الملكوت، أحداث كثيرة عشتها في حياتك، مرت عليك كل ألوان الأحاسيس، وكل أنواع الشقاء والبؤس.

يعود عقلك إلى رأسك بعدما لمحتها قادمة نحوك بلباسها الأسود الذي لا يُرى منه شيء، هل هذه حقا زوج حسام؟ هل هذه التي تلبس السواد ولا يظهر منها لا كفيها ولا عينيها زوجه؟ زوج الذي يدعو بالعشي والإبكار إلى التحرر من مثل هذه الخيام التي يخنق فيها المتشددون أهاليهم، ألا يعرف الناس أنه هو أيضا يفرض على امرأته هذا اللباس كما قالت جوري؟ شيء ما ليس كما هو؟ حلقة ما في السلسلة مفقودة؟

ما زالت عيونك مشدوهة نحوها، جلستْ وألقت عليك التحية، رددت التحية وأنت ما زلت تنظر إليها، ويحك، غض بصرك عنها؟

ـ تفضل ولدي، ما هو الأمر الذي أردتَ الحديث معي فيه؟ كلي آذان صاغية لك.

صوتها رقيق وعذْب، ينبع من نبرته الحنان والعطف، لابد أن وراء هذا النقاب امرأة طيبة ودودة، كأنك ترى العطف في عينيها وراء ستار رقيق يحجبهما، كأنك تريد أن تسمع صوتها مرة أخرى، لا الصوت فقط ما أهمك، بل حتى كلمة "ولدي"، اشتقت لتسمعها، لمَ تأسِرُك هذه الكلمة؟ لمَ كلما سمعت أحدهم يناديك بها التجَّ قلبك كبحر لجي هائج، كلمة واحدة تُهيِّج قلبك، هذه الكلمة تعرف كل منْ ناداك بها، لن تنسى أي شخص نادى

عليك بها؛ الحاجة رحمة أولهم، الحاج موسى ثانيهم، أبو عائشة الذي ظننته والدك ثالثهم، وعفاف الآن رابعتهم، ولا تدري ألإحسان نادتك به أم لا؟ أنت لا تتذكر.

ـ أعتذر منكِ بشدة إن تجرأت وأرسلت الخادمة لتطلب منك محادثتي، أو أني دعوتك للحديث في وقت لا يناسبك.

ـ لا بأس يا بني، فأنت في مثل عمر ابنتي أسيل، وقد أخبرتني أنك يتيم لا أبوين لك، فاعتبرني مثل أمك، وإن احتجت مالا أو شيئا غيره فأخبرني بذلك.

ما ألطفها، صوتها يبرز مدى القلب الطيب الذي تحمله، يا ليت حسام يكون على قدر عظمة هذه المرأة، يا ليته يعرف قدرها.

هيا أخبر المرأة بما تريده ولا تتركها تنتظر... وتتنحنح، وتنظر في وجهها المستور، وتستجمع قواك وحروفك، ثم تطلق قذيفتك.

ـ سيدتي عفاف... أتتذكرين لمَّا طلبت مني ومن الخادم أن نحمل الخزانة إلى غرفتك؟

حركتْ رأسها أن نعم، تابعتَ كلامك مرتبكا.

ـ عندما وضعناها في مكانها... احتجنا مفك البراغي لتثبيت برغي اهتز في مكانه... ولما فتحتُ درج الدولاب للبحث عنه وجدتُ هناك...

هيا تابع كلامك، ماذا وجدت هناك؟ ماذا ستقول، وجدتُ صورة أمي رحمة! من رحمة هذه؟ لمَ لمْ تُفكر في هذا الأمر مِن قبل؟

ـ ماذا وجدتَ يا بني؟

ـ وجدتُ صورة لامرأة أعرفها.

وتصمتْ، وتصمت هي أيضا، ويخرس الكون، وتتحدث النظرات، تحس بدمعة تتسلل من عينيها، قد تبكي، لم ذلك؟ بماذا ذكرتْها الصورة؟ ما بها ساكتة؟

ـ تعرف تلك المرأة التي رأيتها في الصورة؟!

ـ أعرفها!

سكون الليل خيم على الصالة، ارتباك جفون العيون، وارتعاش شفاه الثغور، وخفقان قلوب الصدور، وارتفاع وانخفاض الشهقات والزفرات، ثم تتمم كلامك.

ـ نعم أعرفها، إنها أمي رحمة، أمي التي تكفلت بي رغم أنها هي من تحتاج لمن يتكفل بها، تقطن بدار المسنين، وبالرغم من ذلك تكفلت بي واعتبرتني ابنا لها.

تحس بأن شيئا ما على غير ما يرام، تسمع شيئا يُشبه صوت الدمع وهو يسيل على الخدود، وهل للدمع صوت؟ تخالها ترتعش، إنك تسمع بكاءها حقا، ويتحول البكاء إلى نشيج، ما الذي يبكيها؟ وتسترسل في نحيبها، ودون أن تشعر أحسست بدمعات ساخنة تهبط على خديك، قلبك به من الحزن ما لا يعلمه إلا خالقه، وتقول من بين دموعك وحشرجت صوتك.

ـ أخبريني سيدتي بما تعرفينه عنها، ماذا تعرفين عنها؟

وتبكي، كأنك تتوسلها ببكائك ألا تُخفي عنك شيئا، وتبكيان، ولا تسمع من لسانها إلا تسبيحا، "سبحان الله"، "سبحان الله"، وتُشوقك لتعرف عنها ما لا تعلمه.

ـ ذَكَّرْتَنِي بشيء يمزق قلبي يا ولدي... ذكرتني بأمر أغرب من الخيال... الحاجة رحمة هي أم زوجي حسام.

"أغرب من الخيال"، شدتك هذه العبارة لأنها عينها التي سمعتها من أمك رحمة عندما كانت تتحدث عن تخلي ابنها عنها، ما الذي يجعلهما يؤكدان على أن ما حدث أغرب من

الخيال؟ وتسترسل عفاف تخبرك بما حدث وسط بكائها ونحيبها.

إذن فحسام قبل أربع عشرة سنة كان في السجن، ومباشرة بعد خروجه أودع والدته مركز الوفاء الاجتماعي لرعاية المسنين، أهذا هو الوفاء؟ وبعدها رحل من الدار البيضاء إلى فاس، إذن الحاجة رحمة أمه، أم حسام الذي يدعو الناس إلى احترام المرأة وتقديرها، فأين احترامه لأمه؟

وتُخبرها أنك ما زلت تتواصل مع الحاجة رحمة، وتحملق فيك باندهاش تريد أن تقول لك شيئا فتصمت، ثم تخبرها أنك لن تخبر الحاجة رحمة بشيء مما عرفته حتى لا تُجدد عليها أوجاعها وتجرح قلبها، إنما يمكن أن تخبرها بذلك لكن ليس الآن، وتنظر لك مرة أخرى تريد أن تتفوه بشيء فتنكفئ، كأنها تعرف شيئا ووجدتْ نفسها متذبذبة بين إخبارك به وامتناعها عن ذلك.

ـ سأخبرك بشيء آخر يا ولدي وحيد، لكن اترك الأمر بيننا، ليس أمه من تخلى عنها فقط، بل تخلى عن فتاة كانت حبلى منه، لا هو تزوج بها، ولا حفظ عفتها، أنكر ما فعله معها، وأنكر ولدها الذي زرعه في أحشائها، أنا أعرف ذلك وهو يحسب أني لا أعرف شيئا.

لم يتخل حسام عن أمه وعن تلك المرأة فقط، إنما تخلى عن شخص آخر لا تعرفه أنت يا وحيد ولا عفاف. ثم وبدون أن تنتبه لما تقوله، أو أن تفكر في الكلمات التي ستُخرجها من فمك قاطعتها في غضب.

ـ وما زلتِ ترضين أن تستمري شريكة له في حياته رغم خيانته لك.

يا ليتك ما تكلمت، يا ليتك حفظت للمرأة ماء وجهها، نزعتَ منها كرامتها كأنك تنزع عنها نقابها يا رجل، لم تنبس بشيء، صمتتْ، ولتغلق هذا الموضوع قالت بصوت خافت يكاد لا يُسمع.

ـ ما زلت أرجو صلاحه.

في تلك البرهة سمعتما صراخا وبكاء، ليس بكاءكما طبعا، بكاء يأتي من خارج الصالة، تقف عفاف مذهولة، عرفت بكاء من هذا، إنه بكاء ابنتها أسيل، تدخل أسيل ليتوقف بكاؤها لحظة بعدما رأتكما معا في الصالة، ثم تكمل نشيجها بعد أن جلست بجانب أمها ووضعت رأسها على صدرها، سألتْها أمها بقلق يكاد يطير له قلبها عن سبب هذا البكاء بعينين شاخصتين وثغر مفتوح، فتجيبها أسيل منتحبة.

ـ أويس يا أمي، أويس.

ـ ماذا صنع بك؟ تحدثي.

ـ أخبرتني صديقاتي أنهن رأينه يُدخل معه فتاة إلى شقته، وقد وعدني من قبل أن يتوقف عن ذلك.

وتتعجب لهذه الأسرة المتشرذمة، المتناقضة، لا تفهم شيئا عنها، صندوق أسود هم، بالأمس تقول لك أسيل إن رؤيتك له مع صديقته أمر لا يتطلب انزعاجا، واليوم تأتي باكية للأمر ذاته، وأمٌّ محافظة، وأب متحرر، وتستيقظ من أفكارك على صوت عفاف.

ـ ألم أخبرك من قبل أن تتخلي عن ذلك الذئب؟ ألم أقل لك يا ابنتي أن ما أنت عليه معه من علاقات ليست في مصلحتك؟ أنت لا تستمعين لكلامي، أنت تسمعين لكلام والدك فقط.

ـ أهذا وقت هذا الكلام يا أمي؟ أنا الآن في حالة سيئة وأنت تُذكرينني بمواعظك ونصائحك، هل تنتظرين مني أن أكون مثلك، أن أختبئ في تلك الخيمة التي حشوت فيها نفسك؟

صراخها جرحَ كرامة أمها، هل اتفقتما اليوم على أن تجرحا كرامتها؟ قذائفُ أسيل التي خرجت من فمها جعلت عفاف تترك المجلس وتتجه نحو غرفتها.

وتغضب يا وحيد، وتُغضبك كلمات أسيل، وتختار المواجهة مرة أخرى لتكون هذه المرة مِرْآة لأسيل لترى من خلالها أخطاءها.

ـ ما هذه الكلمات الفجة التي تتلفظين بها في حق أمك؟ لا يحق لك أن تجرحي كرامتها، أمك إنسانة شريفة ويا ليتك تكونين مثلها.

ـ ومن أنتم سيادتكم حتى تتحدث معي في شأن أمي؟

وها أنت تدخل مرة أخرى معركة خاسرة دون خطة مسبقة، ها هو تسرعك سيؤدي بك مرة أخرى إلى أن تكون تحت حذائها، لكن ما كان لجُندي أن يتراجع عن ساحة الحرب بعد أن وضع لأمته ودرعه.

ـ أسيل اسمعي مني جيدا، أقدِّر شعورك، وأقدر ما أنت فيه من غضب، فلقد نصحتك من قبل فلم تقبلي نُصحي، وأعلم أن سبب نصح والدتك لك هو حبها لك كما يُحبك الجميع، فآه كم تمنيتُ أن يكون لي أم وأب ينصحاني ويهتماني بشؤوني، احمدي الله يا أسيل أن والديك على قيد الحياة، فكم من شخص فقدهما مثلي ولا يعرف عنهما شيئا، ولم يحس يوما بحنانهما وعطفهما، أتعلمين؟ لقد غبطتك عندما جئتِ باكية إلى صدر أمك، آه لو أن لي صدر أمٍّ آتي إليه باكيا مشتكيا، وبعدها لا

يهمني أن تصرخَ في وجهي أو أن تقول كلاما لا يرضيني، يلزمك أن تعرفي قدر أمك يا أسيل وأن تستمعي لكلامها، فالأم أعرف الناس بمصلحة الابن من غيرها.

سكتتْ عن الإجابة معلنة عن هدنة، وافقتَ على الهدنة ووقفتَ مستعدا لترك الصالة، لكنها استوقفتك وطلبت منك الجلوس مرة أخرى، صمتت برهة من الزمن حتى حسبت أنها لن تقول شيئا ثم بعدها قالت:

ـ هل حقا ترى أن أويس لا يستحق أن يكون زوجا وفيا يا وحيد؟

تستشير معك، أوه يا وحيد، لقد أصبحت مستشارا، لقد ارتقيت مرتقى كبيرا، وتحرك رأسك موافقا، ثم تقول في حذر:

ـ يمكنك أن تجربيه، يمكنك وضع خطة لترى مدى وفائه لك، آنذاك احكمي على مدى استحقاقه لك؟

وتحرك رأسها وقد شردت بعيدا، تخال الخطة مرسومة في ذهنها وما عليها إلا تنفيذها.

وتوقظها بحديثك من غفلتها:

ـ أسيل أريد أن أتحدث مع والدك.

تنتبه لك مستغربة، والدي؟!، منذ متى آخر مرة تحدثت فيها مع والدها؟ مرت سنوات ولم تتحدث معه قط، نعم لم تتحدث معه قط، تلتقيه أحيانا في الحديقة فلا يُلقي سلاما ولا ينظر في وجهك، سنوات ولم تجرِ الكلمات لتلتقي في مجرى نهريكما، كأنك غير موجود، كأنك لا تعيش معه في المكان ذاته الذي يعيش فيه هو، ثم من أنت ليتحدث معك؟ من أنت ليُعيرك اهتماما؟ هو السيد حسام المفكر العظيم، وأنت وحيد الوحيد، البائس، اليتيم المتشرد.

*****

(17)

وتمضي فيما عزمت القيام به، مواجهة من؟ مواجهة الفيلسوف الألمعي حسام، كأنك لا تعرف حجمك، كأنك نسيت من تكون، لا تنس أنك مجرد يتيم وحيد، مجرد متشرد قاسَى البؤس والحرمان، ستحاور السيد حسام، تريد أن تكون لك مساجلة مع مَن لم يستطع مناظرته علماء أفذاذ، ومفكرون أكلوا كتب الفكر أكلا، ثم تأتي أنت اليتيم البائس لتجادله في أفكاره وما يدعو إليه.

حانت ساعة الصفر، حان موعد اللقاء، كانت قد أخبرتك أسيل أنه استجاب لطلبك أخيرا، وحدد موعدا معك في هذه الساعة من هذا المساء، طلبك الذي لم ينظر فيه لشهرين، شهران مذ أن طلبتَ من أسيل أن تفاتح والدها في أنك تود الحديث معه، لكن وقته لا يسمح لأمثالك، ومن أنت حتى يلتفت لك؟ لكن بعد أن نسيت الأمر ونسيت أنك طلبت محادثته، وانكببت على عملك في إتقان، بل وحتى أمك رحمة التي تتواصل معها لم تخبرها أنك ألفيتَ صورة لها في غرفة

عفاف، بعد كل ذلك تذكرك حسام. وها أنت تجلس حيث طُلب منك أن تجلس، تنتظر لقاءه، لقاء مفكرٍ بارعٍ، مفكرٌ بارعٌ وجها لوجه مع يتيم متشرد، تؤنسك أسيل الجالسة بالقرب منك مرتبكة شاردة في محادثات بهاتفها.

ويدخل، ويدخل بمشِيئته بمشْيته الواثقة، بخطواته المتزنة، وفي لحظة يؤلمك رأسك بشدة، تحاول أن تقاوم، ألم فظيع، كأن هناك من يحرك ذاكرتك ككريات صغيرة في إناء، تأتيك لقطات في ذاكرتك من الميتم ثم تذهب، تأتي وتختفي، لا تدري بالضبط ماذا تتذكر، ما تحس به الآن هو ألم بدأ يخف، سألتك أسيل عن حالك بعدما رأت تغير لونك، واصطكاك أسنانك، وقد أفاقتْ من شرودها على أنَّة هربت منك، أجبْتها بأنك بخير بعد أن ناولتك كوب ماء، تشرب منه ونظراتك معلقة على وجه حسام، وبصره مشدوه إلى وجهك، لم يتحدث، جلس ينظر إليك كأنه ينظر إلى شخص رآه في مكان ما ويحاول تذكر ملامحه، أو تَذَكُّر المكان الذي رآه فيه، كأنه يحملق في وجه شخص يعرفه، الكل جلوس، ولا أحد يتحدث، أنقذت أسيل الصمت من حرجه فتحدثت معكما بصوت مبحوح حزين لا يعلم أحد سببه.

ـ كان وحيد طلب مني منذ شهرين أن أتوسط له معك يا أبي، يريد الحديث معك... وقد نسي الأمر يا وحيد فذكرتُه أمس بذلك.

التفت إليك ينتظر أن تُفصح عما تود قوله، لكنك أبله في مثل هذه اللحظات، صمتك تجاوز حدوده، تَحني رأسك كأنك تفكر في الكلمات المناسبة للبصق بها على وجهه، والأغرب أن حسام لم يقطع عنك صمتك، ولم يُحدثك.

أخيرا ستتحدث، رفعت رأسك وألفيته ما زال ينظر إليك، التقت أعينكما، أبى أحدكما أن يزيلها عن الآخر، أول لقاء مباشر معك بحسام، بخصمك، بخصم أمك، خصمك وإن كنت تقيم في داره لسنوات، خصمك وإن أنقذك من التشرد، أصبحت ندا له تريد مواجهة أفكاره لأنه خصم أمك رحمة، تريد تبخيس مجهوداته التي يقوم بها في سبيل تحرير الناس من الجهل والتخلف. ها هو لسانك سينزلق على كلمات قاسية فظة تنزل على حسام صواعق مرسلة، لكن ما يحدث الآن عكس ذلك، وجدتَ الكلمات تخرج من شفتيك في موادعة ومداهنة، فأنت الآن تعتذر منه، بل تناديه بالسيد حسام، تتأسف أنك تأخذ من وقته الثمين، في حين تُفكر في نفسك فتجد أنك بالنسبة له لا شيء حتى يقتطع هذا الوقت لحسابك، ثم تجد لسانك يرجوه في خجل أن يتسع صدره لما ستقوله.

هز رأسه دلالة على قبول الاعتذار، مال بجذعه إلى الأمام واضعا مرفقيه على ركبتيه، ومشبكا بين أصابع كفيه وقد وضعهما تحت ذقنه ينتظر منك الحديث.

استجمعت قوتك وشجاعتك، استعرت منه فرسه الذي يركبه في كل لقاء ومحاضرة وركبتَه، أحسست بالقوة وأنت تتذكر دموع أمك رحمة، جعلَتْك تلك الدموع تنطلق بفرسك في جري حثيث إلى الصحراء، تبتعد حتى لا ترى وجهه، التفَتَّ وراءك لتراه على جواد غير الجواد الذي يركبه دائما، على الأصح يركب حمارا هرما، هو وراءك لا للمبارزة بل ليرى أين تريد أن تأخذه، يتبعك وينتظر منك أن تعرب عما تريد فعله، وحدكما في الصحراء تقابلان بعضكما البعض.

هذه هي الحياة التي تدعو لها يا حسام، قاحلة جرداء لا نبات فيها، لا عيش فيها، تدعو إلى الموت يا رجل، تدعو على الظمأ، إلى الخراب، إلى الفَناء، المرأة هي الحياة، لكنك تريد منها أن تكون حبل مشنقة للرجل، للأسَرِ، للمجتمع، في كل محاضراتك تبالغ دوما في شنق المجتمع بأمعاء المرأة، لا أظن أن كلامك هدفه حقا الدفاع عن المرأة، استمع إلى صفير الوحدة، اشعر بقسوة الحياة، شم رائحة الموت، انظر إلى الصحراء الموحشة، إلى كثبان الرمال، وشدة القيظ، وقسوة الحياة بين هذه الهضاب الرملية، انظر مد بصرك، انظر إلى أبعد حد هل ترى معنى للحياة هنا؟ ثم ارجع البصر لترى ما في الصحراء من فطور وصدوع، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير لتعلم بشاعة ما تدعو إليه،

تدعو إلى الموت في صحراء لاهبة، ليتك تدعو إلى الحياة، لكن لا حياة لك حتى تعطيها لغيرك، اترك ما تدعو له وابحث عن الروح، ابحث عن الروح يا رجل.

وتستل سيفك من غمده، تُشهره في وجهه، لكنه ينظر إليه دون حراك أو ارتعاب، ترك سيفه في غمده ولم يخرجه لمواجهتك، هل وقعتَ في ورطة؟ ها هو السيف في يدك وقد وضعته على عنقه ولا مقاومة منه، ما الذي ستفعله الآن بعد أن رفض مبارزتك؟ هل رفض ذلك لأنه يراك بالنسبة له صغيرا عن المبارزة، أم لأنه يرى قوة خفية تلمع من عينيك تمنعه من مواجهتك؟

يا سيد حسام كل ما تدعو إليه مفاسده أعظم من مصالحه، وكما تعلم إذا زاد ضرر الشيء عن منافعه، فيلزم التخلي عنه لا التشجيع على الأخذ به، فأنت تدافع عن علاقات جنسية دون ضوابط، وتدافع عن تحرر المرأة من قوامة الرجل، وتدافع عن تركها للحجاب، بل وتريدها أن تكون عدوا للرجل الذي يرفض لها ما تريده أنت أن تكون عليه، وكل ما تدعو له يا حسام له مخاطر كثيرة على المجتمع.

اقتربتَ من عنقه بالسيف، وما رأيت منه تجاوبا، لا دفاعا عن نفسه، ولا استسلاما، وحتى الابتسامة الساخرة والماكرة

من ثغره لم ترها مرسومة عليه. وتجري بحصانك تُخلفه وراء ظهرك لعله يبقى مكانه كهدنة يسترجع بها أنفاسه التي لم يزفرها بعد، لكنك تجده خلفك مباشرة، إذن ما زال في ساحة المعركة، تنتقل به من الصحراء إلى الحَضر، تتركان دابتيكما لتعرج به في شوارع على جنباتها بيوت قذرة، تدخلانها، بيوت يُشتم منها رائحة عفنة، رائحة الرطوبة والعرق، أترى هذه البيوت؟ إنها بيوت الدعارة، بيوت يرتادها عشرات الشباب يوميا لممارسة الفاحشة، وأنت يا سيد حسام بدعوتك للعلاقات غير المنضبطة فإنك تعطي أضواء خضراء للشباب لدخول هذه البيوت القذرة، وجدير أن تعلم أن إحصائيات 2026 حول ما يسمى بالأمهات العازبات، أي النساء اللواتي يمارسن الدعارة في المغرب قد وصل إلى 50 ألف امرأة، يا حسام، 50 ألف امرأة لا أسرة لها، لا زوج لها لا أبناء، 50 ألف امرأة تستقبل كل وضيع وخسيس يأخذ من شرفها وكرامتها، يأخذ من لحمها، أين حقوق هذه المرأة التي تدافع عنها؟ هؤلاء النسوة أغلبهن مصابات بداء فقدان المناعة المكتسبة، وينقلنه إلى المجتمع، تقول الإحصائيات العالمية إن 50 مليون مصابا بالسيدا في العالم، ويموت كل سنة بسبب هذا الإيدز أكثر من مليون، فلم تُشجع على شيء موبقاته تُنذر بكوارث عظيمة على البشرية؟

تخرجان من تلك البيوت القذرة لتدخل به وهو في استسلام تام إلى بيوت جميلة، بيوت يعيش فيها الناس في أمن وأمان، لكن في هذه البيوت فتيات كبيرات في السن دون زواج، أتبصر يا حسام هذه الفتاة التي بلغت 40 سنة؟ وتلك التي وصلت 35 سنة، وتلك، وتلك، وتلك، كلهن فتيات تجاوزهن قطار الزواج ولم يأت من يطلبهن ليشتركا في الدم واللحم، أتعلم لمَ يا حسام؟ لأنك تشجع على العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، مما أدى بالشباب إلى التوجه إلى تلك العلاقات وترك تأسيس الأسر، وتركهم البحث عن الروح، عن إنشاء الأسر، فارتفعت نسب العزوف عن الزواج والعنوسة، فالإحصائيات لهذه السنة تقول إن نسبة العنوسة تجاوزت 10 مليون امرأة عانس، 10 مليون امرأة في بلدك دون زواج يا سيد حسام، هل تفطنت للكارثة التي تأخذوننا إليها بأفكاركم؟

وما زال ينظر إليك صامتا دون حديث، تخاله أكل لسانه، أو فقد القدرة على النطق، وتخرج به من بيوت الناس لتدخل به إلى محاكم الأسر، تجدان في محكمة الأسرة قضاة منهمكين في أعمالهم، والملفات التي بين أيديهم ترتفع من كثرتها إلى سقف تلك القاعة أمامكم.

تأخذ ملفا من هذه الملفات الموضوعة المتراصة، تفتحه ثم تلتفت إليه، لا تنس يا حسام أنك تساهم في الطلاق أيضا، أنت تدعو المرأة إلى التخلص مما تسميه سلطة الرجل، قوامة الرجل، والمرأة حين تسمع كلامك تثور على كل طلبات زوجها، مما يجعل تلك الأسر يصعب على أفرادها الاستمرار في ظل شرارات اللهب التي تشتعل بينهما في كل لحظة وحين، وكما ترى فهؤلاء القضاة تعبوا من تسجيل حالات الطلاق اليومية في المغرب، فتقول الإحصائيات إن عدد حالات الطلاق وصلت إلى 150 ألف حالة طلاق سنويا، وهذا عدد مرعب يا سيد حسام، وما زلت تتبجح بأن على المرأة أن يكون لها حق الزواج بأكثر من رجل في الوقت نفسه، أو أن يكون لها علاقات بأكثر من رجل، وهذا لن يتقبله أحد منك يا رجل، إن كنت حقا تعلم معنى الرجولة.

وتخرج من محاكم الأسر لتتوجه به إلى زوايا مظلمة في كل مكان، إلى شواطئ البحار، إلى الغابات. تأمل يا حسام هذه الجثث الصغيرة، إنها جثث نسمات كانت في بطون أمهاتها، أتعلم ماذا وقع لها؟ لقد تم إجهاضها، فبعد أن استمتع الشابان لدقائق بينهما، بعدها تخلص من جريمتهما بجريمة شنعاء أخرى وهي إجهاض الجنين الذي شهد على قبح فعلتهما، كل هذه أجنة مقتولة، وإذا أردت أن نقوم بعدِّها، فسأخبرك بعددها

دون أن تتعب نفسك في إحصائها، عددهم يا سيد حسام 1000 جنين، انتبه، 1000 جنين ستجده كل يوم هنا، سندفن هؤلاء الألف، وسنجد غدا ألف جنين آخر في كل مكان في المغرب، 1000 حالة إجهاض في كل يوم يا سيد حسام، وسبب هذا أنك تدعو إلى ما تدعو إليه، وأحمدُ الله أن عاقبتي لم تكن مثل هذه الجثث المقتولة، إنما كانت عاقبتي أسوأ من هذه الجثث.

ويحدُّ حسام النظر في عينيك مشدوها، وتحرك رأسك تؤكد له ما قلته.

ـ نعم أنا يتيم لا أب ولا أم لي، تخَلوا عني بعد أن استمتعا مع بعضهما البعض، ولا أدري هل استمتاعهما ذلك كان تحت سقف بيت الزوجية أم تحت سقف السماء؟ تعال معي.

وتذهب به إلى المياتم والجمعيات الخيرية، تتطلع معه إلى الأطفال المتخلى عنهم، كلهم تم التخلي عنهم من طرف والديهم، انظر إلى عنف المربيات المسلط عليهم، حدق فيهم وقد فقدوا حنان الأب والأم، أدِم نظرك في معاناتهم واليوم عيد ولا عيد لهم، أجل بصرك فيهم وفي لباسهم.

هيا معي إلى شوارع المدن وأزقتها، حدق في هؤلاء النائمين في هذا البرد القارس يرتجفون بردا، تأمل حالة أولئك

تحت الجسر بثيابهم الرثة، بأوساخهم، بأظفارهم الطويلة السوداء، أترى هذه المتشردة وسط هؤلاء المتشردين، ما الذي سيكون مصيرها بعد سنوات، أو بعد أشهر فقط؟ هيا بنا لتشاهد شبابا ماتت قلوبهم، مَن أمات قلوبهم؟ إنهم أمثالك الذين دفعوهم إلى هذا المصير دفعا، هذا شاب يسرق تلك الفتاة خلسة، يسرق منها حقيبتها، أتعلم من هي تلك الفتاة؟ إنها ابنتك، ابنتك أسيل، وهذا يشم تلك المادة المخدرة فلا يدري في أي عالم هو، والآخر يستل خنجره فيشوه به وجه تلك المرأة المسكينة، وآخر يسحب القرط المعلق في أذن تلك الفتاة حتى كاد يقتلع أذنها من مكانه والدماء شلال من أذنها ولا يبالي، وهذا، هذا زعيمهم يغتصب ويقتل. هؤلاء يا سيد حسام كلهم حُرموا من عطف الأسر والآباء، والآن يحاولون التخلص من هذا المجتمع اللئيم، أتعرف كم عددهم، 60 ألف طفل متخلى عنه في سنتنا هذه 2026.

أنا كنت واحدا من هؤلاء، كنت بئيسا مثلهم يا حسام، والدي وضعني في جمعية خيرية سنة 2002 عندما ولدت، وعندما بلغت سن الرشد سنة 2020 تخلت عني تلك الجمعية، فعشت البؤس والحرمان في الشوارع لسنوات، وها أنا الآن عمري 24 سنة ولم أتذوق يوما طعم حب الأبوين لي ولذة حنانهما،

حرمتُ من حنان الأم، أتعرف ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أني حرمت حنانا لا يمكن تعويضه أبدا يا سيد حسام، عشت التشرد، أيام صعبة لن أنساها، برد قارس، نظرة حقد من المارة، بل جربت السرقة، وجربت الاعتداء على أموال الناس، كل هذا بسببك يا حسام، بسببك.

وتعود إلى فيلا حسام جالسا في الصالة تبكي، تبكي بحرقة، تبكي لأنك تذكرت أيامك المحزنة المخزية، تبكي لأنك تذكرت أصحابك المتشردين الذين كانت نهاياتهم مفجعة فتشفق على أحوالهم، تبكي لأخت عصام التي ماتت عند وضعها، تبكي لتلك الفتاة التي قالت إنها مَن تجعل المتشردين ينشطون، تقتلع قطعا من لحمها وكرامتها لتزرعها في أجساد المتشردين معها، تبكي بحرقة لما يحصل لأولئك الأبرياء، وتجد أسيل تشاركك البكاء، تنظر إليك بشفقة وعيونها حمراء دامعة، تمسحهما بين حين وآخر بمنديلها، هي في الحقيقة كانت على شفا حفرة من البكاء، أما حسام فهو الآن مثل صنم، مثل تمثال منحوت أصم أبكم، وهل تُعبد الأصنام! فلم يَعبدونه؟

يرشقك بنظرات لا تدري أهي نظرات ذهول أم نظرات عدم اكتراث، أم نظرات زائغات غائبات، أم نظرات ثقة بما يفعل، لا تفهم شيئا من ضيق عينيه الميتتين، يُضيِّق من عينيه كشبح يُحتضر، والأغرب أنه لم ينطق ببنت شفة منذ أن دخل

الصالة إلى الآن، ما به صموت هكذا، أفقد القدرة على الكلام، أم أنه يعترف بهزيمته ويستسلم، أم أنه ينتظر نفاذ ذخيرتك التي لا تقارن بالسلاح الذي سيخرجه بعد قليل عندما يتأكد بأن قوتك قد خارت؟ لكن أسلحتك لم تنفذ بعد، لقد حصلت على قذيفة من السيدة عفاف تستطيع بها هدم قصره كله على رأسه وتحوله إلى أنقاض.

ـ تقول إنك تدافع عن النساء يا سيد حسام، لكن أمي الحاجة رحمة التي تكفلتْ بي وربتني أليست امرأة أيضا، الحاجة رحمة أمك التي تخليتَ عنها ووضعتها في مركز الوفاء لرعاية المسنين يا أخي، أتذكر ذلك؟ أليست أمك يا رجل، أليست أمك؟ أهذا هو الوفاء؟

وتصرخ، وتصرخ مع تطاير البزاق من فمك، وينطلق صوتك مدويا في الفيلا لُيطل الخدم من باب الصالة على أثره، ينظرون ما بال الخادم يغضب ويصرخ في وجه سيده.

ـ كفى، كفى.

أخيرا جعلته ينطق، لأول مرة تخرج الكلمات من ثغره، أخيرا تحركت شفتاه، أخيرا زال التلعثم عن لسانه، يصرخ حسام في وجه وحيد يطلب منه أن يخرس، لقد استمع إلى ما فيه الكفاية، لكن أن يجرحه، وأن يتحدث له عن ماض سحيق

قد نسيه، فذلك ما لم يستطع تحمله، يمسك حسام رأسه من شدة الألم، يمسكه بقوة، تنزل إليه ابنته لترى ما به.

ـ أبي هل أنت بخير، ما بك يا أبي؟ ما بك؟

ـ بخير يا ابنتي، بخير، سأكون بخير.

وتبكي أسيل، وتبكي بشدة، وتحس بدوار هي الأخرى في رأسها، وتمسك رأسها مثلما يمسكه الآن والدها، هي واقفة تكاد تسقط، لم تسقط، تحاول أن تجري إلى المرحاض لتتقيأ، لم تستطع، لم تسعفها قدماها، تجلس على ركبتيها وتتقيأ في الصالة، ويجتمع الخدم يمسحون قيأها، حسام مذهول في مكانه، وأمها تجري من غرفتها تنادي باسمها.

ـ أسيل، ما الذي حصل لك يا أسيل، ابنتي! ردي علي.

فقدتْ الوعي بسببك، أنت جالس مبهوت لا تعرف ما تفعله، يمسك حسام هاتفه المحمول بيدين مرتعشين، يركب رقما في الهاتف وينادي على طبيب الأسرة للحضور بسرعة.

في أقل من ثلث ساعة كان الطبيب في الفيلا يفحص أسيل، بعد نصف ساعة من إجرائه للفحوصات والكشوفات، قال لحسام.

ـ السيد حسام ابنتك أسيل حامل في شهرها الثاني.

كشف

المحجوب

(18)

السماء صافية والجو جميل منعش، طقس خريفي مشمس، نحن في أواخر خريف سنة 2026 ولم تبتل الأرض بقطرة ماء واحدة بعد، حبست السماء مطرها هذه السنة، الشمس وحدها تسبح في أفق السماء دون أن تُعكر مزاجها غيمة طائشة أو ريح هوجاء، تُمسي الشمس على زرقة السماء وتصبح على زرقة السماء، لا شيء يتغير، ما يتغير في لوحة السماء البهية هو مرور طائرات بين الحين والآخر في الجو تقطع المسافات لاهثة مُصدرة صوتها المزعج. ها هي طائرة أخرى تحلِّق عاليا في الفضاء الفسيح، تُزعج الطيور التي تشاركها جو السماء بهدير رعودها.

لم يكن في الطائرة غير قليل من المسافرين، والقليل بالنسبة لهذه الطائرة الضخمة هو كثير إذا قارناها بغيرها، كل في مقعده مشغول بما يُمضي به الوقت، والوقت يمضي كيفما اتفق غير مكترث لتأوهاتهم التي فهم منها أنهم مضجرون من بطئه، فهذه عجوز تخاطب صديقتها العجوز مثلها، وتلك امرأة

تتهامس مع زوجها، وهذا شاب يشاهد فيلما على هاتفه الذي جعله في وضع الطيران، وهذه شابة ترقب فسحة الفضاء من النافذة القريبة من مقعدها، وهذا عجوز فتح فمه بعد أن أخذته سِنة النوم إلى عالم الأرض، وهذا الرجل ركز حواسه كلها على أخبارٍ تمرُّ بين عينيه في جريدة يمسكها بين يديه، وهذه...

هذه بثينة، بثينة اتخذت قرارا بزيارة المغرب، منذ ست سنوات لم تطأ قدماها أرض المغرب، وماذا تفعل في ذلك البلد إذا كانت حياتها مستقرة في باريس، وإذا كانت أسرتها هناك؟ متزوجة من فرنسي ولها أبناء، ثم ماذا تفعل في بلدها الأصلي إذا كان هذا البلد لا يُذكرها إلا بالشقاء؟ إلا بالذكريات الأليمة، ما يجعلها لا تزور المغرب إلا أحايين متفرقة، وتلك الأحايين المتفرقة تتفرق على سنوات وسنوات هي ذكريات دفنتها في بلدها الأم، وكلما تخطَّت بها الطائرة الغلاف الجوي لبلدها الأصلي تنبعث تلك الذكريات من رمادها كطائر العنقاء، وكذلك ما يجعلها تزور بلدها هي تلك الذكريات عينها، فكأنها تريد ولا تريد، تريد أن تُحيي الذكريات مرة أخرى، وفي الوقت ذاته لا تريد أن تُزيح التراب عن قبرها.

تخطت الطائرة المجال الجوي للمغرب فبدأت الذكريات كالأشباح تنبعث من قبورها وتحوم حول الطائرة التي تركبها، أشباح تُخِيفها أحيانا، وأحيانا تستأنس بها، أشباح تُذكِّرها ببداية

شبابها، لم تكن تعلم وهي في بداية الشباب أنها ستحمل مِن حينها ذكريات معها طول عمرها، لكن ما عساها تفعل إن كان المجتمع الذي كانت تعيش فيه يتسم بالخداع والخيانة والنفاق، ليسوا كلهم طبعا، لكن صنفا منهم احتكت بهم كل الاحتكاك وعرفت نوع معدنهم، ليس كل من احتكت بهم على الطباع ذاتها طبعا، بل أقرب الناس إليها حينها، أقرب الناس إليها خدعها، ترك مخالب مغروسة في جسدها، ما زالت أثرها بادية على جلدها، كلما نظرت إلى أثر تلك المخالب تذكرت ذكرياتها، تلك الذكريات التي في مرحلة من عمرها كانت قد نسيتها تماما، ثم في سنة من السنوات عاد لها الروح وعادت تلك الذكريات إلى الحياة بقوة، ومنذ تلك السنة وهي تأتيها على هيئة أشباح إذا أتت المغرب، وتغيب عنها إذا غابت هي في فرنسا.

لكن الآن ما يهمها من كل ذلك، من كل تلك الذكريات هو البحث عن الروح المتجلي في شخص واحد فقط، شخص أرادت أن يكون بأعينها دائما، أن ترقبه من بعيد، أن تسأل عنه، أن تستقصي أخباره، غير أن ذلك لم يتحقق لها إلا منذ ست سنوات، منذ زيارتها الأخيرة للمغرب، والآن لا تعلم عنه شيئا، لا تعلم هل ما زال على قيد الحياة أم توفي؟ هو وحده من يجعلها تتخطى حدود فرنسا لتصل إلى المغرب، هو وحده من

أصبح يربطها ببلدها الأم، لولاه لنسيت وطنها، لكنها أيضا ليست مقصرة في حق هذا الشخص بما أنها لم تسأل عنه أو لم تأتيه منذ ست سنوات.

زوجها، زوجها الفرنسي المتعجرف يمنعها من زيارة المغرب، كانت تظن بعد أن تزوجت بزوجها الفرنسي الذي يكبرها بثلاثين سنة أنها رغم ذلك ستجده رومانسيا ومتفاهما ككل الفرنسيين في نظرها، لكن ما إن قطع بها البحار من المغرب إلى فرنسا حتى وجدته شخصا آخر، كثير شرب الخمر، لا يصحو إلا قليلا، دائما في علاقات مختلطة، بل إن بيته لا يخلو من الصوت الأنثوي بالليل والنهار، ورغم ذلك صبرت على العيش معه لثلاث وعشرين سنة، فإن كان متعجرفا في نظر بثينة إلا أن فيه من السمات ما يجعلها تستمر في البقاء معه، ومن هذه السمات أنه يسمح لها أحيانا بزيارة المغرب، ولو مرة في ست سنوات!!

ولحسن حظها هذه المرة أنه أذِن لها بزيارة بلدها والإقامة فيه المدة التي أرادتها دون أن يحدد سقفا زمنيا لرجوعها، وكأنه سئم من وجودها معه وأراد التخلص منها، وهل يسأم رجل من امرأة بلغت 46 سنة؟ وهل ستفكر امرأة بلغت ذلك العمر في ترك رجل فاحش الثراء بلغ 76 سنة؟ إنما هي متمسكة به لما له من أفضال عليها، وكانت أولى أفضاله عليها

أنه أنقذها من ذكرياتها الأليمة، هكذا تخاطب نفسها لعلها تهدئ من وخز الإبر التي يَركزها ضميرها في قلبها.

حطت طائرة الخطوط المغربية القادمة من باريس في مطار محمد الخامس الدولي في الساعة التاسعة مساء، ترجلت بثينة من مقصورة الدرجة الأولى، كانت تلبس شالا على رأسها انحدر إلى وسطه فتظهر مقدمة شعرها، متوسطة الجمال، لا يعرف وجهها أي زينة تُذكر، وأما ملابسها التي ترتديها فتُظهرها في هيئتها الأوربية المتزنة، لا سافرة ولا محافظة.

كانت رحلتها هادئة وممتعة إلا من ذكريات تزور ذهنها بين حين وآخر، تقدمت نحو مكتب التسجيل، لم يدم انتظارها فيه إلا دقائق حتى تم التثبت من هويتها، تسلمت جواز سفرها المختوم وتوجهت نحو قاعة تسلم الأمتعة، وقفت على الرصيف قرب المطار، اقتربت من شارع كازا برشيد، أوقفت سيارة أجرة لتطلب من سائقها أن يوصلها إلى وسط مدينة الدار البيضاء.

نزلت من السيارة، عمدت نحو الفندق الذي كانت فيه مذ ست سنوات، كانت قد حجزت غرفتَها فيه باتصالها من فرنسا بموظفة الاستقبال، دخلت غرفة الفندق منهكة، جرَّت أمتعتها مجاوزة بها بالكاد عتبة الباب، أغلقت باب الغرفة واستسلمت

لتعبها بأن ارتمت على السرير وهي تفكر بأن لا مهرب لها من تأجيل بحثها عن الروح، عن الشخص الذي جاءت من أجله، فلتؤجل ذلك إلى الغد، ذهبت في أحلامها تفكر فيه.

في الصباح استيقظت بثينة نشطة، كيف لا تكون بهذا النشاط وهي ستزور مَن أضحى وحده يربطها ببلدها الأصلي؟ لبست ثيابها، تناولت فطورها في الفندق وخرجت مسرعة تقصد وجهتها، وقفت بجانب الشارع تنتظر مرور سيارة أجرة.

ـ تاكسي، تاكسي.. جمعية الإحسان لرعاية الأيتام لو سمحت.

ركبت بجانب سائق السيارة، هكذا اعتادت في فرنسا، أن تركب بجانب السائق، نسيت عادتها قبل أكثر من عقدين من الزمن عندما كانت توقف سائق السيارة فتركب خلفه كما تفعل معظم النساء والفتيات في المغرب، لكن الآن تغير تفكيرها كل التغير، كانت تفكر في ذلك وتبتسم حتى شك السائق أنها مجنونة، كان السائق قد انطلق بها إلى حيث حددت له، كانت تفكر فيه فقط الآن، كيف هو الآن؟ هل تغير شكله؟ هل تغيرت ملامحه؟ لمْ تخرج من تفكيرها إلا عندما سمعت فرامل السيارة تصدر صوتا لمَّا ضغط عليها صاحبها ليوقفها بمحاذاة الجمعية.

ترجلت منها، وقفت أمام باب إدارة الجمعية، ترددت في الدخول، لا تدري لمَ هي مرتبكة وخائفة، لا تدري لمَ ضميرها يؤنبها، هل يؤنبها على مجيئها أم على مجيئها المتأخر؟ اعتزمت الدخول أخيرا إلى مكتب مديرة جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، استأذنت بالدخول بطرقات على الباب، سمعت صوتا يأذن لها بالدخول، فتحت الباب ودخلت.

ـ تفضلي سيدتي بالجلوس، فيم يمكنني خدمتك؟

جلست بثينة أمام مكتب إحسان وقد ضمت كفيها إلى بعضهما البعض في ارتباك واضح كتلميذة تنتظر عقوبة على خطأ ارتكبته.

ـ جئت أسأل عن يتيم يتواجد عندكم هنا بميتم الجمعية.

ـ من تقصدين؟ ما اسمه؟

ـ وحيد.

ـ وحيد؟!!

أعادت إحسان الاسم الذي ذكرته بثينة باستغراب وقلق، وكأن هذا الاضطراب انتقل إلى بثينة فاستبدت بها الهواجس المرعبة، ارتعشت ارتعاشا جعلها وجلة تنظر إلى إحسان بعينين جاحظتين.

ـ من وحيد هذا الذي تقصدين؟ أهو ابن أبي عائشة؟

ـ نعم. هو، هو ذاته.

قالتها بثينة بتحفز وكأنها حصلت على كنز ثمين، لكن تَبدد تحفزها عندما سمعت إحسان تسألها عمن تكون، لم تكن قد حضَّرت جوابا لهذا السؤال، ومن تكون؟ هي بثينة، تفوهت باسمها.

ـ أقصد ما صلة القرابة بينك وبين وحيد؟

هي كانت تعرف أن هذا ما تقصده مديرة الجمعية، لكن أي صلة بينها وبينه؟! وأي كذبة تسعفها لتَخرج من هذا المأزق الذي لم تحسب له حسابا؟ ولمَ لا تكون صادقة؟ لمَ يتحتم عليها أن تكذب؟

ـ أنا إحدى قريباته، علمتُ مؤخرا بوجوده هنا.

ـ لا سيدتي، هو غير موجود هنا.

تحدثت إحسان وكأنها تنهر هذه الجالسة أمامها على استخفافها بعقلها، تضاعف الارتباك على جسد ويدي بثينة وقالت بصوت متقطع مبحوح يكاد يتحول إلى نشيج، فلمَ لا تبكي وقد جاءت من فرنسا خصيصا لرؤيته؟

ـ وأين هو الآن؟

ـ لا أدري.

هتفت بذلك إحسان وعادت تنقر على أزرار حاسوبها وقد تجاهلت، أو تعمدت تجاهل وجود بثينة جالسة أمامها، رفعت إحسان طرف عينها لتلمح بثينة تمسح دموعا تجمعت في مقلتيها، أشفقت عليها، عادت بجذعها مستقيما جهتها، تنظر إليها بحنو ورقة بعدما كانت نظراتها إليها من قبل نظرات عتو وقسوة.

ـ سيدتي بثينة، وحيد غادر جمعيتنا منذ ست سنوات بالضبط، منذ ست سنوات كان قد بلغ من عمره 18 سنة، والقانون في جمعيتنا يُحتم علينا التكفل بالأيتام ما لم يبلغوا هذا السن، وهو سن الرشد.

غاب عقلها لحظة عن المكان الذي تتواجد فيها، وكأنها تذكرت لتوها ما كانت قد نسيته، الآن تذكرت ما كان خافيا عليها، تذكرت أمورا وهي تستغرب الآن كيف غفلت عنها، ألم تكن هي من طلبت من وحيد مغادرة الميتم؟ فكيف تأتي لتسأل عنه بعد أن كانت هي من طلبت منه مغادرته؟ ثم كيف تَصادف طلبها منه مغادرة الميتم مع بلوغه سن الرشد؟!

تخيلت صورته أمام عينيها، لكنها أدركت أن ست سنوات حتما قد جعلت من هذا الذي تسأل عنه الآن شابا يافعا، ولم يعد طفلا أو فتى مراهقا كما تتخيل صورته.

ـ وأين يمكنني أن أجده الآن؟

ـ ارتحل عن الدار البيضاء منذ ثلاث سنوات، وبلغ إلى علمي أنه مستقر الآن بفاس، ولا أعلم أي أخبار أخرى عنه يُمكنني أن أنفعك بها غير ما أخبرتك به الآن.

تعجبت بثينة كيف وصل وحيد إلى فاس؟ وماذا يفعل هناك؟ ثم ذهب بها عقلها إلى شخص آخر فتمتمت، "إذن يتحتم الآن رؤية ذلك الشخص الذي لم يكف عن الاتصال بي"، انتبهت إحسان لشفتيها اللتين تتحركان فسألتها عما تقوله فأجابت ألا شيء، ثم وضعت حقيبتها الصغيرة على كتفها ونهضت بتثاقل عن الكرسي الذي كانت جالسة عليه تجر قدميها جرا، وما إن تقدمت نحو الباب للخروج حتى سمعت خلفها صوت إحسان يستوقفها.

ـ بثينة.

التفتت خلفها لترى إحسان تبتسم لها بود وتناولها ورقة امتدت بها يدها.

ـ خذي هذه الورقة، كتبتُ لك فيها الرقم الهاتفي لوحيد إن شئت الاتصال به.

*****

(19)

نحتاج أحيانا إلى من يوقظنا من غفلاتنا حتى ننتبه إلى أننا نحيا الوهم لا الحقيقة، حتى ندرك أننا نعيش خيالا ممزوجا بالواقع، فكثيرا ما نستند على ما نحبه في الخيال لننسى به ما نكرهه في الواقع، لذلك لعلنا نفتقر إلى من يكبس على جراحنا حتى نتفطن إلى وجودها فنسارع إلى علاجها، نحتاج إلى تذكير الآخر لنا بأخطائنا باستمرار لعلنا نرتدع عن الإهمال فنقوم إلى تصحيحها، ليس العيب أن نخطئ، العيب أن نستمر على الخطأ، لكن العيب الأكبر أن نصحح خطأ بخطيئة أشنع منه.

اعتزم حسام السفر إلى الدار البيضاء، لم يُخبر أحدا من أهل بيته بقرار سفره إلا في هذا اليوم الذي يجمع فيه حاجياته ويضعها في حقيبته؛ لم يُخبر ابنته أسيل لأنه لم يُكلِّمها منذ اليوم الذي أخبره فيه الطبيب أنها حامل، لا يدري لم رفض الحديث معها، لا عتابا ولا نُصحا، بل لا يدري لمَ يُحس بغضب في داخله وإن كان لا يُبديه، كيف يُبدي غضبا من تطبيق أحد أفراد أسرته لشيء يدعو الناس له دائما، أليس هو

من يدعو إلى التحرر من كل القيود؟ أليس هو من يدعو إلى علاقات حرة بين الجنسين ما دامت العلاقة برضاهما؟ إذن لمَ يشعر بغضب يتأجج يوما بعد آخر في قلبه ما دام فعل أسيل منسجما مع ما يدعو له، وما دام فعلها كان برضاها؟ ألم تخبرهم في ذلك اليوم الذي أنبأهم فيه الطبيب بحملها أنها فعلت ذلك طواعية، وأنها أرادت أن تعرف مكانتها عند أويس، فإن كان يريد منها فقط ما حصل عليه فسيتركها، أما إن كان حقا يحبها ويريدها زوجا له فلن يتركها بعدما حصل على ما يريد.

كاد حسام يومها أن يتفل على وجهها اشمئزازا من هذه الفكرة الغبية، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك، لم يُظهر امتعاضا أو غضبا رغم نظرات زوجه عفاف الملتهبة له، نظرات نارية كادت تقتلع قلبه من مكانه، كأنها تقول له، ها أنت قد وصلت إلى نتيجة أفعالك، ها هي نتيجة ما تدعو له تراها أمام عينيك وفي بيتك. خرج حينها من الصالة وتركهم في وجل وصمت إلا من دموع عفاف وبكائها. بعدها بيومين، وبعد أن وصله اتصال من شخص يعرفه، اعتزم السفر إلى الدار البيضاء في أقرب فرصة.

لم يُخبر كذلك عفاف بقراره هذا الذي اتخذه، ولم يخبرها عن سبب سفره، هي الآن واقفة مكتوفة الأيدي ترمقه في صمت

ووجل، أما هو فيجمع أمتعته في حقيبته دون اكتراث ولا كلام منه عن شيء يتعلق بهذا السفر.

ـ ما سبب هذا السفر المفاجئ يا حسام؟ أظن أن من حقي أن أعرف.

صاحت بعصبية بعد أن نفذ صبرها، أجابها ببرود.

ـ نعم من حقك أن تعرفي، سألتقي بشخصيات مهمة في الدار البيضاء، سآخذ إجازة راحة من متاعب العمل.

ـ كم سيدوم سفرك؟

ـ ثلاثة أشهر.

ـ ثلاثة أشهر!!

كانت عفاف تسأله بقلق وهو يجيب دون أن ينظر إلى وجهها، مشغول بترتيب أمتعته، ثلاثة أشهر! مدة طويلة جعل القلق يستبد في فؤادها، في لحظة توقف عما يقوم به، انتصب رأسا أمامها ينظر في وجهها.

ـ لا تقلقي، سأتصل بك دوما.

سأتصل بك! وإن كان حسام قد قالها بود إلا أنها استغربت من كلامه، كأن اتصاله بها كاف ليجعلها تسكت عن أسئلتها

المزعجة، أشاحت بوجهها عنه وهي ما تزال واقفة أمامه، ثم في لحظة نظرت إليه في حزم.

ـ ولمَ لا أذهب معك؟ ألسنا نملك شقة هناك، فيها سنقيم.

هبط بجذعه ليعود إلى ترتيب أمتعته بعد أن سمع منها طلبها وهو يقول في لامبالاة:

ـ لا داعي لذلك، لا داعي لذلك، ثم إن تلك الشقة باسم أسيل كما تعرفين.

ـ هل ستزور أمك؟

فاجأه سؤالها، جمد في مكانه مرتبكا، ثبت كصنم وعيناه متخشبتان على حقيبته، وحتى يُخفي الارتباك عاد إلى عمله وكأنه لم يسمع سؤالها، أغلق الحقيبة وحملها بيده، ودَّع زوجه وهمَّ بالخروج، وما إن لمست قدماه عتبة الباب حتى عاد بجذعه يخاطبها:

ـ عندي لك طلب أرجو أن تستجيبي له.

تسمرت عفاف مبهوتة في مكانها، أي طلب يقصده؟ حركت رأسها تستفسر عن طلبه، نظر أمام قدميه دون أن ينظر في وجهها ثم قال بخفوت واستحياء.

ـ أريد منك ألا تخرجي من البيت وحدك، وإن خرجت فلا تخرجي إلا بنقابك وبصحبة أسيل.

فر هاربا من نظراتها متوجها نحو سيارته التي حدد وجهتها، وجد في المقعد الذي بجانبه المسؤول رفيع المستوى في الدولة يجلس فيه، أو حارسه الشخصي كما يحب أن يصفه، لكن لمَ لا يقود به حارسه الشخصي؟ إذن وجهته الدار البيضاء، الدار البيضاء المدينة التي نشأ فيها، المدينة التي ترعرع فيها، هناك قضى ما يقارب أربعة عقود من حياته، وأسوأ عقد هو آخر عقد فيها، تلك السنوات العشر هي من دفعته للرحيل من الدار البيضاء إلى فاس.

ما زالت آخر الذكريات التي عاشها في مدينة صباه أمام عينيه، ما زال يتذكر تلك السنة، تلك السنة التي خرج فيها من السجن، سنة 2012، خرج من السجن وهو لا يُصدق نفسه أنه يتنفس الحرية، لا يُصدق نفسه أنه حقا خارج أسوار الزنازين، ينظر إلى شمس الناس بذهول، ينظر مد بصره، هل حقا بصره يرى كل هذه الحياة؟ أحقا يعيش ما يراه أم أنه في أحلامه؟ أرجو ألا يكون في حلم، كم ستكون خيبته عظيمة إن أفاق في اليوم التالي فوجد أنه ما زال في السجن، وأن هذا الخروج مجرد حلم جميل طاف بباله، لكنه تأكد أن ما يعيشه

حقيقة، وأنه في النور، وأنه ترك الظلام في السجن، لذا فعليه أن يُقاوم حتى يبقى في النور ولا يرجع إلى الظلام.

ما زالت كلمة القاضي ترن في أذنه وهو يسمعه ينطق حكمه عليه بما يُشبه المؤبد، سنوات عديدة لا فرق بينها وبين المؤبد، وهل سيعيش كل تلك السنوات لو قضاها في السجن، لابد أنه لو مكث فيه لخرجت جثته فقط، أو لخرج هرما وقد سقطت أهدابه على عينيه، أما وقد قُضي الأمر وتم إطلاق صراحه، فعليه أن يفعل كل شيء ليُرضي سجَّانيه، ليُثبت لهم ولهذا الرجل الجالس بجانبه أنه يستحق منهم المكافأة التي تصدقوا بها عليه عندما أخرجوه من السجن، وأول دليل يُثبت لهم به أنه يستحق مكافأتهم هو أن يُدخل والدته دار المسنين.

لم تنصرف سوى شهور قليلة بعد خروجه من السجن، وبالضبط في أواخر خريف 2012 إلا وقد كان أودع والدته مركز الوفاء لرعاية المسنين، ما زال يتذكر هذه اللحظات كأنه عاشها بالأمس فقط، بل كأنه يعيشها الآن، يُركبها خلفه في سيارته القديمة المهترئة، خلفه! لأن المقعد الأمامي شاغر، شاغر بالرجل الذي تعرَّف عليه حديثا، وسيَعرِف فيما بعد أن له أهمية في الدولة، والذي سيتحول فيما بعد في نظر حسام إلى حارسه الشخصي.

ـ أين تأخذني يا ولدي؟

ـ لا تسألي، اصمتي وستعلمين ذلك بعد قليل.

انخلع قلبها، أحقا هذا هو ولدها، أحقا هذا هو أبر أولادها بها قبل دخوله السجن؟ كانت ترتجف، تكاد تبكي، أما هو فكان صامتا يسوق سيارته كما يقودها الآن وهو صامت يُفكر، أوقف السيارة أمام مركز رعاية المسنين، فهمت الحاجة رحمة ماذا يٌخطط له ابنها.

ـ أتقرأ اسم هذا المركز يا ولدي؟ إنه مركز الوفاء، أهذا هو الوفاء الذي تريد أن تفي به لأمك؟ أهذا هو جزاء تربيتي لك؟

ومضت الحاجة رحمة تُذكره بكل مراحل حياته معها وهو ساكن أمام مِقوده لا يجسر أن ينظر إليها من المرآة التي أمامه، حدثته حينما حملته تسعة أشهر كرها ووضعته كرها ومشقة، ها هي الحاجة رحمة تضعه وقد كادت تموت لولا لطف الله بها، ها هي تحيطه بالثياب من كل جانب حتى لا يُحس بالبرد، تُخفض صدرها ليشرب من حليبها، أرضعته حولين كاملين، تفعل ذلك وقلبها غمره حبا وحنانا ورحمة عليه، كم أسهر ليلها وأقلق ضحاها، كم تحملت بكاءه صغيرا، تأخذه إلى المستشفى وهو الذي كانت تظهر عليه أعراض المرض في كل أسبوع،

ويكون أسبوعها عيدا إذا ما نسي المرض أن يزوره في ذلك الأسبوع.

وها هو حسام يكبر شيئا فشيئا أمام أنظار أمه رحمة، هي فرحة ومستبشرة عندما تراه يخطو أولى خطواته، يكبر الطفل أمام عيني أمه العطوف، وكلما زاد في العمر زادت محبتها له وحنانها عليه.

ها هي الحاجة رحمة تودعه وهو ذاهب إلى المدرسة، تُتبعه بدعوات الرِّضى والفلاَح، عاد من مدرسته، تحتضنه إلى صدرها شوقا إليه، إنها تحبه، تريد له كل الخير.

إنه في مرحلة المراهقة، معاند يغضب لأتفه الأسباب، يرفع صوته على أمه، لكن رغم ذلك ما تغير قلبها عليه ولا نفذ صبرها منه، ولا فترت من دعائها له، لأنها تعلم أن تربيتها لن تضيع سدى، وأن قلبها الحنون لن يسمح لها أن تتصرف معه بشدة رغم جرمه الكبير في حقها.

إنه في شبابه، سيسافر إلى دولة أخرى لإكمال دراسته في الجامعة، يُقَبِّل يد أمه وينصرف، تأثرت في هذه اللحظة تأثرا عظيما لأنها تودع من كان يعيش في أكنافها وبين عينيها ما يقارب عقدين من عمرها، تحرك القلب شوقا له وهو لا زال معها، أسبلت دموعا حارة على خدين طالما ألصقتهما بخدي

ولدها، تُفكر في أيام مضت عاشتها مع ولدها البار، تزيد دموعها انهمارا من عينيها، آه، كم هي قاسية هذه اللحظات على هذه الأم الحنون.

لم يمر على سفره سوى أيام وكأنها قرون، لم تصبر على فراقه، ترفع سماعة الهاتف لتسمع صوت حبيبها عساه يبرد لهيب نارٍ اكتوى به قلبها جرَّاء فراقه، وما إن سمعت صوته حتى ظنت أن السعادة ما خُلقت إلا لأجلها.

عاد الابن إلى مسقط رأسه وعادت معه أحلام يريد تحقيقها، يريد الزواج، آه لهذه الأم التي تريد السعادة لابنها، طلب منها أن تذهب معه لخطبة من يودُّ أن تكون زوجا له، عفاف، اختلط على الأم شعوران أحلاهما مر وأمرَّهما حلو، هل تُظهر الفرحة ليسعد الابن؟ فهو يريد السعادة الزوجية وهي تريد له السعادة أيضا، أم تظهر الحزن لأنها تظن أن امرأته ستبعد ابنها عنها؟ هذا الابن الذي سهرت على تربيته أعواما مديدة، لكنها لمَّا علمت من تكون عفاف ارتاحت لها، قالت له: "مبارك عليك"، نعم ستقولها، فكل أم حنون مثلها لن تقدم سعادتها على سعادة ابنها.

أصبحت الأم جدة بعد أن استقبل حسام مولودته الأولى إلى هذه الحياة، سماها أسيل.

كان حسام وهو في السيارة متوجها إلى الدار البيضاء تدمع عينه كما كانت تدمع عينه وهو واقف بسيارته أمام مركز الوفاء يستمع لأمه التي تتحدث، لم يقاطعها، لكنها توقفت عن الحديث ومضت تبكي بحرقة وتنتحب، لم يشفع لها كلامها، كان قلبه قاس، قاس جدا كوحش متوحش، ما الذي غيره بين ليلة وضحاها؟ أغرب من الخيال، تجمدت الدموع في مقلتيها عندما سمعته يقول لها:

ـ انزلي.

صمْتٌ مزعج، صمت مخيف، صمت أكثر ضجيجا من كل أصوات الدنيا.

ـ انزلي، انزلي.

نزلت وقد كادت تفقد عقلها، بل فقدته في تلك اللحظات، ولم تعد تدري من تكون، ومن يكون هذا الذي أتى بها إلى هنا، لكنها أرادت أن تختم هذه القصة الغريبة المحزنة بقولها له:

ـ اسمع بُني، لن تجد صدرا أحنّ عليك من صدري، أنا راضية عنك، فكن لأبنائك كما كنتُ لك.

ألقت الكلمات على أذنيه وترنحت تمشي متعثرة إلى باب مركز الوفاء لرعاية المسنين، أما هو فانطلق بسيارته لا يدري أين ذهب حينها، لكنه كان يدري أنه لم يذهب إلى مسكنه.

يكاد يصل إلى الدار البيضاء والدموع تنهار من عينيه، لا يدري لمَ يبكي؟ أليس هو من قرر كل شيء؟ هو من اختار أن يفعل ما فعله بأمه، لم يُجبره على ذلك أحد، كم بكت زوجه عفاف تلك الليلة عندما أخبرها بما فعله، لم تنم ليلتها بكاء، بل طلبت منه الطلاق، لكنه اختفى عن البيت لأيام ثم عاد إليها وكأن شيئا لم يكن، لم تتركه، ترجته أن يعيدها، قبلت أصابع قدميه، خيَّرته مرة أخرى بين إرجاع أمه أو تركِها للبيت، لكنه كان أصما أبكمَ لا قلب له، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

وصل إلى الدار البيضاء، رفض الذهاب إلى الشقة التي جعلها باسم ابنته أسيل، إذ فضل استئجار غرفة في فندق، فندق اختاره لغاية في نفسه. في الصباح كان قد حدد وجهته، مركز الوفاء لرعاية المسنين، دخل إلى قاعة الانتظار، جلس على كرسي ينتظرها، أما الحاجة رحمة فقد أخبروها بأن هناك زائرا يود رؤيتها، تساءلت مع نفسها من يكون الزائر؟ ظنت أن يكون وحيد، ومن غيْرُه، تصورت أي شخص قد يرغب في زيارتها، ولم تتصور أن يكون حسام، لم يأتها اسمه أو صورته

في بالها إطلاقا، أما حسام فكان يرتعد في موضعه، لا يدري لمَ كل هذا الذعر وارتجاف فرائصه. ها هي مقبلة على قاعة الزيارة تنظر في الجالسين عساها تلمح هذا الذي جاءها زائرا.

أووه على حالتها التي أصبحت عليها، لقد هرمت قرونا في سنوات، احدودب ظهرها كثيرا، ووديان من التجاعيد اليابسة تجري على وجهها، شفتاها تشققت وسقطت معظم الأسنان من فمها، عيناها تكادان تختفيان تحت جفونها، امرأة تهجم عليها السبعين سنة هجوما، بالأمس منذ ثلاث عشرة سنة عندما أودعها هذا المركز كانت امرأة قوية، بل كانت امرأة شابة، تعج بالحياة، واليوم يعج جسدها بالموت.

رأته، هل هو؟ أحقا هذا الذي أمامي هو ابني حسام، عفوا هو حسام؟ تُحملق فيه، تستكشف ملامحه، تنظر إليه بتركيز شديد، تقترب خطوات متعثرة مثل طفلة تتعلم المشي في أيامها الأولى، ما يختلف عن صورة الطفلة التي تخطو خطواتها الأولى هو عصاها التي ترتكز عليها وتجعلها مسندا لها في مشيها، وقد يكون من مآربها أن تضرب بها ولدها، اقتربت منه حتى لم يعد بينهما سوى مترين. وقف، نظر فيها بذهول، اقترب منها ليُقبِّل رأسها ويديها فأسرعت بخفة عجوز تجعل عصاها بينهما تمنعه من الاقتراب، ما زال عكازها في شكل أفقي يمنعه من الاقتراب، توقف في مكانه، ثم عاد ليجلس على

مقعده، انتبه إلى أنها ما زالت واقفة، كاد يتفوه، كاد يقول لها اجلسي، لكن أي وقاحة هذه لو فعلها، هل يُرحب بها في بيتها، أم هي التي يلزمها الآن أن تطرده من مسكنها، غير أنها لم تفعل، تنظر إليه وينظر إليها، لكن من يستطيع أن يُخلِّص قلوب الأمهات من الحنان والعطف والرحمة مهما فعل أولادهن بهن، رق قلبها فجلست في صمت لا تزيل عيناها عنه وكأنها تريد أن تعوضهما على كل السنوات التي كان بعيدا فيها عن مجال بصرها، ما زالت تشربه بنظرها، لم تشبع منه بعد، أهي نظرات رضى أم سخط؟

ـ لِمَ جئت؟

أخيرا تحدثتْ، لو لم تتحدث لفقد حسام وعيه، لتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، ليس ندما على ما اقترفه في حقها، لكن لأنها لحظات لم يستحملها.

ها هو السؤال قد طرحته، فبماذا يجيبها؟ ماذا يقول لها؟ ماذا عساه أن يتفوه به؟ وهل يُسعفه لسانه للحديث الآن؟ كل كلمة ستخرج من فمه هي عار قد يحمله معه إلى قبره، كل لفظة سيتلفظ بها هي سبة يستحقها أبد الدهر، السؤال معلق، الجواب سبة وعار، فماذا سيقول؟ ولمَ أتى إلى هنا بما أنه لا جواب له

على هذا السؤال الذي لا يُمكن ألا تسأله الحاجة رحمة؟ ألم يتوقعه؟

ـ جئتُ أطلب منكِ الصفح والغفران.

آالآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين؟ أين كنت كل هذه السنين؟ 13 سنة، 13 سنة يا حسام، لم تحس بتأنيب ضميرك لا في السنة الأولى، ولا في الثانية، بعد عقد من الزمن وثلاث سنوات تأتي لتطلب الصفح والغفران.

ـ مِن ماذا؟ مِن ماذا تطلب الصفح والغفران؟ ما الذي اقترفتَه في حقي حتى تطلب مني أن أعفو عنك منه؟

جواب أفظع من احتراق الجسد وصاحبه على قيد الحياة، لو أدخلتْ خنجرا في بطنك لكان أهون عليك من هذه القذائف التي أمطرتها على رأسك، لو سبتك وشتمتك لكان ذلك أحلى استقبال تستقبلك به، لكن أن تتعامل معك بهذا البرود فإنها تلقمك أحجارا لا تستطيع ابتلاعها.

ـ أمي أنت تعرفين كل شيء، وتعرفين ما فعلتُه في حقك.

أمي!! ومنذ متى كنتُ أمك؟ منذ متى عرفتَ أن لك أما؟ ومنذ متى حرمتَ نفسك من أن تتلفظ بهذه الكلمة، أم أنك اخترت لنفسك أما أخرى كأنك تختار زوجا مكان زوج؟ لو

كان بإمكانك أن تأتي بأمٍّ مكان أمٍّ لكان ذلك مفهوما، أمَّا أن تتخلى عنها ثم تأتي بعد كل هذه السنوات لتنطق باسمها فلن تسمح لك بذلك.

ـ ومتى اعتبرتُ ما فعلتَه في حقي ذنبا حتى أشملك بعفوي، أنا لم أأنبك، ولم أوبِّخك على شيء، فالصفح يحتاجه المُخطئ ممن أخطأ في حقه، أما أنا فلا أعتبر أنك أخطأت في حقي.

ويلك ما أقسى هذه الكلمات، بل اللكمات، ويحك ما أشد هذه الضربات، انتهت المفردات من قاموسك، انتهت العبارات من عقلك، أنت الحسام المهند الحاد الذي لا تنتهي الكلمات من فمه في كل محاضراته ولقاءاته، واليوم، واليوم لا تجد حرفا واحدا تعبر به عن مدى أساك وأسفك من بطشك وجرمك الذي ألحقته بأمك.

ـ جئتُ من أجل أن آخذك معي.

جئتَ من أجل أن تأخذني معك! هل تعي ما تقوله؟ هل تفهم معنى هذه الكلمات التي يلفظها لسانك الذي يشبه الأفعى؟ ثم هل جُملتك هذه خرجت بصيغة الأمر، أم الطلب، أم الالتماس، أم الرجاء، أم التوسل؟ لكن لا يهمني ما صيغة جملتك ولا قصدك منها، لأنك للأسف جئت متأخرا.

أجابتك عن طلبك، لكنها لم تجبك بالقول، أجابتك بالفعل، بصعوبة وقفت تتوكأ على عكازها وعلى المقعد الذي كانت جالسة عليه، أعطت لك ظهرها وانسحبت تجر قدميها، لا تسمع إلا دقات عكازها على الأرض، سمفونية تركتْها في أذنيك ستبقى عالقة في سمعك لسنوات طويلة، ترقبها في حسرة وندم وهي تبتعد عنك ولا تستطيع حتى أن تترجاها أن تلبي طلبك أو أن تعود لتجلس.

عدتَ إلى غرفتك في الفندق مهموما كئيبا وجلا، تبكي لا تعرف لم تبكي، قلبك مضطرب لا تعرف سبب اضطرابه، أمضيت أسبوعا لا تخرج من غرفتك إلا لحاجة رغم أن الشخص الذي جئت لرؤيته يقيم في الفندق نفسه، في غرفة لا تبعد كثيرا عن غرفتك، في كل يوم تتصل به وتؤجل الالتقاء به إلى اليوم الموالي، وكل يوم يأخذك إلى آخر.

بعد ذلك الأسبوع من التفكير والاضطراب العقلي، عنَّ لك أن تُقدم على خطوة أخرى، عمدتَ هذه المرة نحو جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، وقفت أمام باب إدارتها تخبط في بابها بأدبك المعهود.

ـ تفضل.

دخل حسام إلى مكتب إحسان، رمقته بتفحص، هذا الوجه تعرفه، سبق لها أن رأته، من يكون يا ترى؟ لمْ تزح بصرها الحائر عنه، فمها فاغر ترمقه بحيرة، وأخيرا تحدثتْ.

ـ هل سبق لك أن زرتني هنا في مكتبي؟

ـ نعم، زرتُك منذ أربع سنوات تقريبا، كنتُ جئتُ أسألك عن ابن أبي عائشة لو تذكرين؟

ـ نعم أتذكر ذلك الآن، وأخبرتُك حينها أنه غادر الميتم، لكن الآن ما سبب زيارتك؟

ـ السبب ذاته تقريبا، لكن سؤالي سيختلف عما جئتكِ أسألك عنه في المرة الأولى.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أعرف الاسم الذي اخترتم أن تسموه لابن أبي عائشة.

ـ أخبرني من تكون؟ وما صلة القرابة بينك وبينه؟ فالمعلومات التي في حوزتنا تبقى سرية ما دامت تتعلق بأفراد تكفلنا أو نتكفل بهم.

ـ أرجوك سيدة إحسان أخبريني بذلك، لم أعد أستحمل الجدال، أنا أمرُّ بحالة سيئة جدا، لا أستطيع أن أخبرك الآن بشيء، لذلك لا تجادليني، وأخبريني باسمه الذي سميتموه به.

ما بال هؤلاء هذه الأيام يأتون ليسألوا عن ابن أبي عائشة، ومن يكونون؟ نظرت إليه بإشفاق، بل نظرت إليه باحتقار، ثم رمت كلمتين على سمعه.

ـ سمَّيته وحيد.

ارتبك حسام في موضعه، كاد يسقط، بل مال بجذعه إلى الخلف كأنه سيسقط ومد يده يرتكز على الكرسي الذي بجانبه، كادت إحسان أن تخطو خطوات لتساعده، لكنها في لحظة أمرها عقلها بعدم التحرك من مكانها فأطاعته، أطاعته وهي تنظر إلى حسام بابتسامة ساخرة ماكرة كابتسامته.

خرج يجر رجليه جرا، وصل إلى غرفته في الفندق، ثم قرر عدم الخروج منها مرة أخرى، بعد أسبوع وصلته رسالة من الشخص الذي تواعد معه على اللقاء به، يقول فيها إنه إذا لم يحسم أمره ويأتي للقائه، فإنه سيقرر عدم الالتقاء به، حينها استجمع حسام قواه وضرب مع ذلك الشخص موعدا يجمعهما في مقهى بالقرب من الفندق.

وصل حسام ينتظر من تواعد معه، وإذا بها قادمة نحوه.

ـ أهلا بك بثينة، أقسمُ أني مُقصر في حقك.

وقف لمصافحتها، لكنها مدت يدها لتوقفه عن الاقتراب منها لا لتصافحه.

ـ قف مكانك، لا تصافحني.

عاد حسام ليجلس مكانه، جلست هي الأخرى تقول بغضب:

ـ طلبتَ مني رؤيتي منذ ثلاثة أسابيع، وفي كل يوم تعتذر وتؤجل، هل تظن أني لعبة في يدك تلعب بها كيفما شئت؟

ـ لقد اعتذرتُ منك بثينة، يلزمك أن تقدري الظروف التي أمر بها.

ـ أنت من وضعت نفسك في تلك الظروف، فكيف تريد مني أن أقدِّرها؟

ـ ما زلتِ قاسية كما كنتِ.

ـ أنت كاذب، لم أكن يوما قاسية بهذا الشكل، أنت من جعلني بهذه القسوة، بل أنا رؤوفة معك بالمقارنة مع ما جنيته في حقي.

ـ انسي الأمر الآن.

ـ لا يمكن أن أنسى يا حسام، لا يمكن أن أنسى.

سكت حسام عن الكلام، ثم أطفأت هي الأخرى الكلام وأشعلت الصمت، وقد أشاحت ببصرها بعيدا، ثم عادت به لتسأله.

ـ كيف حال أمك؟ قلتَ إنك زرتها في دار المسنين أيها العاق.

ـ يكفي هذا يا بثينة، يكفي.

ـ لا تصرخ في وجهي أيها الحقير وإلا علمتك درسا لن تنساه.

ابتلع حسام غضبه وشرب عليه الصمت، ثم بعد لحظة قال:

ـ أنا أعلم أين يتواجد الشخص الذي جئتِ تسألين عنه.

انتفضت بثينة في مكانها، نظرت إلى حسام بعينين زائغتين، ارتعشت يداها.

ـ حسام لا تمزح معي، قلبي لا يحتمل، هل تعرف أين يوجد وحيد؟ أتعرف أين يوجد حقا؟ سألتُ عنه في جمعية الإحسان فأخبروني أنه غادر ميتمها.

ـ نعم أعلم أين يوجد وحيد يا بثينة.

*****

(20)

يقولون إن مِن الحب ما قتل، هذه حقيقة يشهد عليها تاريخ العشاق، لكن ليس أقصى ما يمكن أن يوصل له الحب هو القتل فقط، القتل صراح لروح المحبوب المعذبة، القتل راحة له، الحب قد يقتل، لكنه كذلك قد يُفقد العقل الذي كان يفكر به المُحب في محبوبه، فيعيش حينها حياة مهبولة، قد يُفقد الإنسان الأمان في مجتمعه، قد يُفقد الناس الثقة في بعضهم البعض، لكن ليس الحب من يَقتل، القاتل هو من يقتل نفسه عندما لا يفهم حقيقة الحب، فمن يحسب أن الحب هو امتلاكُ المحبوب، وإذا لم يمتلكه فإنه سيكون على شفا حفرة من الموت، فهذا قاتل نفسه، فكم من شخص أراد امتلاك محبوبه، فلم يستطع ذلك فاختار قتل نفسه، يقتلها حقيقة، ويقتلها مجازا.

أسيل لعلها على بعد خطوات من قتل نفسها، أويس على بعد سنة ضوئية من ذلك، أويس حصل على ما كان يريده، أويس امتلك المحبوب، وبعد امتلاكه لم يبق للحب معنى بالنسبة له، فالحب هو الجسد في ثقافته، وإن حصل على الجسد بحث عن

جسد آخر، أما أسيل فمعنى الحب عندها هو وجوب بقاء هذا الحب وإن حصل أحدهما على جسد الآخر، الحب بالنسبة لها يسمو على الجسد، لذلك مكَّنت نفسها من أويس وهي تخال أن له تفكيرها نفسه.

مضى أكثر من أسبوعين وأسيل لا تخرج من غرفتها، أغلقت عليها بابها، بللت كل الوسائد المتواجدة في غرفتها بدموعها، منذ أكثر من أسبوعين وهي تتصل بأويس ولا يجيبها، غيَّر شريحة رقمه، قبْل ذلك بحثت عنه في الجامعة ولم تجده، ذهبت إلى شقته حيث يسكن فأخبرها صاحب الشقة أنه منحه أجرة استئجاره للشقة ولم يعد يقيم فيها، قامت بكل الوسائل للتواصل معه ولم تستطع، بل صادفت في إحدى المرات صديقته الجديدة التي لم يعد يفترق عنها كما أخبروها، سألتها عنه فأجابتها أنه لم يعد يحبها، وأنه يطلب منها أن تدعه وشأنه، فالحب مقادير كونية، والكون لم يُقدِّر لهما استئناف هذه العلاقة، بل أرسل لها في إحدى المرات رسالة أخيرة يقول لها فيها، بل يترجاها أن تنساه، ماذا سيفعل؟ لم يعد يُحبها، يحاول ذلك لكن دون جدوى!

ولمَّا استيأست منه خلصت نجيا مع نفسها، دخلت في نوبة بكاء وانهيار تام، اعتزلتهم في غرفتها تبكي بكاء مرا، هل بعد

أن حصل على ما يريد تخلى عني؟ لماذا هو متوحش بهذا الشكل؟ لماذا هو ذئب بشع بهذه القذارة؟

عشرات المرات، بل مئات المرات، تطرق عليها عفاف الباب لترى ما بها، لتساندها، لترفع من معنوياتها، لكن أبت أن تفتح لها الباب.

ـ أسيل أرجوك افتحي الباب، قلبي يتمزق عليك، أرجوك هو لا يستحقك.

لكن لا مجيب، لا تسمع إلا انتحابها وخوارها كخوار الثور المذبوح، أصبحت خفاشا لا تخرج إلا ليلا لتقضي حاجاتها، وتأكل ما يجعل روحها لا تغادر جسدها، لا تأكل إلا ما يحافظ على رمقها.

بعد ثلاثة أسابيع، ولأول مرة تخرج في وقت الظهيرة لتتناول الغذاء مع أمها، فرحت أمها بذلك فرحا جعلها تطير من السعادة، تُحدثها، تُرضيها، تطبطب على خاطرها، لكن الأخرى، لا ترد إلا بكلمة أو كلمتين؛ نعم، لا.

انتقلت عفاف معها إلا خطة ثانية، كان وحيد في غرفته عندما طرقت عليه بابه، فتح وحيد ليتفاجأ بوجود السيدة عفاف قُبالته رأسا، نظر إليها مندهشا، أخرجته من صمته، تحدثت كثيرا، تكلمت كلاما منه ما فهمه، ومنه ما لم يفهمه، تركها

تفرغ ما أثقل على جوفها، يحرك رأسه موافقا على كلامها فقط، كل هذا مع عتبة الباب التي كانت سدا بينهما.

ـ أنت تعرف ما حل بأسيل من انطوائية واكتئاب، أخاف أن تصاب بحمق أو جنون، أريدك أن تخرج معها في كل يوم للتنزه والتجوال، لا أثق في أحد غيرك، سأعترف لك أني أعتبر وجود شاب وفتاة في خلوة مع بعضهما البعض معصية، لكن أرى هذا أقل الضررين، أرجوك أخرج بها إلى الحدائق والمنتزهات، لعل روحها تعود إليها.

سمَيتَ كل السمو يا وحيد، مراق كثيرة تعلوها، شموخ بعد شموخ، أنت اليتيم المتشرد البشع يُطلب منك الآن أن تكون بجانب ابنة مفكر عظيم بلغت شهرته الآفاق، أنت من كنت تأكل من القمامة يُستعان بك لتكون رفقة أسيل، أنت من بِت ليالي متعددة تحت الجسور وعلى الأرصفة باتت لك منزلة ورفعة، وهكذا الأيام، تلك الأيام نداولها بين الناس.

وتمضي إلى غرفة أسيل، وتطرق بابها بلطف، وتفتح لك فتجدها أصبحت كوحش كان في سبات شتوي، انطفأت نضارتها، اختفى جمالها، زارها السواد بكثافة على وجهها، أحاطتها هالة من السواد تحت عينيها من كثرة البكاء، أفزعتك حالتها، حاولت ألا تُظهر ارتباكك.

ـ أسيل أريد أن أدعوك للتجوال بعد صلاة العصر.

نظرت إليك نظرات زائغة، نظرات تشي بأنها لم تفهم شيئا مما تقوله، أو لم تفهم مناسبة هذه الدعوة، لم تجبك بشيء.

ـ أسيل لقد طال مكوثك في غرفتك، لذلك أريد اصطحابك للتمشي قليلا، إذا طال مكوثك أكثر ستتحدث قدماك معك بالليل، وستطلبان منك أن تمكنِيهما من المشي أو سيهربان عنك ويتركانك وحدك.

ابتسمتَ بعد أن مازحتها، ابتسمتْ لمزاحك، ألفيتها تفكر، هل ستوافق؟ ما زالت تضع سبابتها مقوسة تحت شفتيها السفلى تفكر.

ـ حسنا يا وحيد، بعد العصر مع بوابة الفيلا.

وتخرجان، أول مرة تخرج مع فتاة للتنزه، أول مرة تكون في صحبة فتاة، لن تتلعثم في الحديث، لأنك لا تفهم شيئا عن اللقاءات الأولى للمحبين، لأنك لا تفهم شيئا عن الحب، بل لا تفهم معنى الحب أصلا، لأنك لا تصطنع حديثا، لأنك تتحدث معها كأنك تتحدث مع أمك رحمة أو مع جوري أو مع عفاف، من يراكما تتحدثان وتضحكان سيجزم أن بينكما أسرارا وخبايا، وكلاما في السر وآخر في العلن، لكنك لا تفهم شيئا من ذلك، لذلك تبقى على سجيتك.

لم تتجولا في اليوم الأول إلا بعض التجول، عدتما باكرا، اتفقتما أن تخرجا في كل يوم، وفي كل يوم تُحددان وجهة توليانهما وجهيكما. هكذا أصبحتَ في كل يوم وفي ميعاد محدد تخرج مع أسيل، زرتما حدائق فاس التي لم تزرها من قبل، قَدِمتما على حدائق للحيوانات، توقفتَ برهة تُفكر أين رأيت هذه الحديقة، اعتصرت عقلك لتكتشف أنك لم تزرها يوما، لكنك عندما كنت متشردا تخيَّلت أنك مع أبي عائشة وأمك وأختك عائشة في حديقة للحيوانات، فظننت أنك زرتها من قبل، وحتى تحقق ذلك الحلم كاملا كما كنت تتخيله، طلبت من أسيل التوجه بك إلى مدينة الألعاب. لعبتما واستمتعتما وقتا طويلا.

في الأيام التالية تجولتما في كل شبر من أشبار فاس، زرتما مآثرها ومعالمها التاريخية العريقة، دخلتما مسجد القرويين الذي لم تطأ قدماك ساحته يوما، لا تعرف من يصاحب الآخر، هل أنت تصاحبها، أم هي التي تصاحبك؟ بل هي التي تَصْحبك لتُعرِّفك على مآثر مدينتها، فقد صدق قولها عندما قالت لك إنها ملزمة بأن تكون مرشدتك السياحية، وها هي الآن مرشدتك حقا؛ جامع القرويين بُني بأمر من فاطمة الفهرية عام 245 هـ، به 17 بابا، وقد أضيفت إليه الكثير من التطورات فيما بعد، ومسجد الأندلسيين بُني بأمر من مريم أخت فاطمة

الفهرية، وهذه أسوار فاس البالي التي تعود إلى حكم الناصر الموحدي وهي من المعالم المهمة في مدينتي، ناهيك عن المدرسة البوعنانية التي أسسها السلطان أبو عنان المريني. مدرسة العطارين رغم صغر حجمها إلا أنها جميلة بزخارفها الإبداعية المختلفة والفريدة، هذه فاس البالي يوجد بها بيوت قديمة وأزقة ضيقة وملتوية، بها 10 آلاف بناية قديمة يا وحيد.

وهذه مدارس فاس التقليدية تعكس العبقرية العمرانية لحرفيها؛ هذه مدرسة الصهريج، وهذه قصورها؛ هذا القصر السلطاني، وهذا قصر دار البطحاء، وهذه بروجها القديمة؛ هذا البرج الشمالي، وهذه زواياها، وهذه حماماتها، وهذا فندق وسقاية النجارين، هذا باب الجلود وهو أحدث أبواب المدينة بتصميم فريد كما ترى، وهذه أسواقها؛ هذا سوق الصباغين يتلون بلاطه بألوان متعددة نتيجة قيام الصباغين بغسل الجلود في أحواض صغيرة، وهذه مدابغ الجلود.

تصعد سلالمها لتصل إلى السطح، تُلقي نظرة على أحواض الصبغ التي يعود إنشاؤها إلى قرون خلت، أزعجتك روائحها ولم تحتملها ففررت هاربا، وأسيل تضحك مسرورة بما أصابك.

تأخذك لتنتشي بجمال فاس وطبيعتها، هذا سهل سايس الغني بمناظره الطبيعية وخيراته الفلاحية، هذا سهل سيدي حرازم بمائه العذب، وهذا، وهذا، وهذا، الأسبوع الأول، الأسبوع الثاني، الأسبوع الثالث، الشهر الأول، الشهر الثاني.

أيام وأسابيع وأنت لا تفارق أسيل، أو أنها لا تفارقك، انزاحت كل الحواجز التي كانت بينكما، أصبحتَ تتحدث معها بعفوية، أصبحتْ تحكي لك كل ما في خاطرها، تقص عليك شجونها، لا تفارقك إلا قليلا، أنت في عملك هي فوق رأسك، تأتيك بوجبات أكلك إلى غرفتك وتنصرف على مضض لِمَا ترى مِن امتعاضك لوقوفها في غرفتك، تطلب منك الخروج في كل أيام الأسبوع بعد انتهائك من عملك في الحديقة، من أنت؟ أنت مجرد يتيم متشرد، أنت غير وسيم وشعرك متجعد، فلم كل هذا الاهتمام بك؟ لم كل هذا الاقتراب الشديد منك؟ لا تأبه أنت لذلك، لا تسأل القدر إذا ابتسم لك لم ابتسمت لي، ربما لأنها وحيدة، ربما لأنها تخلت عن أصدقائها فجعلتك صديقا لها، ربما، وربما، لكن وإن لم تجرب صداقة فتاة مِن قبل، فتكاد تجزم أن قربها منك بهذا الشكل أمر مبالغ فيه، اشترت لك هاتفا جديدا، تُعبئ لك بطاقات الاتصال ثم تسهر معك ليلا تتحدث معك عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

ارتبكتَ تلك الليلة عندما قالت لك أنت إنسان رائع تصلح أن تكون زوجا وفيا لفتاة تستحقك، لا تدري ماذا كانت تقصد، لكنك تغابيت عن فهم معنى كلامها، لمْ تجرب الحب يوما، لكن ما تراه الآن هو باب من أبواب الحب، تجزم أنه باب من أوابه، لم يكن قصدك وأنت تخرج معها أن تكون بينكما علاقة حب، وليست بينكما علاقة حب الآن، لكن ما ترمي إليه من كلامها وتصرفاتها توحي أنها على استعداد للإفصاح عن أمر في قلبها.

وهذا ما حصل فعلا، عبأتْ لك شريحة هاتفك المتنقل وطلبت منك أن تبقى مستيقظا حتى تتحدث معك عندما يسجى الليل، وفي الليل أحسست أن الكلمات بدأت تتجاوز أمرها الطبيعي، بدأت جرأتها تطفو فوق سطح الكلمات، فكأنك تسمع شيئا من الغزل والتغنج، ما يقارب ثلاثة أشهر وأنت في صحبتها لم تكن تدرك ذلك التدرج في معاملتها لك إلا اليوم بعد أن أصبح التلميح شبه تصريح، ألا زلتَ تريد أن تبدو مغفلا؟ هل ستستمر في لعبة الاختفاء هذه؟

ـ أسيل أرجوك لا يليق بنا أن نتحدث بهذا الشكل.

ـ لكني تعلقت بك يا وحيد، أقسم أني أصبحت أحبك.

ـ ثم ماذا بعد، الحب عذاب يا أسيل.

ـ الحب عذاب إذا لم ينته بالزواج.

إذن فهمتَ قصدها، تريدك زوجا لها، أسيل بنت المفكر حسام تريد الزواج من وحيد اليتيم المتشرد، هل يحلم؟ هل ما يسمعه حقيقة؟

وتسكت، لا ترد عليها بشيء، تشك في أن المتحدثة هي أسيل، ثم تعدها أنك ستتحدث معها في هذا الأمر صباحا بشكل مباشر وواضح.

وتأتي إليك في الغد وتأخذك لمقهى فاخر، تجلس في مقهى لم تجلس في مثله من قبل، تطلب منك أن تختار ما تشربه، من الرجل فيكم؟ ثم تفاجئك بعد أن استمر صمتكما.

ـ ماذا قررت يا وحيد؟

ترتبك، تتنحنح، بماذا تجيب؟ هل تقول ماذا تقصدين؟ أنت تفهم قصدها.

ـ هل فكرتِ في هذا الأمر جيدا يا أسيل؟

ـ نعم فكرت فيه جيدا، أنا مقتنعة بك زوجا لي، أنت إنسان وفيٌّ يا وحيد، كل من عرفتهم كانوا ذئابا، لكنك إنسان طيب ووفي، وأنا متأكدة أني سأكون سعيدة معك.

ـ ووالداك هل سيقبلان بهذا الزواج.

ـ لا شأن لوالدي بحياتي، أنا أختار ما أريد، وأرفض ما لا أريد، فأبي مَن علمني هذه القيم، ثم أبي لا يرد لي طلبا.

وتقول بصعوبة بعد شهيق وزفير:

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنا موافق.

موافق على ماذا يا رجل؟ موافق على خطبة البنت لك، حتى لو عشتَ يتيما فلا يجب أن يخفى عليك أن الرجل من يخطب الفتاة لا العكس، لكن كيف ترفض؟ كيف ترفض عرض زواج من بنتٍ وأنت لم تحس بهذا الشعور مِن قبل؟ كيف تُفلت الفرصة من يديك؟ لمْ تُحب يوما في حياتك، لمْ تجرب هذا الشعور من قبل، لن ترفض لأنك تحتاج لمن يُحبك وتحبه، تحتاج لمن يهتم بك وتهتم به، قلبك فارغ من الحب لذلك وافقت.

أما هي، أما أسيل، هل تحبك حقا؟ هل حقا تشعر بهذا الشعور اتجاهك، هل تبحث عن الروح فيك؟ أم أنها تريد تعويض النقص العاطفي الذي أصابها بعد مغادرة أويس، بعد انهيار علاقتها معه؟ أكيد أنها تريد تعويضا عن الخلل الذي أصاب عاطفتها فأوهمها عقلها الباطني أنها تحبك، لابد أنها تحتاج شخصا بجانبها توهم به عقلها أن الأمور بخير ولم يتغير شيء، وما أدراك بعد زواجها بك أن تستيقظ من غفلتها وتندم

على مصارحتك بسراب الحب، هو مجرد سراب وسحابة قد تنقشع، بل ستنقشع، لكن لا يهمك ذلك بتاتا، فأنت أيضا تحتاج إلى مَن تكون شريكة لك في حياتك، لذلك فلتفعل الأيام ما تشاء.

ـ عيد ميلادي قريب يا وحيد، سأجعل هذا الخبر مفاجأة لهم في ليلة الاحتفال بعيد ميلادي.

تفيق من شرودك فتجدها ما تزال تتحدث بحماس عن الزواج، لكن حان الوقت لكي تكون رجلا لا تابعا.

وتشترط شروطك، نعم أنت وحيد المتشرد تشترط شروطا، طلبتَ منها أن تتخلى عن شيء اسمه صداقة الشباب بعد زواجكما، وألا تدعو أي شخص منهم لحفلة عيد ميلادها، فأنت تتقزز من ذلك الرقص الماجن الذي تراه في حفلاتها، ولا تحب حضور الخمر على طاولة الحفلة، وتشترط وتشترط كأنك تريد أن تغير طباعها بين لحظة وأخرى، تشترط أن تكون علاقتكما عفيفة، وماذا تقصد بالعفاف؟ لا تدري، وتفاجئك بموافقتها على كل شروطك.

*****

(21)

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، تجري حياة الناس بما لا تشتهي أنفسهم، تَحدُثُ لهم أحداث تبعثر قراراتهم وتوقعاتهم، كم من حلم عاش المرء يبني فيه شهورا وسنينا ليستيقظ في يوم من تلك الأيام التي يُسميها بالمشؤومة ليجده انهار على رأسه كناطحة سحاب وأصبح ركاما بفعل حدث لم يتصوره ولم يتوقع حدوثه، تعيش زمانا وأنت تبني فينهدم بناؤك بما لا تتوقعه، وأشنع من ذلك أن ينهدم على رأسك فيرديك قتيلا.

ثلاثة أشهر وحسام في الدار البيضاء يتجرع غصة في حلقه لا يعلم سببها، سافر إلى هناك لعله يستعيد روحه الميتة وتعود إليه نفسه مبتهجة مسرورة، وإذا به يلجأ إلى قبره، أقْبَر نفسه في غرفة الفندق أحيانا، وفي شقة ابنته أحيانا، لا يخرج منهما إلا إليهما، يفكر في ابنته أسيل التي سيراها الآن بعد عودته إلى فاس ببطن منتفخة، يفكر في امرأته التي يخونها، لا، لا يخونها، ليست خيانة، بل من حقه فعل ما يريد ما دام الأمر لا يُعتبر اغتصابا، يُفكر في أمه التي رآها على حافة القبر، هرمت بشكل مريع، يُفكر في وحيد ابن أبي عائشة، يفكر في

حياته التي تتردى فيزيد من إقبار نفسه في غرفته، أشهر بئيسة عاشها في الدار البيضاء كسنوات بؤسه مِن قبلُ فيها، لا يدري لم هذه المدينة لا تذكره إلا بالبؤس، ولا يعيش فيها غير البؤس.

حتى بثينة التي جاء خصيصا لرؤيتها والخروج معها رفضت الخروج معه بعد أن علمت ما يدور في رأسه، غادرت الدار البيضاء تزور عدة مدن مغربية وترفض العودة في القريب العاجل إلى باريس لعلها تتخلص من عجرفة زوجها الفرنسي، فها هي في طنجة، وها هي في تطوان، وها هي زارت عدة مدن في الشمال والداخل، وترفض الرد على اتصالات حسام، كيف ترد على اتصالاته وهو شخص لئيم يحب ذاته فقط؟ شخص دنيء يساومها على أبسط الأمور، ترجته أن يُخبرها بالمسكن الذي يسكن فيه وحيد فأبى ذلك إلا بشرط، وشروطه تعرفها لذلك صفعته بحقيبتها وانصرفت من المقهى حيث كانا جالسين في أول لقاء لهما، وبعد أن اتصل بها في المرات الأخرى يعدها أنه سيخبرها بمكان إقامة وحيد، وما عليها إلا الالتقاء به، أخبرته أنها تركت الدار البيضاء، انخلع قلبه ظنا منه أنها رحلت إلى فرنسا، لكنها طمأنته أنها متواجدة بالمغرب في مدينة أخرى غير الدار البيضاء، لذلك حفر حفرة في غرفته على سريره واستلقى فيها ينتظر عودتها لعله يخرج للفسحة معها، لعله ينسى كآبته واسوداد قلبه والظلام الذي

يُعشعش في نفسه، والضيق الذي يُحس به في صدره، لكنها ترفض الاجتماع به حتى يُخبرها أين يقيم وحيد.

ها هو الآن في غرفته في الفندق وقد بلغ منه التبرم والجزع مبلغه، متردد في الاتصال بها، يرفع هاتفه المحمول ليتصل بها ثم يضعه، ما به متعلق بها إلى هذه الدرجة؟ وهل ينساها؟ هل ينسى أيامه معها؟ هل ينسى حبَّهَا له، كانت شديدة التعلق به، كانت تريده زوجا لها، لكنه مخادع ومغرور لذلك الآن تبغضه، يعلم أنها تبغضه، بل تقولها له، لا يجسر أحد على وصفه بالحقير وبأقبح النعوت غيرها، هي تفعل ذلك، تصرخ بها في وجهه. آه من رجل متزوج في الخمسين ولا زال مراهقا يتألم قلبه على امرأة متزوجة تُبغضه ولا تطيق النظر في وجهه.

قرر الاتصال بها، ضغط على زر الاتصال في هاتفه المحمول، وضعه على أذنه، يأتيه صوتها.

ـ ألم تسأم بعد مِن الاتصال بي يا حسام؟

ـ بثينة، أنا منذ ثلاثة أشهر هنا في الدار البيضاء من أجلك فقط، تركت زوجي وابنتي من أجلك وأنت ما زلت تصرين على ركوب عنادك.

ـ اذهب إلى زوجكَ يا رجل واتركني عنك.

ـ أعدك أنك إذا جئت لِأراك سأخبرك بمسكن وحيد.

ـ وبدون شروطك المقززة.

ـ بدون شروط.

أخيرا التقت به في المقهى ذاته الذي انصرفت منه وتركته جالسا فيه منذ ثلاثة أشهر، يراها كبدر منير طلعت عليه، لا زال يحمل قلب مراهق.

ـ لا تظن أن ما دفعني لتلبية دعوتك هو رغبتي في معرفة المستقر الذي استقر فيه وحيد، فلو شئت معرفة ذلك لاتصلت به وسألته عن ذلك، فرقمه في حوزتي.

ارتبك حسام بعض الارتباك ثم ابتسم ابتسامته الماكرة.

ـ وما الذي دفعك لتلبية دعوتي.

ـ إشفاقي عليك أيها المأفون، أنا أعلم أنك تتألم لمجرد عدم رؤيتك لي، لذلك عندما قررتُ زيارة المغرب أخبرتُك بمجيئي.

ـ وهل ما زال لك قلب يشفق؟

ـ أنت شيطان في صورة إنسان، اصمت وإلا تفلت على وجهك، لا تذكرني بما يجرح قلبي أيها الوغد الحقير.

أسر حسام في قلبه هذه الغصة ولم يبدها لها، كأنها لا تعلم منزلته بين الناس إذ لا تكف عن مخاطبته بتلك الطريقة، بل تعلم مكانته بينهم، لكنها في الوقت ذاته تعلم قدره الحقيقي، فهو مجرد فأر جبان، بعد صمت صاحت بنفاذ صبر:

ـ هل يمكنك أن تخبرني أين يتواجد وحيد أم أتصل به لأعرف؟

ـ وحيد مقيم عندي في الفيلا.

اضطربت بثينة، اندفعت بكرسيها إلى الخلف حتى كادت تسقط، تغضنت ملامحها بقلق ودهشة، اجتمعت كل الأحاسيس المتنوعة والمختلفة في وجهها، وقف حسام يريد أن يمسك بها حتى لا تسقط فسحبت يدها منه بعنف، لم يفهم حسام لم جزعت كل هذا الجزع، تمتمت في سرها تقول وهي تثقبه ببصرها دون أن تزيحه عنه، "كأني كنت أعرف ذلك".

ـ ما بك يا بثينة؟ ما الذي أزعجك في تواجده معي في البيت؟

ـ لمَ جئت به إلى بيتك ولم تخبرني بذلك أيها الحقير؟

ـ أنا لم آت به، التقت به أسيل صدفة هنا في الدار البيضاء، كان قد ساعدها في شيء ما فجاءت به ليشتغل في البستان.

ـ وكيف تعرَّفَتْ عليه؟

ـ هي لا تعرفه، التقت به صدفة فقط.

ـ وكيف تعرَّفْتَ عليه وتعرَّفَ عليك؟

ـ هو لا يعرفني، وأنا لم أكن أعرفه حتى سألتُ مديرة الجمعية عن اسمه.

ـ مستحيل! هو يعرفك.

ـ كيف سيعرفني يا بثينة؟ هل جننتِ؟

ـ نعم يعرفك، لقد أخبرتُه عنكَ مِن قبل.

وقف حسام عن كرسيه بغضب ظاهر وسط نظرات مرتادي المقهى ينظرون إلى صراخه، وهو غير مكترث بهم.

ـ متى تحدثت معه ولم تخبريني بذلك؟ إذن أنتِ من كنتِ تعرفينه.

طلبتْ منه بصوت خفيض أن يجلس ويهدأ، تلفتت يمنة ويسرة إلى الأعين التي تنهشهما، ثم شرعت بعد أن جلس لتخبره بما أغضبه.

منذ أكثر من ست سنوات جاءت من فرنسا إلى المغرب تقصد جمعية الإحسان لرعاية الأيتام، جاءت بعد أن أخبرها حسام أخيرا بأن ابن أبي عائشة وضعه أبوه في ميتم هذه الجمعية، فجاءت تبحث عنه، كيف لا تأتي وهي كانت تترجى

حسام لسبع سنوات أن يخبرها عن مقر تواجد ابن أبي عائشة؟ ولما أخبرها سنة 2020 بأنه يتواجد بجمعية الإحسان، جاءت مسرعة لتلتقي به وتراه.

صادف مجيئها تنظيم الجمعية لحفلة أعدت خصيصا للأيتام، حفلة تتخللها مسابقات في التعبير والكتابة، جلست في الصف الثالث مع الجالسين تشاهد على المنصة صعود بعض الأيتام لتُقدَّم الجوائز لهم، فيُعلن مقدم برنامج الحفلة عن الفائزين.

ـ الفائز الأول في مسابقة التعبير والكتابة هو وحيد.

صفق الجمهور وصفقت لتصفيقهم، لكن ذلك الفتى الذي حصل على الجائزة أحست بشيء ما يجذبها نحوه، أحست به في كيانها، بعد انتهاء الحفلة اتصلت على الرقم المخصص للإدارة.

ـ سيدتي أريد أن أسألك، ابن مَن ذلك الفتى الذي حصل على الجائزة؟

أجابتها مديرة الجمعية.

ـ من تقصدين؟

ـ أقصد وحيد، ابن من؟

ـ لحظة من فضلك... جاء به رجل يدعى أبا عائشة.

شكرتها وقطعت الخط، إذن إحساسها كان في محله، حري بها أن تتواصل مع ذلك الفتى، بعد أسبوع من ذلك قدِمت جمعية خيرية توزع الثياب والهدايا على الأيتام فقدِمت معهم، اشترت ثيابا جميلة ونادت على وحيد، انزوت جالسة معه في زاوية قصية.

ـ هل أعجبتك هذه الملابس؟

ـ نعم كثيرا سيدتي شكرا لك.

ـ أريد أن أخبرك بأمر مهم يجب أن يبقى بيننا سرا في الوقت الراهن.

ـ أخبريني سيدتي.

ـ أولا لا تناديني بسيدتي، أنا اسمي بثينة، اسمع جيدا، واحفظ ما سأقوله لك.

أخبرتْه أن عليه مغادرة الميتم للبحث عن شخص اسمه حسام، حسام هذا يتواجد في فاس، ما عليه أن يفعل هو أن يُخبره عندما يجده أنه ابن أبي عائشة، وأن بثينة مَن أرسلتْه إليه، فعندما سيخبره بذلك وسيسمع منه اسم بثينة واسم أبي عائشة سيتعرف عليه وسيُعَرِّفه بمن يكون وبمن تكون بثينة أيضا.

كان حسام يستمع إلى بثينة في حيرة وذهول، يتمتم، مستحيل، مستحيل.

ـ ما المستحيل في الأمر يا حسام؟

ـ كيف أخبرتِه بذلك ولم يتحدث معي يوما في هذا الموضوع، يقطن في بيتي منذ سنوات ولم يجرؤ على الحديث بما أخبرتِه به.

استغربت بثينة أيضا، لمَ لمْ يُخبر وحيد حسام بما طلبته منه بعد أن وجده؟ لابد أن في الأمر ما خفي عنهما. استأذنت من حسام أن تتصل به لتستقصي أخباره، وافق وهو شارد في غيبوبته، ثم انتبه إليها بعد أن رآها ترفع هاتفها المحمول وتتصل به، جعل أذنيه كرادار يلتقط بهما ما يمكنه أن يسمعه من حوار.

ـ مرحبا من معي؟

ـ أنت وحيد؟

ـ نعم أنا هو، من المتصل؟

سألتْه عن حاله وكيف هو، أجابها أنه في أحسن حال، ارتاحت لذلك واطمأن قلبها.

ـ وحيد أنا بثينة التي تحدثت معك منذ أكثر من ست سنوات، أتتذكرني؟

ـ بثينة! لا سيدتي، لم يسبق لي أن عرفت امرأة بهذا الاسم.

ـ وحيد، قبل خروجك من الميتم جئتك بملابس جديدة في الميتم، أخبرتك بسر، أخبرتك أن تبحث عن رجل وتخبره بأن بثينة أرسلتك إليه، وأنك ابن أبي عائشة.

انتفض وحيد في فراشه مع خفقان قلبه، ثم قال بقلق وذعر:

ـ لا أتذكرك سيدتي، لكن أتعرفين أبي أبا عائشة؟ إني أبحث عنه منذ خروجي من الميتم، منذ سنوات، سيدتي تعبت من البحث عنه، إن كنت تعرفينه أخبريني أين يتواجد؟

شهقت بثينة، وكان حسام يسمع كل حوارهما، أحست بدموع تنزل حارة على خديها، بكت في صمت والهاتف ينزل عن أذنيها بين أصابعها ببطء كما تنزل دمعاتها الآن، لا تسمع من الطرف الآخر، إلا "ألو، ألو"، ورجاءً منه بألا تقطع الخط، اختنقت العَبرات في قلبها، أحست بانقباض في صدرها شفقة على وحيد، منذ سنوات وهو يبحث عن والده، منذ سنوات وهو يبحث... تبكي وهي تتذكر ذلك.

ـ هل سمعتَ ذلك أيها القذر، لقد مات قلبك، بل حتى الدمعات انتهت مِن مقلتيك، لو كان لك قلب لبكيت الدم بدل الدمع لمِا سمعته.

أشاح حسام بوجهه عن نظراتها الملتهبة وفي قلبه غصة انضافت إلى غصصه التي تجمعت في صدره، وقف منتصبا يقول لها في حزم وعزم.

ـ هيا معي.

ـ دعني وشأني أيها المجرم، اتركني.

ـ هيا معي إلى الجمعية لنسألهم عن أخبار وحيد.

دخل حسام وبثينة على إحسان، تفاجأت لَمَّا رأت من سألا عن وحيد من قبل منفردين قد جاءا مع بعضهما البعض هذه المرة، عرفت من يكونان الآن، طلبا منها أن تخبرهما عن كل أخبار وحيد، فأخبرتهما أن وحيد قبل خروجه من الميتم فَقَدَ ذاكرته النفسي الفصامي كما قال لهم الطبيب.

خرجا من الجمعية صامتين، قرر حسام العودة إلى فاس مِن يومه، طلبت منه بثينة أن تصحبه لترى وحيد، لكنه رفض لها ذلك.

ـ لا، لا يمكنك المجيء معي، لا تنسي أني متزوج.

ـ أالآن تتذكر أنك متزوج، تبا لك.

تركها بعد أن أمرها بأن تمتنع عن الاتصال بوحيد نهائيا حتى تنجلي لهما الأمور بشكل جيد، أما هي فقررت السفر من حينها إلى باريس، فالدار البيضاء تذكرها بالكآبة والحزن دائما، وذكرياتها الكئيبة أبت أن تنتهي معها بعد.

*****

(22)

ليس كل ما يحبُ المرء أن يُحقِّقَه يتحققُ له، فغاياتنا لا نصل إليها بمجرد رغبتنا في الوصول إليها، إذْ إن موانع كثيرة قد تحول بين الطالب والمطلوب، هذه الموانع منها اليسير يتغلب عليها المرء بسهولة، ومنها العسير يصعب أو يستحيل التغلب عليها، فقد تكون تلك العوائق التي تحول بين المرء وهدفه خارجة عن إرادته، لا يد له في تغييرها، لا استطاعة له في إزالتها وإزاحتها، حواجز مهما علَت قُدرات المرء ودهاؤه وعلمه تبقى تلك الحواجز في مكانها لا تتزعزع، كصخور ضخمة سقطت من جبل فأغلقت فم كهف، بل جعلته ردما وركاما.

ينظر وحيد إلى الأفق، إلى الأفق البعيد، البعيد جدا، من هي بثينة التي اتصلت به وذكرته بأبي عائشة الذي كان قد نسيه في سنواته الأخيرة، كان يبحث عنه عندما كان في الدار البيضاء، كان يبحث عن الروح، أما وهو في فاس فقد يئس من إيجاده،

وإيجاد الروح، لم يجده في الدار البيضاء، فكيف يبحث عنه ويفكر فيه وهو في فاس؟!

ينظر في الفضاء الفسيح، يشاهد من خلاله حياته الماضية كيف كانت وكيف تريد أن تُصبح، لا يُصدق أن كل هذا يحدث معه، هل يعيش واقعا حقيقيا أم هو بطل في فيلم يُريد المخرج منه أن يجعله أكثر تشويقا وإثارة؟ هل هذه حياة قد يعيشها كل الناس وينتقلون من فقر مدقع إلى حياة الرفاهية أم أن هناك رَاوِيًا وحاكيًا يريد أن يجعل من روايته وحكايته نموذجا يتفاءل به المتشردون.

وتفكر في حياتك الماضية، وتأتيك ذكريات مشوشة من الميتم ثم تختفي، ذكريات عندما تأتي تجعل رأسك يتألم، لم تستطع أن تتذكر إلا نتفات تُذكرك بأمك رحمة؛ عندما عقلت وجدت نفسك في الميتم، أمضيت فيه ثمانية عشر خريفا، خرجت منه بعد أن أصبحت راشدا، عشت شهور الشتاء القاسية بين شوارع الدار البيضاء وأرصفتها وجسورها، مكثت سنة ونصف في البادية، ما زالت الآيات التي أخذتك إلى المزرعة ترن في أذنك، تلك الآيات هي من انتشلتك من القسوة إلى الرحمة، {قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}، ما زالت تلك الآيات تسمعها بصوت

ندي من ثغر الإمام، فصبرت على ما قاسيته فكانت أرض الله واسعة لك. ثم تعود إلى الدار البيضاء، لكن هذه المرة لك بيت استأجرته، ثم تجد نفسك أخيرا في فيلا، بل ما يجعل الأمر يكاد لا يُصدق أنك عما قريب ستتزوج ابنة رجل ثري ومشهور، هل تحلم؟ لا، لا تحلم، أنت مستيقظ تعيش الواقع، لكن هل هذا الواقع يشمل أيضا حقيقة تعلُّق أسيل بك؟ لمَ تُحبك بجنون؟ أنت غير وسيم، لا مال أو دار لك، لا وظيفة ولا عمل تجني منه رزقا غير الذي يتصدقون به عليك، أتحبك لأنها تمر بمرحلة صعبة وتريد تجاوز تلك المرحلة بك؟ وبعد أن تكون جسرا تمر عليه إلى الطرف الآخر تلقي به في النهر.

ثم هل يوافق حسام على هذا الزواج، حسام منذ أن جاء من الدار البيضاء تلمحُه يرقبك في ريبة، ينظر إليك غير النظرات التي كان ينظر بها إليك مِن قبل، بل لمْ يكن يلتفت لوجودك من قبل، فما باله الآن تحس أنه يرصد كل حركاتك وسكناتك.

هل فطن لتغير معاملة أسيل معك؟ هل لاحظ مدى قربها منك؟ كانت تُعاملك مثل شخص لا يهم وجوده من عدمه، كان غيابك لا ينتبه له أحد وحضورك لا يُهم أحدا، أما الآن فيرى ابنته تهتم بهذا الشخص اهتماما مبالغا فيه، لمَ كل هذا الاهتمام؟ ما بال هذه الفتاة خرجت من عزلتها إلى احتفاء مبالغ فيه بهذا الشخص. قالت عفاف لحسام إن ابنته كانت في عزلة دامت

ثلاثة أسابيع، والفضل يعود لوحيد الذي ساندها وكان بجانبها حتى مرت أزمتها بسلام، فهل هذا ما جعلها تقترب من شخصه إلى هذا الحد، أم أن اقترابها منه تدفعها إليه أحاسيسها ومشاعرها دفعا؟ أحاسيس أعظم من مجرد امتنان لجميل وفضل ترده لوحيد؟

يوم جديد من أيام الربيع، يوم مشمس وهادئ، يوم لا كغيره من الأيام، كيف سيكون كغيره من الأيام وهو يوم عيد ميلاد أسيل، وهو اليوم الذي ستعلن فيه عن المفاجأة، يوم كان فيه وحيد مرتبكا وقلقا، يمشي ويجيء، ساه غافل، ينسى كثيرا، ارتباكه واضح جدا، لكنه يوم يختلف عن أمثاله من أيام السنوات الماضية، في السنوات الماضية في مثل هذا اليوم كانت أسيل تدعو كل أصدقائها وصديقاتها لعيد ميلادها، يرقصون ويغنون إلى الفجر، ومنهم من يشرب الخمر، أما اليوم فلم تدع أحدا غير جوري، حفلة بسيطة حضرها حسام ووحيد أيضا، وحضور وحيد في نظر حسام هو رد جميل له على مساندته لأسيل، وعفاف، عفاف التي لم تحضر يوما عيد ميلاد ابنتها، ها هي اليوم مِن الحاضرين، اليوم يختلف عن أيام السنوات الماضية. الليلة لا رقص ولا غناء، سأل حسام ابنته عن سبب اختلاف هذه الليلة عن ليالي أعياد ميلادها السابقة، فأجابته أنها هكذا فضلت هذه السنة، ولم يكن في مزاج جيد

ليجادلها، فلو كان في مزاجه الحسن لما مر هذا اليوم دون أن يكون فيه ما يكون في كل سنة.

الليلة لا تتواجد إلا منضدة مستديرة عليها كعكة تقف فوقها 24 شمعة بشموخ، وحول المنضدة خمسة أشخاص، أسيل وعفاف في غاية السعادة، جوري مبتسمة، وحيد مرتبك وخائف، حسام مضطرب وقلق، يظهر ذلك على ملامحهم بوضوح.

انحنت أسيل إلى الشمعات لتطفئها، لم تكن تريد حقا إطفاءها، إنما أرادت شد انتباههم بعد أن تتراجع عن النفخ وتخبرهم بالمفاجأة، هكذا فضلت حتى يكون وَقْع المفاجأة أكبر على نفوسهم، وكما قررتْ، تراجعت عن النفخ والعيون تنظر إليها متسائلة لمَ تراجعت، فتتفوه في سعادة:

ـ قبل أن أطفئ هذه الشمعات، سأفصح لكم عن مفاجأة أرجو أن تسركم.

راقبتها العيون، كل العيون غير عيني وحيد، راقبتها بدهشة تنتظر هذه المفاجأة.

ـ لقد قررتُ ووحيد أن نتزوج في القريب العاجل.

ابتسمت عفاف، صفقت جوري...رعد يُدوي بغضب وينفجر مزمجرا يكاد يزلزل الأرض، وميض برقٍ اشتعل ضوء سيفه في سواد السماء، ريح عاصف تهم بإطفاء الشمعات، غيوم سوداء سدت الأفق، أمطار غزيرة تتهاطل كحبال سفينة، بَرَد كبيض الدجاج يكسر الرؤوس، يجري حسام في الغابة وسط أمطار قطراتها حجارة، وصوت رعد غاضب، يشتعل ضوء البرق بين الحين والآخر لينظر من خلاله وراءه فيجد حيوانات الغابة المفترسة ما زالت تلاحقه، ذئاب وأسود ونمور وقردة تضحك عليه، طيور جارحة فوق رأسه، دخل إلى كهف هربا منها، خرج من باب الكهف في الجهة الأخرى ليجد ذاته في صحراء يموت عطشا، شمس حارة ملتهبة، رياح حارقة تحمل معها غبار الرمال فتحرق وجهه، الماء، الماء...

أحضروا ماء، بصلا، كان حسام قد سقط على ركبتيه وهو يشد رأسه من قوة الألم فاختفت الابتسامات من الوجوه لتتحول إلى هلع وقلق، اختلجت الكلمات بعد أن فقد وعيه، منهم من يسقيه ماء، منهم من يمسكه من ظهره حتى لا يسقط أرضا، أفاق وشفتيه تطلب الماء، يتنفس بصعوبة، يشهق ويزفر، ما زالت يده على جبينه يشده من شدة الألم الذي يُحس به، يسندونه على مقعد فيتكئ عليه، انتظم تنفسه، جلس الأهل

بجانبه يسألونه عن حاله، أسيل واقفة شاخصة ببصرها نحوه بهلع.

ـ أبي هل تشعر بتحسن الآن؟

ـ ما بك يا حسام هل أنت بخير؟

لا جواب، فقط كاد يأكل أسيل الواقفة أمامه بنظراته، ينظر إليها دون أن يزيح سهام عينيه عنها، خافت، ارتبكت، ماذا فعلتْ؟ هل أقدمت على خطأ لم تدرك كنهه بعد؟

ـ أسيل... ابنتي... اسمعي مني جيدا... أنا أبوك وأعرف مصلحتك أكثر منك، أنت ستتزوجين من أويس، أويس هو من يصلح لك زوجا.

بالكاد خرجت تلك الكلمات المتقطعة من فمه، رمقته أسيل بجحوظ وقد فتحت فمها من الدهشة، كادت تبكي، ثم صاحت مدافعة عن نفسها.

ـ أبي، أنا أعرف مصلحتي جيدا، ولا حق لأحد أن يُرغمني على الزواج ممن لا أريد، أو أن يمنعني من الزواج ممن أريد.

أمسك حسام رأسه من الألم، ينظر أسفل قدميه ويحرك رأسه في عدم تصديق، ألا يصدق ما تقوله ابنته أم لا يُصدق شيئا آخر؟ التفت ببطء إلى أسيل مرة أخرى.

ـ أسيل، أنت حبلى من أويس، وهذا الجنين الذي في بطنك جدير به أن ينشأ ويترعرع مع والديه، لن أسمح بأن ينشأ يتيما.

انتشلت هذه الكلمات وحيد من شروده، انتشله تناقض حسام، ابن ابنته لا يريده أن ينشأ يتيما، وأبناء الناس يدعوهم إلى علاقات حرة، وبعدها فلينشأ أولادهم أيتاما، وليتشردوا في الشوارع، ما أسمجك يا حسام.

ـ لم أعد أحب أويس يا أبي، ثم هو تخلى عني، وله علاقة مع فتاة أخرى.

ـ سأقنعه بأن يتخلى عنها، وسأقنعه بالزواج بك.

ـ قلتُ لا أريده، لم أعد أطيقه، أنا أرغب في الزواج من وحيد.

ـ وأنا قلتُ لك لن تتزوجي من هذا ل... الوحيد.

ـ ومَن أنت لتمنعني من الزواج به، ألست تنادي في كل لقاءاتك بأعلى صوتك بأن يَترك الأهل للفتاة حرية اختيار مَن تشاء، سواء للزواج أو حتى لإقامة علاقات حميمية، ألست من تدعو لذلك والآن ترفض ذلك لابنتك؟

صرخت أسيل بهذه الكلمات مع رذاذ يخرج من فمها وبكاء ودموع تتسلل بخفة من مقلتيها، تدخلت عفاف لتهدئ من الأوضاع، قالت بلطف تخاطب زوجها.

ـ ألا ترى معي يا عزيزي حسام أن أسيل معها حق؟ ألست من تدافع عن حقوق المرأة، أليس من حق ابنتك باعتبارها فتاة أن تختار من ترتاح له، ثم إن وحيد فتى طيب، لن تجد أسيل أفضل منه، فلا يمكن مقارنة أخلاقه بأخلاق أويس، وأنا منذ البداية كنت أرفض لها أن تتزوج بأويس.

تجرأت جوري وتحدثت بعد تردد.

ـ اسمع يا حسام، لو علم الناس أنك تمنع ابنتك من حقها الذي تدعو غيرها له لما بقي أحدهم يعطيك قيمة، وبصفتي رئيسة جمعية حقوقية لن أستضيفك في جمعيتي منذ اليوم بعد أن سمعت منك ما سمعت، تنادي بشيء وتمنعه عن أهلك، ثم أنت متناقض يا سيد حسام، ها هي الآن زوجك بنقابها وتدعو النسوة إلى الفجور والسفور، لمَ لا تدعو الناس إلى العفاف والطهر؟ أنت رجل سيء يا حسام، سيء، سيء.

أفرغت جوري ما كان في صدرها من غضب، وحملت حقيبتها في يدها واستدارت لتنصرف ثائرة حانقة، وما إن استدارت حتى تناهى إلى أذنيها صوت حسام يقول بضجر وبصراخ قولا ما سمعته منه يوما.

ـ أقسم بالله العظيم لن تتزوجي من وحيد يا أسيل.

صمت الكون كله، سكتوا مبهوتين، حتى الدموع توقفت في وسط طريقها مذهولة مشدوهة، حتى جوري التي كانت في الأسفل توقفت عن المشي مندهشة، هل يتحيرون من قَسَم حسام الذي لم يسمعوه يقسم به يوما، أم يتعجبون من ندائه على ابنته باسمها المجرد دون أن يقدِّم قبله كلمة ابنتي كما يفعل دائما معها، أم يحتارون من عناده وارتداده عن أمر يدعو له والآن يرفضه لابنته؟

كسر وحيد هذا الصمت يخاطب حسام بلهيب يخرج من عينيه بعد أن فضل الصمت مِن قبل.

ـ استمعت بإنصات لكثير من محاضراتك تنادي فيها بعدم تدخل الآباء في حياة أبنائهم، فماذا عساك تفعل الآن؟ ليس من الصواب يا سيد أن ترغمها على شيء لا تريده، أو أن تقف في طريق سعادتها، أو....

وقبل أن يكمل وحيد محاضرته وقف حسام منتصبا مستعدا للخروج وقد ثارت ثائرته، وقبل أن يخرج وجه خطابه لوحيد وهو يشير له بسبابته محذرا ومتوعدا.

ـ هذه آخر ليلة ستبيتها هنا، ستجد في الصباح أجرتك عن عملك مع الخادم، خذها وغادر فورا.

خطا حسام خطواته بسرعة وغضب، حين كان نازلا سمع خلفه سقوط أسيل مغشيا عنها وسمع صراخ أمها عليها لكن دون أن يبالي أو يكترث لذلك، مضى إلى حيث لا يعلم أحد.

*****

(23)

دار الزمان دورته وعاد إلى بدايته، ودارت الشمس دورتها ورجعت إلى نقطة انطلاقها، ودارت الأيام واشتاقت ليوم ولادتها، ودارت حياة وحيد وعادت به إلى نقطة الصفر، عادت به الدنيا إلى التشرد، من قال إن الأيام ستعود به ليعيش التشرد مرة أخرى، من قال إن عجلة حياته ستوقف تقدمها بعد أن كانت صاعدة به إلى قمة الجبل، ليجد نفسه الآن يهوي وتعود به عجلة الحياة القهقري إلى الأسفل.

وتجمع متاعك في حقيبة ظهر، وتأخذ أجرك الذي أتاك به الخادم، تخرج من البوابة الكبيرة مطأطأ الرأس دون أن تودع أسيل أو أمها، لم تخرج إحداهن لتُلقي عليك آخر نظرة، نظرة الوداع، يغلب على ظنك أن أسيل على فراش المرض، وأمها بجانبها تشد من أزرها، وتخرج، وتسيح هائما على وجهك في الطرقات، قُدِّر لك التشرد مرة أخرى وإن كان تشرد هذه المرة أقل قسوة مما عشته من قبل، فاليوم المال في جيبك، وتجارب

الحياة اكتسبتها مما عشته في سنواتك الماضية، لابد أنك ستعرف كيف ستُخلص حياتك من براثين السوء.

لكن ما يؤلمك، ويجعل رأسك مطأطأ من الذل هو طرد حسام لك دون جريرة اقترفتها، أنت لم تقترح الزواج على ابنته، ولم تلعب بمشاعرها، ولم تتجرأ حتى على الحديث معها كما يتحدث أصدقاؤها، أصدقاؤها الذين يرقصون ويلهون معها تحت أنظاره، أويس الذي أخذ منها جسدها الطري الغض يغض حسام الطرف عن ذلك، أما لما أرادت ابنته علاقة في النور أنكرها ورفض لها ذلك، أي طينة هؤلاء الآباء الذين يسحبون فلذات أكبادهم من النور ويغرقونهم في الظلام، يدعي أنه يدافع عن النور وإذا به يغطس في السواد.

وتستمر في المشي دون تعب، قطعت مسافات طويلة دون كلل، لم تعد قدماك تحس التعب، أو ربما اشتقت لزمن المشي، ولم ترمِ لقمة طعامٍ لمعدتك التي نسيتَ أمرها، ونسيَتْ هي الأخرى وظيفتها، فلم تعد تطلب منك تزويدها بما تحتاجه.

السماء بيضاء كأنها تريد أن ترسل قطرات من المطر، حقا ذلك ما تفعله الآن، مطر خفيف منعش، والليل يُسقِط قطعه عليك تباعا، كأنه يستعجل في القدوم، ما به الليل أتى سريعا؟ أَلَمْ أودِّع الصباح منذ قليل فقط؟ ويشهد على ذلك أني لم آكل

منذ الصباح، أيريد الليل أن يرسم لوحة قاتمة لحياتي؟ أتُراه يرى لوحة حياتي سوداء ولا يُكمل جمالها إلا سواد الليل، وأينك أيها القمر لتكون مؤنسا لي في ظلمتي؟ حتى القمر اختفى من السماء ليزيد المشهد اسودادا، حتى الكلاب الضالة حضرت لتجعل المشهد سرياليا، مشهد خارج حدود الواقع والمعقول، بل حتى المارة لم تعد أرجلهم تقص الشوارع إلا قليلا.

ـ لابد أن أشرع في البحث عن فندق أبيت فيه ليلتي.

وتمضي للبحث عن فندق تبيت فيه، وترى أمامك بعض الكلاب الضالة تنبح عليك، لعلك اقتحمت منطقتهم الخاصة، لعلك اعتديت على خصوصياتهم، وتفر منهم لتقطع الشارع إلى الجهة الأخرى.

في تلك اللحظة التي أراد وحيد الفرار من الكلاب ليهرول إلى الجهة الأخرى من الشارع، أتت سيارة بسرعة مجنونة، كان وحيد قد وضع رجله في طريق السيارة، وما أن رأى السيارة وهبَّ للرجوع حتى علم حينها أن الوقت لن يسعفه لذلك، فلا وقت للتراجع، ضربته السيارة بجزئها الأمامي جهة تواجد أضوائها اليمنى فارتفع عن الأرض ليطير في السماء تلقاء الكلاب الذين هرب منهم، كأنها تعمدت إعادته إليهم، في

مشهد يشبه كرة مضرب تتقاذفها الكلاب والسيارة. وقع وحيد أمام الكلاب التي ذهلت عما ستفعل به، ما فعلت به أن اكتفت بشمه وارتحلت عنه، أما هو فكان ساكنا دون حراك، لا يتحرك فيه شيء.

سيارة في الشارع تبتلعه ابتلاعا، يقودها صاحبها بسرعة متهورة، كان الشخص غاضبا جدا، حتى إشارات الوقوف لم يأبه لها، وأمام غضبه كان ثملا مخمورا، يرفع بين حين وآخر زجاجة خمر إلى فمه ليشرب منها، سمع صوت نباح الكلاب، لعنها في ذاته، رفع إلى فيه قنينة خمر وهو يرجع برأسه إلى الوراء ليشرب منها، في تلك اللحظة أحس بأن السيارة ارتطمت بقوة بشيء ما، لم يأبه لذلك أيضا، لن يكون ذلك غير كلب من الكلاب الضالة اعترض طريق السيارة فأبعدته عن طريقها، ولم يكن يدري أن الذي أوقعه أرضا في سكون تام هو وحيد، ولم يكن وحيد يدري أن الشخص الذي في السيارة يعرفه جيدا، كان حسام هو من يقود السيارة.

كان حسام منطلقا بسيارته يصرخ في وجه ذلك الرجل الذي هو من رجالات الدولة، الجالس بجانبه، يعاتبه على أنه لا يبرحه، وكانت وجهته الملهى الليلي الذي بات فيه ليلة أمس، لم يعد إلى مسكنه بعدما خرج غاضبا مقطب الجبين ليلة أمس، خرج إلى الملهى رأسا، أفرغ في جعبته قَناني خمر لم يدر

عددها، كلما فرغت واحدة نادى على الأخرى، لم يخرج من الملهى إلا بعد طلوع الفجر، نام في فندق الملهى الليلي نهاره كله، تجوَّل قليلا وها هو الآن عائد إلى الملهى نفسه.

دخل الملهى، جلس في الحيز نفسه الذي جلس فيه أمس، أضواء تشتعل وتنطفئ، أجساد تلتحم مع بعضها البعض في رقص ماجن، قِيان وقِنان خمر كلما حضرت إحداهن وجدها فارغة في لحظة واحدة، أخذ المشهد يتضبب في عينيه، الأضواء التي تشتعل وتنطفئ أصبحت تأخذ وقتا أطول حتى تشتعل، يختلط في عينيه الواقع بالخيال، يرى أمه تموت وهو يضحك مقهقها، يرى ابنته أسيل تضع حملها فترميه في حاوية أزبال فيصفق لها، يرى ذاته في غرفة نومه مع امرأة أخرى غير امرأته، وامرأته واقفة فوق رأسه تنظر إليه بغضب وهو غير آبه بها، يرى أنه وضع حبل مشنقة في عنق وحيد يريد أن يخنقه وحسام سعيد بذلك ومستمتع، يرى روفيدا تدفعه إلى بركة وحل عفنة، تنبعث منها رائحة خبيثة وهو يسبح مستمتعا، يرى راقصة تأخذ بيده وقد تبعها في استسلام وبلاهة.

بعد الزوال خرج من الفندق هائما على وجهه، لا يدري إلى أين سيقود سيارته، ترك عجلاتها تذهب به أينما شاءت، وجدها تقف به أمام مقر جمعية "النساء قادمات"، دخل إلى الجمعية ليجد روفيدا بمفردها فيها.

ـ ما بها حالتك بهذا الشكل يا حسام؟ كأنك نمت في القبور!!

لم يرد على روفيدا، رمى نفسه على مقعد وجلس بذهن مشغول.

ـ أول مرة تزورنا في يوم عطلة! هل يُشغل بالك أمر يقلقك؟

لعله أصيب بالخرس أو البله أو الصمم، هكذا خمنت روفيدا، إما أنه لم يعد يسمع، أو لم يعد لسانه يطاوعه، أو لم يعد يفهم معاني الكلمات، أتته بكوب ماء، شرب منه ومسحت بخرقة وجهه، ثم استفاق ولم يدر ما الذي يفعله هنا، ولمَ أتى إلى هنا؟ تململ في موضعه ثم أراد الخروج دون أن ينبس ببنت شفة، لكن روفيدا أمسكت بيده.

ـ لحظة يا حسام، أريدك في أمر مهم، لعل الأقدار جاءت بك في وقت مناسب جدا، لقد جرَّتك إلي جرا دون إرادتك.

حتى أن ينظر إليها ببلاهة لم يفعل، بل حقا كأنه لم يسمع، أراد الخروج مرة أخرى، أمسكته هذه المرة بقوة وجدية لتُظهر له أنها لا تمزح.

ـ أريد أن أتحدث معك.

نظر إليها نظرات فارغة يطلب منها أن تُخرج ما في جوفها من كلمات بسرعة وتُنهي هذه اللعبة السخيفة التي ليس له

استعداد ليلعبها معها، لكن يبدو أنها تريد أن تهيئ الأجواء لما تود قوله، فما ستقوله ليس هزلا حتى تقوله كيفما اتفق، أجلسته، جلست بجانبه، ثم ظهرت الجدية على محياها، وجدية أخرى ستُفصح عنها بكلماتها التي ستتلفظ بها عما قليل، ضاق حسام ذرعا بهذه اللعبة السخيفة، وكاد ينهرها ويطلب منها أن تتحدث لولا عدم رغبته في الغضب أو الكلام أصلا، رأت غضبا بدا أنه يطفو فوق عينيه، فسارعت للحديث.

تحدثت دون ترتيب، ودون أن يكون هناك جامع للكلمات التي تفوهت بها، كلمات لم يستطع حسام أن يجمع بينها لتعطيه موضوعا مفهوما، "الصداقة"، "الحب" "الزواج" "الحداثة" "التنور"، "الثورة على العادات والتقاليد"، "الثورة على التخلف"، "عدم الانصياع للقيود الموروثة" " التخلص من التراث"، "المجتمع الذكوري".

كان حسام في هذه اللحظات يحتاج إلى كلام واضح حتى يفهمه، لم يكن في حالة تسمح له أن يفهم ألغاز روفيدا، لو كان في غير الحالة التي هو عليها الآن لفهم مرادها قبل أن تتحدث. أراد أن يحرك قدميه للوقوف والخروج، لكنها أمسكته مرة أخرى وهي تَعِده أنها ستتحدث وتوضح مقصدها.

ـ حسام أريدك أن تتزوج بي.

أليست هذه الجملة واضحة؟ هل هناك أوضح من هذه الجملة؟ كل ما كانت تريد أن تقوله لك هو أنها تود أن تكون زوجا لها، هذه جملة واضحة، نظر إليها حسام ببلاهة، لم يتكلم للحظات طالت جدا على روفيدا، ثم أخيرا تكلم، تكلم ببرود كأنه يُثْبت لها حقيقة معروفة عندها، ويُذكرها بها.

ـ لكن أنا متزوج، والتعدد حرام في ثقافتنا يا روفيدا.

خرجت منها ابتسامة ساخرة، بل كادت تتحول إلى قهقهة.

ـ هذا الكلام نقوله لغيرنا يا حسام، أما ما أطلبه منك الآن هو أن نتزوج، اعتبر ذلك تعددا أو ما شئت، ثم لا تنس أن الطلاق جائز في شرع ثقافتنا.

يظهر على مزاجه الغضب، ينتظر شرارة أخرى ليُظهر هذا الغضب جليا، وهي تعرف أن لسانه سليط إن غضب، فلا تريد أن ترحمه وهي ترى حالته المزرية، لو كانت تحبه وتريده زوجا لأجلت مثل هذا الكلام إلى وقت تتحسن فيه حالته، كان يفكر في هذا الكلام فوجده يجري على لسانه ويتفوه به بصوت مسموع، لكن يبدو أنها لا تريد الاستسلام، فالمرأة إذا قررت أمرا فلا تنام قريرة العين حتى تحقق ما يأتي على بالها، قالت إنها لن تتخلى عن هذه الفكرة، تذكر حسام شيئا فالتفت إليها التفاتة خاطفة.

ـ ألم تخبريني أنك متزوجة؟

سألها متعجبا يحسب أنه أفحمها بسؤاله، لترد عليه ببرود يقتله.

ـ أنت أيضا متزوج.

ـ لكن أنا رجل، وأنت امرأة كيف تتزوجين بشخصين في وقت واحد؟

قهقهت روفيدا قهقهة مستفزة، تضحك ثم تكاد ضحكتها تنطفئ فتعود ضحكتها تشتعل من جديد مثل نار وجدت عشبا يابسا بعد أن كادت تتحول إلى رماد، استفزه ضحكها، رفع كفه يريد أن يصفعها فأمسكته.

ـ تريد أن تصفعني يا حسام، هل دُهشت أن أطلب منك الزواج وأنا متزوجة، هل نسيت أنك تُقر بأن للرجل والمرأة الحقوق نفسها في الزواج والطلاق وكل شيء؟ ألست من تنادي بذلك؟ ها أنا أريد أن أحقق لك ما تدعو إليه، فلماذا أغضبك استجابتي لندائك؟ فلأكن متزوجة! ما المانع مِن أن أتزوج بشخص آخر، أم أنك منافق تدعو لشيء وأنت مقتنع بضده؟

أمسك حسام غضبه في صدره، تحدث معها بهدوء، بين لها أنه وإن كان يدعو لذلك فلا يمكنها أن تتزوج به وهي متزوجة،

ثم إنه غير مستعد للزواج الآن، قال تلك الكلمات وتحرك نحو الباب لمغادرته.

ـ الشريط الجنسي.

توقف حسام في مكانه بعد أن سمعها تتحدث عن شريط جنسي، لم يفهم ما تقصده، وقف يُعطي لها ظهرها ينتظر أن تكمل حديثها، لكنها الآن منتشية ببداية انتصارها، تأخذ الوقت الكافي لنفسها لتجمع الكلمات المناسبة التي ستقذف بها على وجهه كقذائفه التي كان يقذف بها الناس، التفت إليها بجسده، حرك رأسه يستفسرها عما تقصده.

ـ لا تنس أنك تعاملني كزوجٍ دون عقد زواج.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ كل علاقاتي الحميمية معك في هذا الشريط.

اختصرت عليه الموضوع اختصارا، فهي كانت تُصور ما يقع بينهما في شقتها، والآن جمعت له كل تلك المشاهد في شريط تمده له بيدها ووجهها ناظرة به تلقاء جهة غير جهته، ارتبك حسام، يلعنها الآن في سره، منافقة، مخادعة، أخذ منها الشريط بيد مرتعشة.

ـ إما الزواج وإما أن أنشره على الملأ، ولا تنس مَنْ كنتَ في الماضي.

قبض بقوة على الشريط بكفه يريد كسره، تفطنت لذلك وهمست بصوت مسموع، وكانت قد اقتربت من النافذة تتظاهر بأنها تنظر من خلالها إلى الخارج.

ـ في حوزتي عدة نسخ من ذلك الشريط.

ـ اتركي لي بعض الوقت لأفكر.

استسلم ذلك الفارس الذي لا يُهزم، استسلم ذلك البطل الذي هَزم جيوشا لا قبل لأحد بها، ها هو الفارس المغوار يركع منهزما، ها هو بطل الأبطال يركع لامرأة ويلهث الثرى تحت قدميها، لقد طفق ينطفئ نوره الذي سطع لأربع عشرة سنة، تريد أقربُ الناس إليه أن تُطفئ نوره، المرأة التي كان يدافع عن جنسها، يموت الإنسان على ما كان عليه، ويموت على يد من كانت حياته من أجلها.

حمل قدميه مغادرا الجمعية في ذل ومهانة لم يصَب بها طول عمره، حتى في السنوات التي عاشها في السجن، لم يتخيل يوما أن امرأة ستفعل فيه كل هذا، هل تتحول المرأة إلى أفعى بهذه البساطة؟ هل كل النساء يتشابهن؟ لا، لسن كلهن

يتشابهن، فهناك امرأة لا تُشبههن، امرأته، وها هو الآن قد تذكرها ويسير إليها.

الآن تذكر زوجه، الآن علم بوجودها، علم أنه متزوج، لم يكن يأبه لها، لم يكن يهتم لوجودها، هي كشيء في غرفته، كقطعة قماش، كطاولة، أو كشيء يتحرك فقط في مجال بصره، ذلك المجال الذي لا يقتحمه إلا ليلا بعد أن يكون التعب قد أنهك زوجه وأجبرها على النوم، يسعد عندما يجدها نائمة، يحب أن يراها قد غابت عن وعيها، لكن صدره يضيق عندما يجدها مستيقظة تنتظره، أو تستيقظ عندما تحس بمجيئه، تظن أنه في حاجة إليها، فيشير لها بيده أن نامي، أهي ليست امرأة؟ هل إن كنتَ أنت في غير حاجة إليها تَحرمها من حاجتها إليك؟ كم تبجحتَ بالمناداة بحقوق المرأة، لكنك تحرم هذه المسكينة من أبسط حقوقها، أليست زوجا تحتاج لزوجها أيضا؟ أليس لها قلب أيضا وتحتاج إلى الحب؟ منذ خروجه من السجن وهو يهملها، منذ خمس عشرة سنة، يعاملها معاملة الخادمة لا الزوج، لكنه الآن لم يجد من يكون له سندا غيرها.

دخل عليها إلى غرفتها، انخلع قلبها لحالته، وضعت يدها على فمها تحبس شهقتها، جاءها بخطوات ميتة بطيئة، هرولت إليه واحتضنته في صدرها، قلبها الذي في صدرها يخفق بقوة، أين كان منذ ليليتين؟ وما بها حالته بهذه السوء؟ لمَ جاء اليوم

باكرا في غير عادته؟ لمْ تسأله أيا مِن تلك الأسئلة، أذرفت دموعها ومكثت صامتة ورأسه على صدرها كولدها الصغير، آه كم اشتاقت إلى هذه اللحظات، منذ سنوات طويلة جدا لم تعش مثلها معه، هي الآن لا تبكي ألما، بل تبكي سعادة وسرورا، لعل زوجها عاد إليها، لعل ما كانت ترجو أن يحصل من صلاحه قد تحقق لها، الآن يمكنها أن تشعر بأنها زوج، الآن يحق لها أن تعتبر نفسها متزوجة.

استمر الصمت برهة من الزمن، قطع حسام هذا الصمت.

ـ سامحيني.

آه من كلمة، متى سمعتها منه آخر مرة؟ متى شربت من حبه لها آخر مرة؟ قطعا آخر مرة كانت قبل دخوله السجن، وتزيد دموعها في انهمارها، ويزيد قلبها في خفقانه.

ـ أسامحك، أسامحك على كل شيء يا حسام، انسَ الماضي الآن.

ـ لا يا عفاف، لن أنسى الماضي حتى تسمعيه كله مني، وتغفرينه لي كله.

هل قال عفاف؟ هل نادى باسمي؟ كأني سمعته يقول عفاف، وتعود ذاكرتها إلى الوراء، إلى الزمن الجميل، إلى زمن بعيد، بعيد جدا.

ـ أحب اسمك يا عفاف.

وتحس عفاف بالخجل حينها، وتضع يدها على فمها خجلا وهي تبتسم، وتنزل بعينيها أمام قدميها، ويحثها حسام على أن تتخلص من الخجل فقد أصبحت الآن زوجه بما أنه عقد عليها وإن لم يأت بها بعد إلى بيته، وتقول بحرج مبالغ فيه.

ـ وما الذي أعجبك في اسمي؟

ـ يلزم منك أن تعرفي ذلك، اسمك عفاف، يعني أنت امرأة عفيفة، وأنا أحب اسمك لأنه يدل عليك، فأنت امرأة عفيفة كاسمك.

ـ وأنت أيضا رجل عفيف.

عادت إلى واقعها لتجد أنهار الدموع قد بللت بها رأس حسام، تذكرت الآن أنه يطلب منها أن تغفر له ماضيه، لكن ما يجب أن تغفره له هو سنواته الأخيرة من عمره، وجزء من ماضيه البعيد، فليس كل ماضيه سيء.

ـ ماذا تريد أن أسمع منك يا حبيبي؟

لقد نطقتها، لقد قالت عنه إنه حبيبها، نعم هو حبيبها، زوجها، هل ستعود أيام الحب؟

ـ اسمعي مني القصة كلها، وأرجوك لا تقاطعيني، سأبدأ لك من آخرها، ثم أعود لأحكي لك بداية القصة.

هما الآن جالسان يقابل أحدهما الآخر، نظرت إليه بحيرة ترغبه في الحديث، ما الذي يجدر منها أن تعلمه عنه؟ ما هذه القصة التي قد تجعل قلبها ينفجر؟

ـ لعلك تستغربين لمَ رفضتُ زواج أسيل من وحيد؟

ـ نعم حقا أستغرب ذلك!

تحدثت عفاف بدهشة وقد جحظت عينيها، تنتظر أن يُفصح حسام عن السبب، فالسبب كما هي متأكدة ليس أن وحيد في غير مستوى أسيل، فما السبب الحقيقي؟ قالت ذلك والتمست منه أن يقول كل شيء يخالج صدره، لكن الصمت بدا أنه لن ينتهي أبدا حتى قال:

ـ ببساطة لأن وحيد هو أخ أسيل، هل تتصورين يا عفاف أن يتزوج الأخ بأخته.

دارت الدنيا بعفاف، تحس أنها ركبت اللعبة الأفعوانية الدائرية في مدينة الألعاب، تكاد تتقيأ، لا تصدق ما تسمعه،

وحيد الذي التقته أسيل صدفة يصبح بين عشية وأخرى أخا لها، ما هذا الهراء!

ـ وحيد أخ لأسيل!!

رددت الجملة غير مصدقة لما تسمعه، كيف حصل ذلك؟ وهي من كانت تريد، بل تعمل جاهدة على أن يتزوج وحيد بابنته أسيل، هي من فتحت لهما الطريق، هي من دفعتهما للزواج دفعا.

ـ اسمعي مني القصة كاملة ولعلك تغفرين لي بعد أن تعرفي أن لا يد لي في ذلك، كل شيء كان فوق إرادتي.

ومضى يحدثها لليلة كاملة...

*****

(24)

لا شيء يحدث في عالم الناس صدفة، ولا حدث يخرج عن سلسلة الأحداث المترابطة، كل حدث في الحياة يقترن بحدث قبله وبحدث بعده، وهكذا فكل الأحداث منذ أن يولد الإنسان إلى أن يموت مثل سرب من الحمام يشكل لوحة بهية في السماء، فإذا ما خرجتْ حمامة عن مسارها اندثر ذلك الشكل الجميل، كذلك أحداث الإنسان إذا ما أخرجنا حدثا عن سلسلة الأحداث المتصلة، فإننا لن نفهم مغزاه منفردا، لن نفهم معناه إلا إذا وضعناه في سياقه وداخل سلسلة الأحداث، حينها تكتمل الصورة ويبزغ شكل الأحداث بتناسق وترتيب.

ما زالت أسيل مستلقية على فراشها منذ أن صفعها والدها، صفعٌ معنوي تجلى في أن رفض لها الزواج من وحيد، عادت إلى عزلتها وانطوائها، ثلاث ليال في غرفتها لا تخرج منها، لا تصدق أن تلك الكلمات كانت تخرج مِن فم والدها، لم تستوعب أن يرفض لها طلبا، لم تخَل يوما أن يتحدث معها بتلك الطريقة البشعة وهو الذي كان يحدثها بأرقى أسلوب، لم يرفض لها

طلبا يوما، ولم يغضب في وجهها، أهذا أبوها حقا؟ لا، أبدا، هذا ليس أبوها، بل ذلك الشخص القديم خرج من فانوسه وعاد ليتلبس بأبيها مرة أخرى، لن تطيق العيش معه بوجهه القديم الذي كانوا يحكون لها عنه.

سمعت أسيل طرقا على باب غرفتها، ستتمنع، لن تفتح لأحد، ستموت في غرفتها، هم سبب موتها، سبب موتها حية.

سمعت صوت أبيها يطلب منها أن تفتح الباب، هل ستفتح له؟ هل غير رأيه وجاء يطلب منها الصفح؟ لعله ندم على ما اقترفه في حقها وجاء يتوسل منها أن تسامحه، ستفتح، لكنها ستُظهر ضيقا شديدا منه، ولن تغفر له بسهولة. فتحت أسيل الباب فوجدت أمها وأباها خلف الباب.

ـ هل يمكن أن تسمحي لنا بالدخول؟

هتفت بها أمها، توقفت برهة تحدق في وجهيهما ثم تركت الباب مشرعا وعادت إلى فراشها دون أن ترحب بهما، دخلا وأغلقا وراءهما الباب، جلسا على السرير بمحاذاة منها.

ـ ابنتي.. هل تريدين أن تعودي إلى عزلتك القديمة؟

تحدثت معها أمها بحنان، لكن لا جواب، ووجهها المتقلص الذي أصيب بتشنج تنظر به إلى غير جهتهما والغضب يغطيه،

تنحنح أبوها يريد أن يقول شيئا، لمس كفها فسحبته بعنف، قال لها بتودد إنه رفض زواجها بوحيد لمصلحتها، لو علم أن من مصلحتها الزواج به لقبل بذلك، بل لجهز لها عرسا عظيما يتحدث به الناس طول حيواتهم، لذلك فزواجها لن يكون إلا من أويس، وأويس ذاك سيعود لها راكعا تحت قدميها يطلب منها الصفح والغفران.

حرك حديثه مشاعرها فطفقت الدموع تتسلل من محجري مقلتيها، لماذا لا يفهم أنها لا تريد أن يكون أويس زوجا لها، وقلبها الآن متعلق بوحيد ولن تتزوج غيره حتى لو انطبقت السماء على الأرض، بل ستبحث عنه وتهرب معه ليعيشا وحدهما في مكان لن يزعجهما فيه أحد، فالمال في يدها، وهي حرة في حياتها، كانت تفكر في ذلك عندما أيقظتها أمها من أحلامها الوردية بقنبلة لم تكن تظن يوما أن تُلقيها أمها عليها.

ـ ابنتي أسيل، أبوك معه حق، وحيد لا يصلح زوجا لك، كنتُ موافقة على زواجك به من قبل، لكن الآن تبين لي استحالة زواجك به، لذلك انسي هذا الأمر إطلاقا.

فغرت أسيل فمها، نظرت إلى أمها بعينين جاحظتين، باستغراب شل حركتها وجمدها عن الكلام، دهشة غطت جسدها كله، هل تستغرب من انقلاب رأي أمها بين الأمس

واليوم، أم تستغرب لموافقة أمها لأبيها في رأيه لأول مرة في حياتهما، أم تستغرب لطريقة حديث أمها معها في هذا الموضوع الذي كانت هي من تشجعها على التمسك بوحيد زوجا لها في المستقبل؟ خرجت كلمة واحدة من فمها بصعوبة.

ـ أمي!

دمعت عينا عفاف وهي تنظر إلى ابنتها مشفقة عليها، وقد زمّت شفتيها، ثم قالت ناشجة:

ـ آسفة حبيبتي، لكن أرجوك انسي موضوع زواجك بوحيد، فلن يحصل ذلك أبدا.

أرادت أسيل أن تثور في وجه أمها، وتُسمعها كلاما لم تَسمعه منها يوما، لكن حسام أوقفهما بيده عن الحديث فجوري تتصل به، وسيرد على الاتصال. رد على اتصالها، وبعد برهة وهو يُحدثها أخذ لون وجهه يتغير ويتقلص، والارتباك واضح على محياه، ولا يقول إلا، "نعم، حسنا"، بينما ابنته وزوجه تنظران إليه في قلق.

ـ وحيد يرقد في المستشفى، صدمته سيارة، حري بنا زيارته.

قطعت جوري الاتصال وقد كانت فوق رأس وحيد في المستشفى، كان وحيد مغمى عليه، وكانت تنظر إليه بإشفاق،

تداعب بأصابعها خصلات شعره، تنتظره ليستفيق من غيبوبته، لكن وحيد لم يكن في غيبوبة، كان في عالم خاص به، عالم لم يدخله منذ سبع سنوات، وها هو يدخله لأول مرة.

ظلام دامس، سواد في سواد، أحداث مختلطة دون أن يكون هناك رابط بينها، لقطات من أحداث عاشها تأتيه وتختفي، تأتيه لقطات من حياته بعشوائية لا يفهم منها شيئا، تأتيه من أزمنة متفرقة في حياته، ثم شرعت تنتظم، تنتظم شيئا فشيئا، تنتظم في صف طويل، تنتظم كفيلم مسجل في قرص، لكن بداية شريط حياته الذي يراه الآن يجده قد بدأ من نهايته، يرى آخر حدث في حياته ويمضي به إلى حدث كان بعده، يرى نفسه مرتفعا في السماء جراء حادثة السير التي وقعت له، ثم يرى أنه خرج من فيلا حسام عندما طرده، ثم اتصال امرأة به تقول إن اسمها بثينة، ثم اعتراف أسيل بحبها له، ما زال الشريط يعود به إلى الوراء، يرى حضوره محاضرات حسام، يرى رؤيته لصورة الحاجة رحمة في غرفة عفاف، ثم مجيئه أول مرة إلى الفيلا، ثم إرجاع حقيبة أسيل، ثم يسمع من عصام خبر موت المتشردة، ثم يسمع من إحسان وهي تخبره أن شخصا ما يسأل عنه، ثم حديث جوري معه، وقبلها استئجار منزل في الدار البيضاء، وقبل ذلك يرى حياته في المزرعة، ثم قبلها الآية القرآنية التي كان يتلوها الإمام، يرى سرقته للهاتف

المحمول، المبيت تحت الجسر، أكله من القمامة، المبيت على الرصيف، وجوده في السجن، لحظة... أوقف شريط ذكرياته، نظر إلى الشباب الذين كانوا معه في السجن، نظر بالضبط إلى مَنْ كان يرشقه بنظرات شزراء فيها من السخرية والاحتقار ما فيها، لقد عرفه، أويس! أويس كان مع أفراد المجموعة الذين دخلوا السجن بسبب الفساد الجنسي، أكمل شريط ذكرياته الذي يعود به إلى الوراء، خروجه من الميتم، بكاء الحاجة رحمة على فراقها له، وجوده في المستشفى بسبب فقدانه للذاكرة، سقوط الصندوق على رأسه، مجيء أعضاء جمعية إلى الميتم لتوزيع الألبسة على الأيتام... لحظة! من هذه المرأة التي جاءت معهم؟

ـ هل أعجبتك هذه الملابس؟

ـ نعم كثيرا سيدتي شكرا لك.

ـ أريد أن أخبرك بأمر مهم يجب أن يبقى بيننا سرا في الوقت الراهن.

ـ أخبريني سيدتي.

ـ أولا لا تناديني بسيدتي، أنا اسمي بثينة، اسمع جيدا، واحفظ ما سأقوله لك، غادر الميتم وابحث عن شخص اسمه حسام،

حسام هذا يتواجد بفاس، أخبره أنك ابن أبي عائشة وسيعرِفك، وسيخبرك من أكون أنا.

ـ آسف سيدتي لا يمكنني القيام بما تطلبينه مني، كيف أزور شخصا لا أعرفه ولا أعرفك؟ وفي فاس!!

صمتت بثينة للحظات ثم قالت بعد تردد كان واضحا على وجهها:

ـ حسام هو أبوك يا وحيد، عليك أن تجده، ثم اسأله من أكون أنا، هو أبوك، هو أبوك يا وحيد.

ما زال شريط الذكريات يعود إلى الوراء، إحسان تقول للحاجة رحمة أن على وحيد مغادرة الميتم.

أوقف شريط ذكرياته، لا زال في عالمه مغمى عنه، يفكر، يحلل، حسام والده، ابنته أسيل أخته، الحاجة رحمة أم حسام جدته، هل هو في حلم؟ هل ما رآه في شريط ذكرياته حقيقة؟ نعم حقيقة، لقد عادت ذاكرتي، أصبحتُ أتذكر كل شيء في الميتم، كل شيء، يا إلهي، كيف حصل كل هذا؟ كيف ارتبطت الأحداث بهذه الطريقة؟ سأجن، لا يمكن أن يكون حسام والدي، لا يمكن، ومن هو أبو عائشة؟ وأين هي أختي عائشة؟ لا، لا، لا أصدق هذا.

ـ لا أصدق هذا، لا أصدق، لا أصدق، مستحيل.

ـ مهلا، مهلا وحيد، الحمد لله على سلامتك.

استيقظ وحيد من غيبوبته يصرخ، يتصبب عرقا، لا يدري ماذا يحصل معه، لا يعرف أين يوجد، يحملق برأسه في كل زاوية من زوايا المستشفى، بدأ يعود له وعيه تدريجيا، نظر إلى جوري الواقفة بجانبه، كانت تبتسم له بابتسامة لامعة، تُذكره أنه أصيب في حادثة سير، فعلم سبب تواجده في المستشفى، لكن من جاء به، هل جوري؟ جوري يراها مختلفة عما كانت عليه، تغير شكلها السابق كثيرا، لم يعد وجهها مزيجا من الألوان القذرة والأصباغ المختلطة، لم يعد جسدها يختنق تحت ثيابها الضيقة، ماذا تريد أن تقول هذه الفتاة لحياتها؟ أي شيء تريد أن تكونه؟ هل عزمت حقا على أن تترك عالم الذل والمهانة؟ هذا ما يبدو له.

ـ مَن أتى بي إلى هنا؟

ـ أنا يا وحيد، وجدتك في الشارع قد أغمي عليك فأتيت بك إلى المستشفى.

أخبرته أنها هي من أتت به، أخبرته أنها كانت تلاحق حسام بسيارتها، استغربت لتصرفه مع ابنته وزوجه التي يُلبسها النقاب، فأرادت أن تعرف حقيقة حسام هذا، حسام هذا الذي

يقولون إنه ترك ماضيه وراء ظهره، لكن آثار ذلك الماضي ما زال باديا على تصرفاته وعلى أحد أفراد أسرته، إذن هل يخادع الجمعيات التي يحضر لإلقاء كلماته عندها بخطابه الذي يدعي فيه دفاعه عن النساء وهو في حقيقة أمره شخص آخر؟ لذلك بدأت تراقبه وتلاحقه لتعرف حقيقة أمره، وفي تلك الليلة التي كانت بسيارتها خلفه، رأته يصطدم بوحيد، تركت ملاحقته ونزلت لتتفقد وحيد الذي كان فاقدا للوعي، جرته إلى سيارتها وأخذته إلى المستشفى، كان يستمع لها وحيد دون أن يدرك بعضا مما قالته.

في تلك اللحظات اقتحمت أسيل ومعها حسام وعفاف الغرفة التي يرقد بها وحيد، اقتحموا في هلع وعيونهم جاحظة، طمأنتهم جوري أنه بخير الآن، ولم تحدث له أية كسور، والطبيب قال إن بإمكانه مغادرة المستشفى.

تحدث حسام معه يُهنئه على سلامته، ثم خاطبه يُخبره أنه سيعود معهم إلى الفيلا، أخبره بذلك كأنه يأمره، بينما ابتسمت أسيل وعفاف وجوري لهذا القرار، ابتسمت أسيل وفكرت في أن هذه فرصة أخرى أتتها لتفرض على والديها زواجها بوحيد، وإن رفضا فستطلب منه أن يهربا معا.

أما وحيد فقد ركز عينيه على وجه حسام، أبوه، هذا أبوه إذن، هل أراد أن يتخلص منه بدهسه بسيارته؟ وهذه أخته، ثم ابتسم لما تذكر أن حادثة السير أعادت له ذاكرته، وستعيده إلى الفيلا، كل هذه الأحداث متسلسلة، كان سقوط الصندوق على رأسه سببا في فقدان ذاكرته بعد أن أخبرته بثينة عن الصدمة التي أربكته وهو أن شخصا اسمه حسام هو والده، وكانت حادثة السير سببا في عودة ذاكرته بعد أن تلقى صدمة أخرى من حسام برفض زواج ابنته منه، وبطرده من الفيلا.

فمن بثينة هذه؟ وهل يعلم حسام بأني ابنه؟ وهل تعلم الحاجة رحمة بذلك أيضا؟ يلزم مني معرفة ذلك.

*****

(25)

ها قد غشي الليل غَشاً، ينزل بردائه الأسود كرجل غامض يدفع الناس إلى فروشهم دفعا، يهربون منه خائفين، يقفزون إلى أسرتهم ويلتحفون بأغطيتهم خوفا من أن يدركهم الليل، فالليل إذا غشي الناس بظلامه فروا من الشوارع والأزقة يلجون البيوت والبنايات، فمن هذا الذي يجرؤ أن يواجه الليل؟ من هذا الذي يستطيع مبارزة الليل؟ من هذا الذي يجسر أن يقف في وجه الليل؟ لا أحد، كل من يرى الليل بظلمته وسواده قادما يفسح له الطريق ويدخل بيته ليتركه وحده في الخارج، فمن دخل بيته فهو آمن، بل لا يكفي دخول البيت، فالليل عزيز النفس، لا يرضى أن يأتي ويجد الناس يتزاحمون معه في الشوارع والطرق أو يراقبونه من نوافذ بيوتهم وشرفها، بل لابد أن يأووا إلى فُرشهم. وفي الصباح بعد أن يغادر، يستيقظ الناس من نومهم، وينهضون من أسرتهم مبهوتين، يتساءلون في جزع، هل غادر الليل، هل ذهب إلى حال سبيله، وهذا حالهم معه في كل يوم.

كان الليل يضرب بسواده المدينة، أوى الناس إلى فرشهم، الصمت وسواد الليل يخلع القلوب، وحيد نائم في غرفة جديدة غير التي كان ينام فيها سابقا، أسيل في غرفتها وقد ذهبت في أحلامها إلى عوالم مختلفة، عفاف وحسام في غرفتهما نائمان منذ ساعات.

ينسل حسام من فراشه، يرتفع عنه الغطاء كخيمة يُرفع أوتادها في السماء، ينساب من سريره كالماء، يخطو خطوات ليثب من الغرفة كأنه يطير في السماء، بل يطير فقدماه لا تلامسان الأرض، ينزل على السلم دون أن تلمس قدماه درجاته، يريد أن يواجه الليل كما يواجه النهار، لا أحد يقف في وجه الليل غيره، ولا أحد جعل النهار عدوا له غيره، لا يعرف ليلا ولا نهارا، لا أبيض ولا أسود، هو عدو الكل.

لم يستطع الليل أن يواجه حسام فتحول في طرفة عين إلى نهار، إن في اختلاف الليل والنهار آية لحسام لكنه لا يفقه، هزم حسام الليل وجعله يولي هاربا دون رجعة، عاد النهار مسرورا، يمشي حسام بزهو وافتخار، يدخل المسجد، يصعد المنبر، يأتي الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع خطبته، ومَن ذا الذي يستطيع أن يفوت خطبة حسام؟ الشيخ الذي يصدع بالحق، الشيخ الذي لا يخاف في الله لومة لائم، ينظر إلى أقصى موضع في المسجد ليجده ممتلئا عن آخره، يحس

بالافتخار، يحس بشيء في نفسه، مَن هذا الذي يستطيع أن يجمع حوله كل هذا الخلق غيره؟ يصدع صوته عاليا، يا شباب الإسلام تمسكوا بدين الله، يا شباب الأمة، الأمة تحتاجكم، الزمن زمن الصبر على الشهوات والشبهات، القابض على دينه في زماننا كالقابض على الجمر.

يريد حسام إكمال خطبته، لكن يرى هلع الناس وخوفهم وخروجهم من المسجد مبهوتين، ما الذي حصل؟ الليل، لقد قدم الليل مرة أخرى، يقاوم حسام ليدفعه، يقف في وجهه، الصورة في عينيه تتضبب، يلج الليل في النهار ويلج النهار في الليل، يأتي الليل بسواده فيدفعه حسام ليُبقي على النهار، مزيج من الظلام والضوء يتغيران في ثوان، كأنهما في صراع لينتصر أحدهما على الآخر، انتصر الظلام.

حسام مدعو للمشاركة في ندوة وطنية، تُعطى له الكلمة، يصرخ في الناس، أيها الناس لقد اقتحم التدين الوهابي كل مجالات دنياكم، يلزم محاربة التدين، أقصد التدين الوهابي، هل تريدون منا أن نعود إلى التخلف، إلى الجهل، إلى ألف وأربعمئة سنة مضت؟ لا، لن أسمح بذلك، لن يحدث. يبتسم الناس، يضحكون ساخرين، يختفي أحدهم ثم الآخر، ثم الآخر، يختفي الجمهور واحدا تلو الآخر، يستمر في حديثه وحده، لقد أشرقت الشمس، بل هي في كبد السماء.

يحمل حسام لوحة بين يديه، يدخل بها إلى مسجد في غير وقت الصلاة، يجلس معه بعض أولاد في حلقات، يصغُر في حجمه، يصغر حجمه، أصبح طفلا، يهتز جذعه إلى الأمام والخلف وسط حلقة حفظ القرآن الكريم، عمره أربع عشرة سنة، يأتي شيخه، يُتوِّجه بإكليل من ورد فوق رأسه وعلى صدره، لقد أتم حفظ القرآن الكريم، يرمق أقرانه شامتا فيهم، كسلاء لا يستطيعون حفظ القرآن في وقت قياسي مثله، لكن أين شيخه؟ أين الأولاد الذين كانوا حوله؟ أين المسجد الذي كان يتواجد فيه؟ اختفى كل شيء من أنظاره، وها هو الليل يراه قادما من بعيد، يمسك به شخص من يده حتى لا يسقط، لعله رجل الدولة، بل ليكن حارسه الشخصي، يهرب به، يدخل به إلى مركز علمي.

يجلس حسام لإلقاء محاضرة وأمامه جمهور من الناس يستمعون له، ينتفض في وجه القانون، لماذا يضيقون على حرية التعبير؟ حريٌّ بأن تُعطى للناس وللصحافة حرية التعبير، لمَ يعاقب الرجل إذا سب الإله أو سب الدين أو سب الرسل؟ ألم يتبجحوا بأن الإنسان حر؟ وحريته مكفولة من الدين نفسه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء...

قبل أن يكمل جملته يبصر شاشة ضخمة في الشارع يُعرض عليها فيلما مسيئا للرسول، يصفق، يبتسم ابتسامته الماكرة التي

لا يد له فيها، هذا هو التقدم، هذه هي الحداثة، و... ويأتي ضوء النهار.

يجلس مع تلاميذه، يُقْبِلُ عليهم رجل يسأل عن شيء ثم يمضي إلى حال سبيله، يخاطب تلاميذه، لا تكونوا مثل هذا المبتدع الذي يسبل ثوبه، ما كان تحت الكوعين في النار وهذا في النار، وينهض بتلاميذه لمحاربة البدع، يدخل مسجدا ليجد الناس فيه يقرأون القرآن جماعة، هؤلاء مبتدعة لا تجلسوا معهم، هم في النار، يخرج من المسجد، لكن أين تلاميذه؟ لم يعد يراهم، تركوه وحده لما رأوا الليل قادما. فلتَهربوا، سأواجه الليل بمفردي، هم أيضا أعداؤه لأنهم لا يفرقون بين الدين والدنيا، يجب فصل الدين عن حياة الناس، يلزم منا ألا نُقحم الدين في حياة الناس، لا يمكن أن تسيطر كلمة "حرام" و"حلال" على حياة الناس، بل الصواب ما رآه الناس صوابا، والخطأ ما رآه الناس خطأ، فليذهب تلاميذه إلى الجحيم، وليذهب الحلال والحرام إلى الجحيم أيضا.

أصبح له تلاميذ ومريدون كثر، في فاس والدار البيضاء ومدن الشمال، من يصل إلى علمه وشهرته، من مثله في فصاحته ولغته، من يضاهيه في مكانته عند الناس، بل حتى عند الله، مكانته عند الله كبيرة، أكبر من مكانة العلماء وبعض الصحابة، نعم هو أفضل من بعض الصحابة الذين رفعوا

السيوف على بعضهم البعض، الذين قتلوا بعضهم البعض، هو خير منهم، هو أفضلهم، هو سيد الكون، والكون راكع تحت قدميه يُبجله، نحب الصحابة لكن عندنا موقف من بعضهم، ويمضي.

يمضي إلى بيته، يغلق عليه بابه، يشعل التلفاز، يفتح حاسوبه، يشاهد أفلاما جنسية، يشاهد حتى الثمالة، يخرج من مسكنه، مع الباب تذكر أنه لم يغتسل، لا بأس، حسناته التي تشبه البحار ستغسل سيئاته القليلة، يركب الطائرة إلى المدينة المنورة، لا خير في الدنيا إلا لعالم أو متعلم، وهو الآن عالم ومتعلم، وإن كان في عمر الشباب فهو شيخ حتى لمن هم أكبر منه، يدخل كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ليطلب العلم الشرعي، ما أعظم تواضعه، شاب شيخ ورغم ذلك ما زال يطلب العلم، لا أحد يضاهيه في تواضعه.

لفظته المدينة المنورة، ألفى ذاته في ندوة علمية يحضرها أكابر المفكرين والمثقفين، لم يهيئ الموضوع الذي سيتحدث عنه، فيما يمكن أن يتحدث؟ وجدها.. موضوعه الذي يفلح فيه، المرأة؛ أيها السادة، لقد صدَّع الناس رؤوسنا بكلام أكل عليه الدهر وشرب، يقولون إن الإسلام كرم المرأة، ألا يتعبون، ألم يجهدهم التعب بعد مِن ترديد هذا الشريط دوما؟ أين هو هذا التكريم الذي يتبجحون به كل يوم؟ هل تكريمها هو ضربها،

واضربوهن، هل تكريمها هو الزواج عليها، فانكحوا ما طاب لكم، هل تكريمها هو...؟ وترتفع الأصوات تخرسه، كفى، كفى، كفى، يضع يديه على أذنيه، لا يريد سماع صوت يُسكته، لا يريد أن يسمع أي صوت فوق صوته، تتموه الدنيا أمام عينيه، يتموج الكون تموج البحار.

شمس العصر جعلت من ظله عملاقا، هو في الحقيقة في حجم ظله، عظيم كظله الذي يراه الآن كشجرة الصفصاف الضخمة، عظيم كناطحة السحاب، عظيم مثل أبراج الولايات المتحدة التي تهوي الآن في 11 شتنبر 2001، لكنه لن يهوي مثلها، سيبقى شامخا، لم يحس بالسعادة كهذا اليوم، أحس بالغبطة وهو يشاهد الأبراج تصير ركاما، هذا العرس المبارك الذي لم تكتمل أطواره بعد، بماذا ستكتمل أطواره؟ ماذا يقصد؟ لا يدري، أو لا يريد أن يخبرنا.

يأتي الليل مدججا بظلامه فيرمي حسام بعيدا، بعيدا جدا، يُدخله في شاشة التلفاز، يحوم الناس حول التلفاز ليسمعوا كلام مفكر جديد، ينبغي تجفيف منابر الإرهاب، لابد من مراجعة دروس مادة التربية الإسلامية، لابد من مراقبة خطب منابر الجمعة، يلزم منع النقاب، والتشديد على أصحاب اللحى، يجب سحب الرخص من الحركات الإسلامية فنحن في وقت عصيب، وتسأله المذيعة الجالسة أمامه بكامل أنوثتها عن

طريقة ذلك، لكنه لم يجبها، ذهب ذهنه إلى زمان سحيق، زمان كان يتحدث فيه عن الحركات الإسلامية أيضا، إن كان الآن يصفهم بالإرهاب، فقد كان في ذلك الوقت الذي ذهب إليه ذهنه يُكفرهم، نعم هم كفار لأنهم يشتغلون بالسياسة، وكل من يشتغل بالسياسة فهو كافر، ويجلس بجلبابه ولحيته في مقر الجمعية ليخطب خطبته التي عنونها ب "ألا له الخلق والأمر"، فالخلق لله والأمر والحكم لله، فمن حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، والدولة كافرة، والمجتمع الذي يطيعها كافر، والحركات التي تسمي نفسها إسلامية وتشتغل بالسياسة كافرة أيضا.

ويختفي المقر، ويختفي منظمو المحاضرة، ويختفي النهار ليأتي الليل مدججا بأسلحته، يتصارع حسام معه، يهزمه الليل، يدخل إلى جمعية روفيدا، محاضرة عن حقوق المرأة، يدعو إلى إلغاء منع زواج المسلمة بغير المسلم، فكما يحق أن يتزوج المسلم بغير المسلمة، فكذلك من حق المسلمة الزواج بغير المسلم، يدعو إلى إباحة زواج المتعة، شبابنا يجدون عسرا في الزواج في هذا الزمان، والحل هو إباحة زواج المتعة، فليتفق العروسان على أيام يتزوجانها ثم لابأس إن ترك أحدهما الآخر بعد أن يقضي أحدهما وطره من الآخر، ينادي بإلحاق الابن الذي ولد خارج إطار الزواج بأبيه، نعم يلزم إلحاقه بأبيه وإن لم يتزوج الرجل بتلك المرأة، يعتبر صلاة التراويح التي

يتحمس الناس لصلاتها في رمضان مجرد بدعة، بدعة عمر بن الخطاب، فقد ابتدع في الدين ما ليس فيه، لذلك حري بالناس ترك بدعته، وينادي...

لقد تعب اليوم، سيعود إلى غرفة نومه ليستريح، يصعد السلم دون أن تلمس قدماه درجاته، تنفتح له باب غرفته لوحدها مرحبة به وبانتصاراته التي حققها، يُنزل الغطاء أوتاده ليُغطيه بعد معركته المبهرة، امرأته ما تزال نائمة، هي لا تفهم شيئا في الحياة، فلترقد روحها في سلام، وينام.

ويأتيانه رجلان ضخمان، يقتحمان غرفته، يأخذانه من ذراعيه، لقد عرفهما، أو عرف أحدهما، أحدهما ذلك الرجل ذو المستوى الكبير في الدولة الذي يكون معه دائما، والآخر هو نفسه، حارسه الشخصي، كلاهما واحد، يريدان إعادته إلى السجن، يتوسل إليهما أن يتركاه، أن يعطياه فرصة أخرى، سيجتهد أكثر في الانتصار للحداثة وللنور وللتنوير، كأنهما لا يسمعانه، كأنهما لا يأبهان بتوسلاته، يهبطان به درجات السلم، سأدعو للمساواة في الإرث بين الذكر والأنثى، سأعتبر القرآن يفتقر إلى تفسير جديد، لفهم جديد، سأفعل كل شيء ينتصر للحداثة، لكنهما أصمان لا يسمعان.

استيقظ حسام من نومه فزعا بصرخة مجلجلة اهتز لها قلب عفاف التي استيقظت هي الأخرى، أفزعها زوجها المائل بجذعه إلى الأمام يشهق ويزفر في خوف ورعب.

ـ ما بك يا حسام؟

ـ لا عليك، عودي لنومك، مجرد كابوس فقط.

ـ دائما أوصيك بقراءة القرآن قبل نومك.

ـ قلت لك عودي لنومك يا امرأة، هل تريدين أن تدخليني السجن، أقصد.. لا شأن لك بي، عودي، عودي لنومك.

صرخ في وجهها بغضب مقطب الحاجبين، ثم أعطى لها ظهره واختفى تحت ملاءته.

*****

(26)

لم يخرج وحيد من الصدمة بعد، لم يستوعب أن يكون حسام هو والده، كيف ذلك؟ وكيف وجد نفسه معه في الفيلا منذ سنوات دون أن يدرك أنه أبوه، هذه الأحداث حيرته بشدة، خرج من الميتم منذ سبع سنوات للبحث عن أبيه، وللبحث عن أسرته التي تشكل له الروح أيضا، ولما يئس من البحث ألفى نفسه مع أبيه في البيت، بل أكثرُ حيرة أن تتكفل به امرأة لسبع سنوات ثم بعدها يكتشف أنها جدته، هذه المرأة التي اتصل بها عدة مرات في اليومين الماضيين، لكن هاتفها مغلق، أراد أن يُخبرها عن الحقيقة التي عرفها، أراد بلهفة وتحفز أن يقول لها إن ذلك الابن الذي طردك من البيت هو عينه الذي طردني من البيت أيضا، هو ابنك، وهو أبي، وأنتِ جدتي، لكن لا يدري لمَ أغلقت هاتفها.

ثم من هو أبو عائشة؟ أكذبت عليه إحسان طول هذه السنوات؟ لا، لم تكذب عليه، حتى بثينة قالت إنه ابن أبي عائشة، وأن حسام كذلك أبوه، ما هذه التناقضات التي يعيشها،

أله أبوان اثنان؟ إن في الأمر شيئا غامضا لا يعلمه، حياة حسام متناقضة، ولا شك أن هناك خيوطا لم يتوصل إليها بعد.

وبثينة التي اتصلت به من تكون؟ بثينة هي من أخبرته عن حسام، وقالت إنه سيعلم من تكون عندما يتحدث مع حسام في هذا الأمر، فهل حان الوقت ليتحدث معه بشأنه وشأنها أم يؤجل ذلك حتى يستوعب أمر حياته جيدا؟ ما هذا الهراء الذي يعيشه؟ هل تمزح معه الحياة؟ هل حقا يعيش الواقع وليست سيناريوهات يختارها مخرج فيلم كيفما يشاء؟

كان وحيد في غرفته ما يزال في دهشته، فمع علمه بحقيقة الرجل الذي يعيش معه، رأى شيئا آخر أربكه، رأى اختلاف معاملة حسام معه وإن كانت تلك المعاملة بطريقة غير مباشرة، معاملته تحسنت معه بعض الشيء، فقد منحه غرفة جديدة أوسع من الأولى وأكثر نظافة ونقاء، غرفة داخل الفيلا وليست مثل غرفته القديمة أسفلها، فهل هذا الكرم ليُعوِّض به حسام طرده من الفيلا أم لأنه أضحى يعرف أنه ابنه؟ وكيف عرف ذلك؟ أم كان يعرف ذلك من قبل وما أسيل في الدار البيضاء إلا طُعم ابتلعه؟!

أخرجته أسيل من أفكاره التي لا تنتهي عندما سمع طرقا على باب غرفته وصوتُها يأتيه من الخارج يستأذنه للدخول،

عدَّل من هندامه وأذِن لها بالدخول، سألته عن حاله وهل ما زال يُحس بأثرٍ للحادثة؟ طمأنها أنه بخير، صمتت أسيل بعضَ الصمتِ تتهيأ للحديث، كأنها تريد أن تُفصح عن أمر ما، التفت وحيد إلى عينيها فارتبك قلبه، علم من خلال عينيها ما تريد قوله.

ـ أريد أن أقترح عليك أمرا مهما يا وحيد.

لم يقل شيئا، لبثت مقلتاه ترمق ملامحها في إشفاق، كأنه يعلم ما تريد قوله، حرك رأسه في استكانة وانكسار إرضاء لها، أخبرته بأكثر مما كان يتوقع، ستطلب من والديها أن يُعجلا بعرسهما، فإن رفضا فقد قررت أن تهرب معه إلى الدار البيضاء، عندها شقة هناك جعلها والدها باسمها كما يعلم ذلك، سيقيمان فيها بعد زواجهما.

إذن أسيل خططت لكل شيء، وقد ذهبت في خطتها إلى أبعد مما كان يتصوره، ووضعت حلولا احتياطية إذا تعرضت بداية خطتها للفشل، أطرق وحيد برأسه أرضا، لا يدري هل يسمح للدموع المترقرقة في عينيه الآن بالهبوط فيبكي، أم يستمر على صمته، أم ماذا يفعل؟ هل يُخبرها بأنها أخته؟ ويا مصيبتاه التي وقع فيها، يا رباه ما هذه البلوى التي أصابته، طامة كبرى من يُنقذه منها؟ اجتاح قلبه حزن شديد، أخته تحبه وتريده زوجا

لها، أراد أن يسب حسام، أراد أن يلعنه في سره فلم يستطع، كل هذه المصائب التي عاشها وما زال يعيشها، حسام من تسبب فيها، سببُها شهوة حسام القذرة، ويا ليته اكتفى بذلك، لكن الخَطب الجلل أنه ما زال يدعو الشباب إلى اقتحام حصون النساء ورمي الأطفال الأبرياء من مرتفعات شاهقة.

ـ ما رأيك يا وحيد؟

أخرجته أسيل من لعناته التي كاد يصبها صبا على حسام، ثم انتبه إلى أنها تسأله عن رأيه وعليه أن يجيبها، صَمت برهة، جمع شأوه في قلبه بشجاعة وحزم، لكن صوته خذله فخرج حزينا يعمه التأسف والاعتذار:

ـ تزوجي غيري يا أسيل، لا أستطيع أن أتزوج بك بتاتا الآن.

خرجت آخر كلمة من فم وحيد نوطة موسيقية انتهى الموسيقار من عزفها ثم أفسح الفرصة للكون بأن يعبر عن مدى إعجابه بسيمفونيته، لكن وحيد فسح المجال ليرى ردة فعل أسيل، فلم تكن ردة فعلها تختلف عن ردة فعل الكون كله وهو الصمت المخيف، الصمت القاتل، الصمت الذي لا يدري المرء ما الذي سيكون بعده، الصمت الذي يعقبه الدمار، فمِثْلُ هذا الصمت لا يكون بعده إلا كوارث وزلازل وبراكين وفيضانات، هل ستُزلزل أسيل الأرض تحت قدميه؟ هل

ستُخرج فوهة بركانها ألسنة من اللهب تحرقه بها، هل سيفيض بحر غضبها عليه، ينظر إليها بطرفي عينه فيرى مقلتيها شاخصة نحوه، يكاد البؤبؤ يثب من محجري عينيها، لو تحدثت لكان الأمر أهون عليه من هذا الصمت المقلق.

ـ أتعي ما تقوله يا وحيد؟ هل تعي أني أنزل من برجي العالي وأتواضع لأطلب الزواج من يتيم بشع متشرد مثلك، وأنت اليتيم البائس تتمنع وترفض؟

ـ أسيل، حبا في الله انسي أمر هذا الزواج، أنت تستحقين زوجا خيرا مني.

صفعته، نعم صفعته، اترك نصائحك لنفسك، هذه الدموع التي تنزل على خدودي ستحاسبك، هذا القلب الذي جرحته سيمزق قلبك، تقول هذا بعد أن جعلتني أحبك ويتعلق قلبي بك.

خرجت أسيل وصفقت الباب وراءها بقوة حتى هبت الريح في وجه وحيد بقوة، وسُمع صوت الباب في كل الأرجاء، أما وحيد فأطلق سراح الدموع التي حبسها، ومضى يبكي بكاء مريرا.

*****

دخلت أسيل في نوبة بكاء واكتئاب وعزلة لمدة أسبوع، أمها تستغيث، أبوها يتوسل لها أن تترك بكاءها وعزلتها، ولا مجيب، لا يجيبهما إلا نحيبها وبكاؤها وصراخها، عَلِما في ذلك الأسبوع من وحيد سبب ما هي عليه، أخبرهما أنها اقترحت عليه الهروب معه إلى الدار البيضاء والزواج بها، لكنه رفض ذلك.

بعد أسبوع كان يتواصل فيه حسام مع أويس، أقنعه بالعدول عن رأيه، والوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه بأن يتزوج من أسيل، أويس زعم أنه كان في حالة نفسية حرجة مما جعله يعتزل كل الناس، وطلب من حسام أن يأتيه إلى شقته الجديدة بعد أن أعطاه عنوانها ليتأكد هو نفسه من حالته، ولما قدم عليه وجده كما قال، نحل جسده من المرض. لكنه بدأ يتعافى الآن، أو على الأصح أقنعه حسام أنه بدأ يتعافى، وأقنعه بالمجيئ معه لعل أسيل تراه فتعود لها روحها وتترك العزلة والنشيج.

ولما جاءا وسمعت صوت أويس، تمنعت أكثر، أخذت تصرخ وتطلب منه الرحيل، فما كان من حسام إلا أن كسر قفل الباب واقتحموا غرفتها. وجدوها هي الأخرى قد نحل جسدها، ذهبت نضارتها وجمالها الذي كان لا يضاهيها فيه أحد، ظهرت بثور على وجهها وجسدها، برزت هالات سوداء تحت عينيها من شدة البكاء وقلة النوم، ورأت هي الأخرى أن أويس

قد نحل جسده بشكل غريب حتى وجدت نفسها قد وقفت عن الصراخ والنشيج دون أن تشعر، جحظت عيناها فيه في خوف ورعب مما أصابه، اقترب من سريرها وضمها إليه تحت نظرات والديها.

أما عفاف فخرجت متجهمة الوجه، هي لا تتحمل أن ترى ابنتها تحت ذراعي هذا الذئب الخبيث، بل لا تريد أن يأخذ أيا كان ابنتها في ذراعيه ما لم يكن حِلا لها، أما حسام فقد ابتسم وأحس بحبور وسعادة عندما رآها قد استكانت تحت ذراعيه، واستسلمت له كأنه سحرها بسحر لا قوة لها على رده، تركهما حسام والحب الحرام يلفهما، انسحب من الغرفة وتركهم ثلاثتهم، أويس وأسيل وابنهما الذي في بطنها، بطنها التي أصبحت بارزة بشكل واضح، هي الآن في شهرها السادس من حملها، وهناك من يقول إن ثالثهما هو الشيطان.

*****

(27)

لم يكف وحيد عن الاتصال بالحاجة رحمة، في كل مرة لا يجد صدى لاتصالاته المتكررة، هاتفها مغلق، أخذ الخوف يتسرب إلى كيانه، يخاف أن يكون قد أصابها مكروه، يخشى أن تكون مريضة، أو في أبأس الأحوال أن تكون ميتة، جاءته هذه الخاطرة، أن تكون الحاجة رحمة متوفاة فهذه مصيبة، نفض رأسه من هذه الوساوس التي لا يستطيع تحملها، لا يتحمل أن تفارق الحاجة رحمة الحياة، والأفظع أن تفارقها دون أن تودعه.

أسابيع من الاتصال دون مجيب، يستوجب منه أن يفعل شيئا، لا يستحسن به أن يستمر مكتوف اليدين، قرر السفر إلى الدار البيضاء لزيارتها، سيفعل ذلك، لابد أن يطلع على أحوالها، وما إن أخرج حقيبة ظهر استعدادا للسفر حتى سمع اتصالا على هاتفه المتنقل، ارتعش قلبه، طفق يخفق بقوة، لعل المتصل الحاجة رحمة، لا، ربما المتصلة مديرة مركز الوفاء

تريد أن تخبره بأمر سيء، أو ربما... كان ما زال يُفكر عندما أجاب على الاتصال دون أن يشعر مُرحبا بالمتصل.

ـ وحيد هل أنت بخير؟

دُهش وحيد لهذا الصوت الأنثوي الذي يسأله بخوف وقلق عن حاله، كان الصوت يبدو عليه التوتر ومتحفز ليعرف أحوال وحيد، وكأنه خاف أن يجده قد فارق الحياة، أخبرها أنه بخير، سألها من تكون.

ـ أنا بثينة، بثينة يا وحيد، قيل لي إنك تعرضت لحادثة سير و...

ـ بثينة!!

صمت برهة يتذكر شيئا، يجمع كل ما يعرفه عن هذه المرأة في ذهنه، وبعدها قرر العتاب.

ـ أرجوك لا تلعبي معي هذه اللعبة السخيفة، أخبريني من تكونين؟ وماذا تعرفين عني؟

ثار وحيد في شاشة الهاتف المتنقل، يسأل المتصلة به عمن تكون، امرأة غامضة مثل حسام، يتذكر اتصالها الأول به عندما سألته هل يتذكرها، وكان فاقدا للذاكرة حينها ولم يتذكرها، أما الآن فيتذكرها، لأنه تذكر لقاءها معه في الميتم،

لذلك لابد أن هذه المرأة حلقة في سلسلة حياته، ويجب أن يعرف ماذا تخبئ له الحياة معها.

ـ أعلم يا بثينة أنك تعرفين عني كل شيء، أخبريني بالله عليك ماذا تعرفين عني ولا تتركيني كورقة الخريف تهب بها الريح في كل مكان.

خرس صوت بثينة، لعلها تبكي، تبكي لأنه ناداها باسمها، بثينة! لو يعلم من تكون ما ناداها باسمها! ثم إنه غضب في وجهها وقال إنه يعاني جراء جهله مَن يكون. بعد قليل تحدثت.

ـ اسمع يا وحيد... سآتي إلى فاس قريبا جدا... ستعرف كل شيء... أعدك.

هي تعرفُ عني كل شيء... زارتني في الدار البيضاء... أبوك حسام... أنت ابن أبي عائشة... وتقيم في فاس، من تكون هذه المرأة الغامضة؟

لكن أمرها لم يشغله عما اعتزم القيام به، زيارة أعز امرأة على قلبه، أمه رحمة، خرج بحقيبة ظهر ليُخبر عفاف عما عزم القيام به، صادف حسام في ردهة الفيلا، سأله عن وجهته فأخبره بما قرره، صمت حسام برهة من الزمن ثم هتف:

ـ سأرافقك لزيارتها يا وحيد، ستذهب معي في سيارتي.

لم يقدر وحيد أن يرفض طلبه الذي جاء في صيغة الأمر كما يحدث مع أهل هذه الدار دائما، ثم إن الحاجة رحمة أمه وهو يحتاج زيارتها، فكم مضت يا ترى من السنوات ولم يزرها؟ اللعنة على هذا الابن العاق، يعيش في القصور وأمه رمى بها لتنهشها الأمراض والسنون.

أما حسام فمنذ أكثر من شهر ترك لقاءاته ومواعيده وندواته ومحاضراته، كيف يمكنه إبرام هذه المواعيد، أو التحضير لهذه اللقاءات ونفسه في حالة سيئة، بدأت حالته تستاء مذ علم بأن ابنته حبلى، ثم ازدادت سوءا بعد أن علم أن وحيد ابنه، وزادت قطرات السواد عندما رأى أمه في الدار البيضاء وحالتها المنهارة وطريقة حديثها معه، وانضافت قطرات أخرى إلى كأس ذاته عندما ذكرتْه بثينة بماضيه، بل المصيبة التي ألجمته إلجاما أن ابنته تريد الزواج من أخيها، جعله ذلك يغضب ويستاء إلى درجة الانهيار، لأول مرة يرفض طلبا لابنته، ثم جاءت روفيدا لتهدده بالشريط الجنسي، أفلا ينهار؟ أفلا يدخل الملاهي الليلة ويشرب الخمر ويترك كل مواعيده ولقاءاته؟ بلى، وذلك ما فعله.

ساعات الطريق من فاس إلى الدار البيضاء مرت أغلبها على حسام ووحيد صامتة، هل يجلس خلفهما حارسه الشخصي حتى يقطع عليهما هذا الصمت؟ لم يكن أحد منهما يجسر على

التحدث في موضوع ما، ما إن يسأل أحدهما سؤالا حتى يجيب الآخر بالإثبات أو النفي، حديثهما انحسر عن الطعام، الشراب، التعب، قربُ الوصول، ثم الوصول وانتهى الكلام بينهما.

كان وحيد طول الطريق يفكر في الحاجة رحمة، أذهله هرمها الذي تضاعف بعد سنة ونصف فقط من تركه للميتم، حينما زارها بعد تلك السنة ونصف كانت قد هرمت، أما الآن وقد مضت سنوات منذ تلك الزيارة لها فيخشى أن يجدها قد شاخت بشكل مُخيف.

حسام كذلك كان يفكر في أمه، لكن تفكيره ذهب به إلى سنواته في السجن، كانت تزوره في السجن، لكن في كل مرة كانت تلمحه بنظرات شك وريبة، ترى ابنها قد شرع يترك مبادئه، طريقة حديثه تغيرت، كان يُحس أنها مطمئنة عليه من جانب، لكن من جانب آخر وجلة عليه، مطمئنة لأن ما كانت تطلبه منه أن يتركه قبل أن يدخل السجن قد تركه، ترك غلظته وجفاءه، لكنه انحرف إلى اليسار بشكل مخيف.

وصلا إلى مركز الوفاء لرعاية المسنين، دخلا إلى إدارة مديرة المركز يطلبان منها السماح لهما بزيارة الحاجة رحمة، طلبت منهما الجلوس، حدقت المديرة في حسام بحقد دفين، لو كانت تلك النظرات تأكل لابتلعته بها دون أن تمضغه، سألته

عمن يكون، أجاب أنه ابنها، ابنها! آ الآن تذكر أنه ابنها، أنَّ له أمًّا!؟ أنَّ تكون له أم؟ أين كان طوال هذه السنوات؟ سألته ذلك السؤال، أين كنت في هذه السنوات الخمس عشرة؟ لم يجبها، طأطأ رأسه في ذل ومهانة، أما هي فصمتت تنتظر جوابه إمعانا في إحراجه وإذلاله، يرفع رأسه ببطء ليرى أنها ما زالت ترمقه ببغض يكاد يأكله.

ـ عظم الله أجركم، أمك توفيت أيها المفكر العظيم والشيخ القديم.

هل حقا الكون الآن كله صموت من الذهول؟ هل هذا الصمت المريب يُعبر به الكون عن تضامنه معهما، وعزائه لهما، الأجفان توقفت عن الرمش في ذهول، القلوب توقفت عن الخفقان، الدماء توقفت في أنهار الشرايين عن جريانها، الأيدي أصيبت بالشلل، الألسن أصابها البكم، ورقة الخريف توقفت في منتصف الطريق، لا تدري أتكمل طريقها إلى الأرض أم تعود إلى موضعها في الشجرة.

ـ توفيت مذ ما يقارب الشهر، لم نكن نعرف أحدا من أفراد عائلتها، لذلك غسلناها ودفنها في المقبرة.

أسمعتِ أيتها الآذان ما قالته؟ أحقا قالت إنها توفيت؟ كأنهما سمعا أنها قالت إن الحاجة رحمة توفيت! ماتت منذ ما يقارب

الشهر، بالضبط بعد يوم مِن إخبار حسام زوجه عفاف بأن أسيل أخت وحيد، وبالضبط كذلك عندما كان وحيد متواجدا بالمستشفى، أدركا الآن أنها تتحدث عن موت الحاجة رحمة.

أما حسام فبدا كأبله ينظر إلى مديرة المركز دون ردة فعل، كأنه ذُهب بعقله، أما وحيد فقد انهار بكاء، يبكي بشدة، يبكي بكاء مريرا، يصرخ، دموع على خدوده تجري، ينتفض، يسقط أرضا، يأتونه بالماء، تمسكه الخادمات، يصبِّرونه، لكنه انهار، وأكملت ورقة الخريف سقوطها.

كان وحيد مِن قبل قد عزم زيارة الميتم، اشترى معه بعض الحلويات والمشروبات ليأخذها لهم، لكنه الآن لا رغبة له في ذلك، ترك ما كان معه لمديرة المركز لتأخذه للأيتام، أما هي فقد سلمته ورقة، قالت إنها رسالة من الحاجة رحمة له، أوصت أن تُعطى لوحيد وأن يقرأها بمفرده بعد أن يكون في حالة جيدة، وألا يقرأها إلا وهو في حالة جيدة.

عاد حسام ووحيد إلى فاس، رافقهما الطريق في صمت، كل منهما يسبح في عالم لوحده، حسام لم تنسل ولو دمعة واحدة من عينيه، لم يخفق قلبه، فما سمعه لعله يقتضي منه أياما ليستوعبه، فقد استمر في صمته وشيء مِما يمكن أن نعبر عنه بالذهول.

وحيد حاقد عليه حقدا مريرا، كل ما يقع له من بؤس، حسام سببه، كل ما يتجرعه من آلام وأحزان، حسام مَن تسببه فيه، وكل ما قاسته أمه رحمة حسام سببه أيضا، هذا الشخص لو يطاوعه قلبه لقتله، لكن قلبه هذا لا يطاوعه لذلك إذ يعلم حرمة القتل، لذلك ترك ذهنه يعود ليعيش مع الحاجة رحمة أيامه في الميتم.

تذكرها لمَّا كانت تسهر لياليها عندما كان على فراش المرض، تضع خرقة مبللة على جبينه، كان مريضا بالحمى، ارتفعت درجة حرارته بشكل مخيف، كان يهذي ويتكلم بكلام مخيف غير مفهوم، وكانت تمسك بيده وتبكي، تردد ولدي حبيبي، لبثت معه ليلة كاملة، ليلة بيضاء لم تنم فيها، ولم يطرف لها جفن، أما هو فقد نام حتى الزوال، استيقظ ليجدها ما زالت معه، تبكي، عندما رأته قد استيقظ من نومه وهذيانه، ابتسمت له وبشت في وجهه.

كان حسام أيضا يتذكر الحاجة رحمة، يتذكر لمَّا كانت فخورة به، كان كل يوم خميس بعد صلاة العصر يجتمع حوله ثلة من النساء ليعظهن وينصحهن، وفي كل أسبوع تنضاف نساء أخريات لمحاضرات حسام العلمية، وكان من بين الحاضرات أمه، يراها تبتسم فخورة بابنها الشاب البار المطيع، محاضرته اليوم عن بر الوالدين، فلا تقل لهما أف ولا

تنهرهما وقل لهما قولا كريما، إذا كانت مجرد كلمة أف منهي عنها، فماذا نقول لمن يضربهما، بل الأدهى والأمر مَن يضعهما في دور العجزة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كانت تأتيه بالحلويات إلى الميتم، وتطلب منه أن يقتسمها مع أصدقائه الأيتام إن شاء، فيأخذها لهم، ويقول لهم هذه هدية من الحاجة رحمة، فتنتظر له مسرورة، مفتخرة بابنها الذي أصبح فتى بالغا.

جاءته بجلباب جديد، أعجبه، ارتداه، أخبرته أنه يلائمه مع لحيته المزيتة، وطوله الفارع، قبَّل يدها ورأسها، أخبرها أنه يحتفظ لها بمفاجأة ستسرها، ابتسمت في تحفز تنتظر المفاجأة، فاجأها أنه سيأخذها معه لأداء مناسك الحج، كادت يومها تطير فرحا وسرورا، أخبرت كل معارفها عن المفاجأة التي فاجأها بها ولدها، قضت مناسك الحج، بل أخذها بعد ذلك لزيارة الجامعة التي يدرس فيها في المدينة المنورة.

كانت دائما معه في دراسته، وما كان يُسعدها أنه يحصل على المراتب الأولى دائما، ويحصد الجوائز المخصصة للمراتب الأولى، بل تكون في الصفوف الأولى تراقبه بحنو وفرح وهو يعتلي المنصة لتُعطَى له الجائزة، وإذا بها تسمع مقدمة البرنامج الثقافي تنادي عليها من بين الصفوف لتصعد

إلى المنصة لتسلِّم وحيد جائزته وشهادته، فتنفجر التصفيقات ولقطات المصور فرحا بهما.

تُصلي في المسجد الذي يخطب فيه، تحب صوته الجهور، وصدحه بالحق، كانت رنة صوته تطربها، وكان يعتمد كثيرا على السجع بقوافيه وفواصله، بل إن صوته في مكبر الصوت يصل إلى أحياء بعيدة مِن المسجد، وإن كانت تحب فيه كل هذا، إلا أنها لا تحب تشدده، توصيه دائما أن يترك التشدد، وتذكره بقول الرسول، ما شاد الدين أحد إلا غلبه، إلا أنه لا يأبه لنصائحها.

نجيا بأعجوبة من عدة حوادث سير عند رجوعهما إلى فاس، كان حسام يقود سيارته كأنه ما زال مبتدئا، كان غائبا عن وعيه، صامتا صمت القبور، كأنه أصيب بصدمة ولم يفلح بعد في التعبير عنها، فلو بكى ودمعت عيناه لاسترح من أثر الصدمة، لكن عدم ردة فعله جعلت استجابته للصدمة تنحبس في نفسه وقلبه، أو ربما أن الخبر لمْ يشكل له أي صدمة، فماذا حصل؟ امرأة توفيت، أولَمْ تمت هذه المرأة منذ سنوات في قلبه؟ هي ماتت منذ سنين، فلمَ يبكي عليها الآن وينتحب؟

تلقت عفاف هذا الخبر بالبكاء والنشيج، كأنها كانت تعلم أن الحاجة رحمة توفيت، لعنت حسام في داخلها ألف مرة، تذكرت

يوم طلبت منه الطلاق إذا أصر على عناده وعدم إرجاع أمه إلى البيت، لكن ومن يأبه لها ولتهديدها ولتوسلاتها.

*****

(28)

يُقْدِم الإنسان في أحايين كثيرة على أفعال أو ربما أقوال يحسب أنه يُحسن بها صنعا، ولا خوف عليه أو على غيره من فعلها أو قولها، وإذا بها في حقيقة الأمر خطيرة تُظل سعيه، لو علم الناطق بها قبل نُطقها خطرها ما تلفظ بها؛ كم من حروب بين دول نشبت بسبب كلمة، كم من قتلى راحوا ضحية كلمة، وكم من أسر تفككت وانهارت بسبب كلمة، كم من نفوس أزهقت بسبب كلمة، وكم من كلمة تهوي بصاحبها سبعين خريفا، هبوطا لا قعر له.

حسام كان هو من سيقذف بهذه الكلمة التي ستزلزل عرش أسرته زلزالا لم يكن يتصور مثله، يا ليته بقي صامتا، فقد مضى أسبوع منذ علمه بوفاة أمه ولم يتكلم من حينها، استمر مختارا الصمت لأسبوع كامل، ليس لأنه فقد النطق بل لأنه أراد أن يخرس، لعله علم أن لسانه لا يأتيه منه إلا المتاعب، ربما وجد في الكلمات التي يتفوه بها وقود نار تشتعل في كل

مكان فأراد أن يطفئ النار بإغلاق قنينة الوقود، فيا ليته استمر في صمته، لكن هذا الصمت لم يستمر فكان الخَطْب جللا.

كانت النار تشتعل في صدره لمَّا علم أمورا أذهلته، هل يتكلم أم يصمت؟ إن سكت على ذلك فتلك مصيبة في حق ابنته أسيل، وإن تحدث فالمصيبة أعظم في حقها أيضا، كانت تتضارب في رأسه أفكار وخواطر كثيرة، تأخذ بتلابيب ثيابه وتهزه هزا، كاد يصل به الأمر إلى الجنون، يلعن اليوم الذي عرف فيه أويس، يلعن اليوم الذي فتح فيه بابه ليدخل بيته ولحياة ابنته، بل يلعن اليوم الذي تجرأ فيه ليشجع الشباب على العلاقات الجنسية الحرة، لكن إن كان الذي حصل قد حصل فيجب أن يُصلح ما يمكن إصلاحه إن لا زال معه في الوقت بقية.

دخل الصالة ليجد ابنته فيها، الكل يعلم أنه أصبح لا يتحدث مع أحد لذلك لم تستغرب أسيل أن يجلس بجانبها دون أن يتحدث معها بكلمة، كانت مشغولة بمحادثات في هاتفها، وكان يريد الحديث معها لكن لا يدري كيف السبيل لها؟ يا ليته يجد كلمات تنزل عليه من السماء لتُسعفه في الحديث، وتكون بردا وسلاما على قلب أسيل، وتُخرجه من مأزقه الذي وقع فيه، لكن لم يهتد لهذه الكلمات.

بعد لحظات أرادت أسيل أن تُخرجه من صمته عندما التفتت إليه لتحدثه، كانت فرصة ذهبية له كمائدة من السماء نزلت عليه.

ـ أبي أقترح أن نتزوج أنا وأويس قبل أن أضع مولودي، ربما لا يليق أن أنجب مولودي الأول ونحن لم نتزوج بعد.

أعطته خيط الكلام ليتحدث، هذه فرصة مواتية ليقول ما كان يعتلي صدره، لكنه ارتبك، ارتعشت شفتاه، اهتزت كفاه خوفا، دقات قلبه ترتفع بمجرد أن عزم على النطق، بمجرد أن فكر، كأنه يريد أن يبكي، تلمحه أسيل في دهشة وإشفاق، هل فقد النطق حقا؟ ألم يعد يتحدث؟ ما به أبي؟ لكنه تحدث.

ـ ابنتي أسيل... اسمعي ما سأقوله لك جيدا... أرجوك أن تتفهمي ما ستسمعينه...

رمقته بحيرة! ما المفاجأة التي يُخبئها لها هذه المرة؟! ما المصيبة التي يريد أن يُنزلها على رأسها مرة أخرى؟ تعلم من خلال نظراته وحركاته أن ما سيتفوه به لا يبشر بخير، وأن الذي سيقوله يخصها هي بالضبط، ألن يكفوا بعد عن مضايقتها؟ لقد استسلمت لكل ما يُمليانه عليها، فماذا ينتظرها مرة أخرى؟ كانت أسيل تحملق في أبيها بهلع، قلبها كناقوس مسيحي يدعوها لصلاة الجنازة عليها، ودمعات عمّت

محجريها وتنتظر أن تُعطَى لهم الانطلاقة ليشرعوا في مسابقة الجري، وها قد أعطِي لهم ذلك، أعطي لهم ذلك بشكل متقطع.

ـ أريد أن أخبرك... سأشرح لك... أريد أن أقول... نعم أريد أن أقول إن عليك... أن تنسي.... نعم هذا ما أريد أن أقوله، أن تنسي...

ـ ماذا هناك أبي؟ تحدث، أفصح عما تود قوله!!

ـ أسيل... انسي أمر الزواج... مِن... من أويس... أويس لا يمكن... لا يمكن أن يكون زوجا لك.

ناقوس مسيحي مجلجل في صدرها، عيونها شاخصة تكاد تقفز من حدقتيها، الدموع وإن مُنح لها الانطلاق للسباق إلا أنها توقفت في مكانها تستغرب ما تسمعه كما تستغربه أسيل. تبتسم أسيل بسخرية كأنها أصيبت بالجنون، تضحك كامرأة حمقاء، تقهقه، هل أصابها الجنون حقا؟ تشير إلى أبيها بأصبعها وتسأله ساخرة مستهزئة.

ـ أتدري ما تتفوه به يا حسام؟ هل أنت في وعيك يا رجل؟

لا لستَ رجلا، أنت شيطان في صورة إنسان.

ما الذي أصاب هذه الأسرة حتى تتفوه فتاة بهذا الكلام في حق أبيها؟ بل مضت أسيل تقول كلاما لم يخطر على بال أبيها

يوما، تسبه بأقذر الكلمات، تلعنه، كانت هائجة بشكل مجنون، كانت عاصفة تأتي على الأخضر واليابس فتذروه في كل مكان، أبوها يهدئ من أمرها ليشرح لها كل شيء بالتفصيل، لكن هل العاصفة تهدأ إذا قامت؟ ومتى هدأت عاصفة من العواصف قبل بلوغ مأربها، العاصفة لا تهدأ حتى تقتلع الأشجار، وتهدم الدور، وتجعل الوديان تفيض بالماء العكر، وتبعثر الأشياء بعثرة مقززة. وقفت أسيل تصرخ، تبكي، تسب أباها سبا لاذعا، ولم يكن منه إلا أن صمت لعلها تهدأ وبعدها يشرح لها كل شيء بالتفصيل، لكنها لم تصمت، تشتعل بشكل رهيب، غضب لم ير والدها مثله.

في لحظة قامت وانصرفت بغضب تلقاء غرفتها كعادتها، لعل أياما من العزلة تنتظرها فيها. لا، لم تقصد غرفتها، بل شرفة الفيلا المطلة على الخارج، هل تريد أن تتنفس الهواء بعد أن أحست بصدرها يختنق؟ استيقظ حسام من غفلته، أدرك ما تود ابنته فعله، لا تقصد استنشاق الهواء البارد، بل تريد إلقاء نفسها من الشرفة المرتفعة. يجري بأقصى سرعة ليلحق بها، يصرخ صراخا مهولا مرعبا عندما أبصرها تحاول الوقوف على الشرفة مستعدة لتنفيذ القرار الذي قررته، وقبل أن يلحق بها بمتر واحد وقد مد يده ليمسك بتلابيب ثيابها، إذا

بها تقفز من الشرفة العالية المرتفعة، هل ستهوي على أم رأسها؟

كل شيء حول الفيلا توقف ليشاهد هذا المشهد المريع، الكلاب توقفت عن النباح تحملق في أسيل كأنها تهوي ببطء من الشرفة، كأنهم يشاهدون مشهدا من فيلم يتحرك بتثاقل، القطط أمسكت عن موائها تنظر في غير اكتراث، لكن في ذهول، الرياح تجمدت في الجو وكفَّت عن تحريك أوراق الأشجار، ورقة الخريف هي الأخرى تراجعت عن الانتحار بعدما رأت بني الإنسان يفعل ذلك عوضا عنها، الخدم أسفل الفيلا ذهلوا عندما سمعوا الصراخ وما تراه أعينهم الآن، وحيد هو الآخر ترك المعول من يديه في الحديقة واتجه نحو الصوت ليرى أمرا مروعا يحدث أمامه، أسيل أقدمت على الانتحار ورمت بنفسها من الشرفة!! يضع يديه على وجهه كي لا يرى هذا الخطب الذي يخلع القلوب، وإذا بصوت ارتطامها بالأرض قد جمد الدم في عروقه.

بعد دقائق كانت كالدهر على من اجتمع حول أسيل في صراخ وعويل كانت سيارة الإسعاف قد حضرت، وضعوا لها قناع الأكسجين بسرعة، حملوها بين الحياة والموت، لا يدري أحد هل فارقت الحياة أم ستفارقها بعد لحظات، أما وأن تبقى

على قيد الحياة مع ما رأوه من مشهد مرعب، من دماء وكسور، فهو أمر مستبعد.

وصل والدا أسيل ووحيد إلى المركز الاستشفائي الجامعي الحسن الثاني بفاس، ركضٌ مستعر في أروقة جناح الطوارئ، وفي النهاية تختفي أسيل التي حُملت على خشبة الموت وراء باب موصد لا يسمح لأحد بالدخول، ويُفرض على من جاء ليُشيعها أن يمكثوا في قاعة الانتظار، لبث حسام وعفاف ووحيد في قاعة الانتظار، بعد ساعات وساعات كانت كالدهر الذي لا نهاية له خرج الطبيب ليعلن لهم وهم في ترقب وإعياء وذهول وهلع أنها على قيد الحياة.

لكن البشرى أحيانا تكون ملفوفة في لهب من نار، فإن كان المقصود بالحياة أن الروح لم تفارق الجسد، فإن الروح لم تفارق الجسد وإن كان هذا الجسد دون حراك، فهي على قيد الحياة، لكنها فاقدة للوعي، جمجمتها تكسرت جراء سقوطها على رأسها، وجهها تهشم ولم تعد تلك الأسيل النضرة، بل لم يعد وجهها وجه أنثى، كل هذا مع تسرب الدم إلى الدماغ أدى إلى انقطاع الأكسجين عنه، مما تسبَب لها في تلف بالغ لوظائف الدماغ.

لكنهم سيحاولون ما أمكن ـ وهي تحت المراقبة ـ أن ينقذوها من الموت، الموت الذي يعيش فيها الآن، فهي ما زالت على قيد الحياة تتنفس بمساعدة الأجهزة، لكنها ميتة حقيقة، قال لهم الطبيب إن لم تستيقظ خلال ثلاثة أيام فربما لن تفعل ذلك أبدا، وهل يستيقظ الموتى إلا في دار أخرى؟

وقبل أن يغادر الطبيب بخطوات عاد ليكمل مآسيه التي نزلت على رؤوسهم كخناجر حادة مهووسة بحفر أخاديد في قشرة الرأس، أخبرهم أن جنينها توفي في بطنها، فقاموا بإجهاضه، وهل سيعيش؟!! وأخبرهم كذلك أنها تعرضت لنزيف حاد فأزالوا رحمها كذلك، لم يكن لهم خيار آخر، مما يعني أنها إن عاشت فلن تنجب مرة أخرى أبدا. إن عاشت فلن تأتي ببائس آخر إلى هذه الحياة.

في تلك اللحظات التحقت بالمستشفى امرأة تلهث يعرفها حسام، ولا يعرفها غيره، لا، بل وحيد كأنه يعرفها، ينظر إليها ويحاول أن يتذكر أين رآها، فلم تسعفه ذاكرته حتى سمع حسام يناديها باسمها، ينادي عليها ببثينة، حينها تذكرها.

*****

قبل هذه الأحداث، أي قبل أن يتحدث حسام مع ابنته أسيل، سنضطر الآن لشرح ما كان يريد أن يوضحه لها بعد أن

أخبرها باستحالة زواجها من أويس، فقد كان علم خبرا أذهله، اتصل به طبيب الأسرة ليخبره أن أويس في حالة خطيرة في المستشفى، ولما توجه نحو المستشفى وجد أويس قد ذبل ذبولا مهولا، نحف جسده بشكل مرعب، ذبلت ملامح وجهه وفقد وسامته، أصبح كشبح مرعب، سأل حسام الطبيب عن الأمر، فأخبره أنه في مراحل متقدمة جدا من إصابته بداء فقدان المناعة المكتسبة (السيدا/الإيدز)، وأن المرض انتقل إليه جنسيا بمخالطته لمجموع من المصابات بهذا المرض.

كان أويس المصاب بهذا المرض قد فَقَدَ جسده المناعة التي تجعله يواجه الأمراض، فَقَدْ أصبح جسمه عرضة لكل الأمراض، الأسلحة التي كان الجسم يستعملها إذا ما هجم عليه مرض معين فقدها الآن، كان أويس يفكر في غبائه، كيف استبدل أسلحة جسمه بشهواته التي لا حدود لها؟ جاءته الأمراض من كل ناحية، لم يستطع جسده مقاومة تلك الأمراض بالأدوية إلا برهة من الزمن، وبعد أن خسر كل ما كان معه من مال، بل التجأ إلى الاقتراض لعله يدفع عنه المرض، لكن لم تستمر مقاومته للمرض بالأدوية، لأن جنودا كانت في جسده تدافع عنه أنهكتْها الشهوات فاستسلمت.

بعدَ تلك الأمراض التي هجمت عليه وجعلته طريح الفراش لا يستطيع الحراك، لا يستطيع أن يذهب ويجيء ويتحرك

ويلعب ويدرس ويستمتع بالحياة كما كان يفعل من قبل، بل ولا يستطع حتى إحضار كوب ماء لنفسه، بعدها استسلم لهذه الأمراض في استكانة وانقياد فنهشت جسده نهشا، وزاده ضعفا وذبولا معرفة أهله مصدر هذا المرض، فانضاف إلى مرضه فضيحته أمام أهله وعائلته والناس أجمعين.

ضعف جسده بشكل مهول، لم يستطع المقاومة أو الممانعة، انتقل به المرض إلى شلل شبه تام جعله يندم على اليوم الذي خطى برجله إلى ما كان يفعله، ويندم على يده التي لمست وتمتعت، ويندم على كل جوارحه التي متعها، وها هي الآن لا تسعفه، ها هي الآن لا تطاوعه عندما يأمرها بالحركة، تنتقم منه، رغم أن كل ما كان يفعله إنما كان يفعله من أجلها، من أجل أن يمتعها، لكنها اليوم ضده.

انتقل به المرض بسرعة إلى أمر لو فكر فيه من قبل لما أقدم على ما أقدم عليه، انتقل به إلى التغوط والتبول على ذاته، وأمام أهله الذين يراقبونه في شفقة وذهول، وأعينهم قد سالت منها الدموع كأنهار من الماء، يُفكر أنه لم يستح من الناس وهو فوق رمال الشاطئ، فكيف يستحيي من أهله الآن وهو يتبول على ذاته؟ فالجزاء من جنس العمل.

هذا المرض لم يكتف منه بهذا الذي حصل له فقط، بل ذهب معه إلى أمر آخر، أمر شنيع، بدأ أويس يفقد عقله تدريجيا، فلم يعد يتذكر مَن حوله، ولا مَن التي جعلها حبلى. تذكر أنه كان ينسى مَن حوله وهو في غمرة لذَّاته، فها هو ينسى في هذه اللحظات كل الناس، فلا يدري ما يفعل، ولا يحس بأحد مرَّ بجانبه أو نظر إليه، استمر حاله كذلك، طريح الفراش، مشلول الأعضاء، فاقد العقل، متبولا على نفسه...

*****

(29)

عندما يموت الإنسان يُشيعه أهله إلى مثواه الأخير، إلى قبره، يدفنونه ثم يعودون إلى منازلهم ويتركونه وحده، كذلك فعل حسام وأهله، شيعوا أسيل إلى قبر المستشفى، تركوها هناك دون حراك ثم عادوا بأجساد ونفوس منهارة، وبغصص تنهش قلوبهم، وبآلام لا يبدو أنهم سيشفون من جراحها قريبا، جاءت معهم بثينة، وكان حسام قد حكى لعفاف في تلك الليلة عنها، لم تكن عفاف في حالة جيدة حتى تهتم بما يعتري النساء من مشاعر الغيرة، أو أن تفكر في نوع العلاقة التي تجمعها بحسام الآن، كما أنها ترى حسام قد أخرس لسانه منذ أكثر من أسبوع، فلم تكن الأجواء مناسبة لسؤاله عن علاقته الآن بها.

وحيد كان يبكي في صمت، اجتمعت في رأسه آلاف الأفكار، الآن هو مقتنع أن كل ما يحدث من خُطوب ودواهي حسام هو من أحدثها، لم يستطع كتم غيظه في قلبه أكثر، فبمجرد أن وصلوا إلى الفيلا انفجر في حسام، يشير له بأصبعه قرب عينيه بثورة عارمة، يتهمه أن كل ما يقع هو متورط فيه.

ـ كل ما يحدث بسببك يا حسام... تعرضي للتشرد واليتم بسببك... شقاء أمي رحمة وموتها بسببك... أسيل التي كانت حامل ثم أقدمت على الانتحار بسببك... تعرضي لحادثة سير بسببك...

كان حسام مطرقا برأسه لا يجيب ولا يُبدي أي ردة فعل، لكن لما سمعه يتهمه بأنه سبب تعرضه لحادة سير رفع رأسه إليه كأنه يستفهم منه، وإن كانت نظراته التائهة الحائرة لا تنطق بأي كلمة، تابع وحيد حديثه بغضب يُخبرهم أن مَن صدمه بسيارته هو حسام، كان ثملا كما أخبروه، ولم يشعر إلا وهو يرديه طريحا على الرصيف، وضعت بثينة يدها على فمها من الهلع والدهشة، فوجدها وحيد فرصة ثم أشار إليها بيده.

ـ أنت... أخبريني من أنت؟ ماذا تعرفين عني؟ اليوم ستخبراني بكل شيء، لن يخرس لسان أحدكما حتى أسمع الحقيقة كما هي.

كانوا جالسين في الصالة، عفاف بدون نقابها، لم تعد تضع نقابها مع وحيد بعد أن علمت أنه ابن حسام، وبجانب عفاف يجلس حسام، وبجانبه بثينة، ووحيد منتصب فوق رؤوسهم

مكفهر الوجه بشدة، طلبت منه بثينة أن يهدأ وسيشرحان له كل شيء، حتى حسام الذي خرس لسانه تحدث:

ـ صحيح ما قالته بثينة، سنخبرك بكل شيء، لكن اهدأ يا وحيد، اهدأ.

هدأ وحيد وأزال جلباب الغضب، منحهم أذنيه ليلتقط بهما ما سيسمعه من حقائق، شرع حسام وبثينة يتحدثان بالتناوب عن حقائق خفية، حقائق يعترفان بها لأول مرة، يعترفان بكل شيء، كل شيء.

*****

وُلد أبو عائشة بمدينة الدار البيضاء، نشأ في بيت علم وفضل، شرع في حفظ القرآن في سن العاشرة من عمره، حضر في صغره مجالس بعض كبار العلماء والدعاة، وتلقى أولى مبادئ العلم على يد بعض مشايخ الدار البيضاء، التحق بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وحصل بها على إجازة في كلية الشريعة، وفي هذه الأثناء وقبلها وبعدها، كان يلقي دروسا وخطبا، كان له صوت جهور ونبرة كلحن الموسيقى تجعل كل من يسمعه ينصتُ له بافتخار ويحوم حول مجالسه.

في هذه الأثناء أحس بالعظمة، أحس بأن له وزنا كبيرا في المجتمع، هذا الإحساس امتزج في قلبه عندما كان صغيرا

يحفظ القرآن ويحضر دروس علماء كبار رغم صغره، لكن الآن اكتمل هذا الشعور في ذاته، وجد نفسه عظيما، عَظُمَ في ذاته وعند الناس، هو لا يدري إلى حد الآن لمَ يُحس بالعظمة، لا يدري ذلك على الإطلاق، لا يفهم لمَ كل هذا الحب لذاته حتى يكاد يؤلهها.

بعد شعوره بأن له شأن عظيم، عنَّ له أن يُكني ذاته باسم يليق به، اسم له وزن كبير وإن كان في مرحلة الشباب، اعتزم أن يسمي نفسه "أبو عائشة"، ليس لأنه متزوج وله ابنة اسمها عائشة، أو يريد أن يتزوج فينجب ابنة اسمها عائشة؛ لكن لأن هذا الاسم له رمزيته، ولأن كل شيوخه يكنون أنفسهم بأبي فلان أو فلانة، فاختار لذاته ذلك الاسم ليرتفع نسبه بين الخلائق حتى قبل أن يكون زوجا أو أبا.

لكن وأمام هذا الشعور الطاغي، وأمام تفخيم الناس له وإجلالهم لشخصيته، إذ إن كل الناس يرون فيه شخصا مهابا، مع هذا كله كانت له شخصية أخرى لا يعرفها إلا بعض الناس، بل لا يعرفها إلا بعض البعض. عندما تَحُلُّ فيه هذه الشخصية الثانية ينسى شخصيته الأولى كأنها غير موجودة، وشخصيته الثانية مناقضة للأولى تماما، فما تَنهى عنه شخصيته الأولى تقوم به شخصيته الثانية، وما تأمر به شخصيته الأولى تتجنبه شخصيته الثانية، كأنه يُبغض

شخصيته الأولى ويريد أن يغيظها، هكذا وجد ذاته دون شعور تريد شخصيته الثانية أن تخالف ما تقوله شخصيته الأولى، دون أن يشعر!

كانت شخصية أبي عائشة تأمر الناس في المساجد بالمحافظة على الصلاة، فتأتي شخصية حسام عنما يكون في سفر أو بعيدا عن أعين الناس ليخالف ذلك ويتركها كليا، وكان أبو عائشة ينهى الناس عبر تسجيلات صوتية عن شرب الخمر، لكن حسام يشربه خفية، نعم يشربه عندما يكون بمفرده ولا يخجل من ذلك أمام ذاته، كان ينهى أبو عائشة أصحابه الشباب والمراهقين عن مشاهدة الأفلام الإباحية، لكن لا يرتاح حسام وهو في بيته حتى يُغلق عليه بابه ويشاهدها، كان أبو عائشة يأمر بالخير، لكن حسام لا يفعل من ذلك شيئا إلا ما يظهر للناس أو ما يعتبره من باب الخير الإنساني لا الديني، غريب أمره! كان أبو عائشة ينهى الشباب في مجالسه عن العلاقات الجنسية، فيأتي حسام وكأنه أحد الشباب الذين كانوا جالسين معه ولم يقتنع بكلامه ليفعل ذلك دون أن يَدري، بل يدري أنه قبل قليل كان ينهى الشباب عنه، هو لا يفهم لمَ يخالف ذاته، لا يعرف، لمَ يُلام على شيء فوق وسعه؟ لمَ يُحملونه ما لا طاقة له به؟!

كانت النساء تحضر دروسه أيضا، وكان يحتفي بهن ويُشجعهن على حضور دروسه، فطَلَبُ العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، يكررها بصوت عال، وكانت عيونه تتجول بينهن لترى ما لا يجب على شيخ رؤيته في درس علم.

في أحد الأيام جاءته امرأة تسأله عن مسألة تخص النساء، أعجبته، نعم أعجبته وطفق يتفرس في وجهها الأبيض، يتأمل تقوس حاجبيها الأسودين الذين آثراه، طلب منها أن تعطيه رقم هاتفها وسيجيبها فيما بعد، فالجواب على هذه المسألة لا يحضره الآن، وكانت تلك بدايته مع بثينة، كان ذلك سنة 2000، وكان قد بلغ من العمر 26 سنة، كان يتواصل معها عبر الهاتف، ومع مرور الليالي نسيتْ بثينة شخصيته الأولى وأصبحت تعرف شخصيته الثانية فقط، تعرف حسام الذي أبحرت معه في كلام الحب والغزل، أبحرا في محيطات عميقة جدا، وكانا يستمتعان بها، وعدها بالزواج، فاجأته أنها تعرِفُ أنه متزوج، تزوج منذ أشهرٍ بعد أن عاد من المدينة المنورة حيث كان يدرس، تعرِفُ أنه متزوج وتتحدث معه! وما العيب في ذلك، أليس التعدد جائز في دين شخصيته الأولى، وثقتْ به، خرجت معه وقد ارتدى لباسه الكلاسيكي معها في عدة ليال.

بعد سنتين من الحب الحرام بالنسبة لأبي عائشة، ومن الحب الحلال بالنسبة لحسام، وبالضبط في بداية سنة 2002، اكتمل

البدر في سمائه والظلمة على فراشهما، فقد أخبرته أنها حبلى منه، أنكر ذلك، غضب، اتهمها بالجنون، أزال اللوم عن نفسه وألصقه بها بما أنها لم تحتط لهذا الأمر جيدا، ماذا سيقول الناس عنه الآن؟ كيف ستكون نظراتهم له؟ طلب منها أن تسكت عن هذا الأمر وسيجد حلا لهذه المشكلة، وافقت على مضض.

أما حسام فعاد إلى مجالس وعظِه وتذكيره وتنبيهه، فاستمرت شخصية الخيلاء تنتفخ وتتبختر وتتغطرس، خصوصا بعد أن شرع خلق كثير يحتشدون حوله، بعد أن اقتحم حصونا وخطوطا حمراء لم يستطع أحد تجاوزها، فالناس الآن يحجون من كل فج عميق ليحضروا دروسه وخطبه المثيرة؟ تجبرت ذاته عنده، عظم في نفسه، وفي الآن ذاته باشر يُقلل مِن شأن مَن هم في سنه، ثم ارتفع ليُقلل مِن شأن من علموه ودرسوه، ثم ارتفع لينتقص من علماء وأعلام في غابر الأزمان، ثم ارتفع لينتقص من بعض الصحابة، ولما رأى نفسه فوق الكل، أطلق لسانه للتكفير والتبديع، يكفر فلانا ويُبدع الجماعة الفلانية، ويطلق لسانه السليط مع تلامذته سبا وقدحا فيمن يخالف طريقته حتى وإن كان ذلك من غير سبب يُذكر. في يوم من الأيام وهو مع مُريديه، أقبل عليهم رجل أصفر الشعر، فقال لهم، ها هو كافر مقبل عليكم، كأن الوحي

نزل عليه ليُنبئه بمُعتقد ذلك الشخص، ولما حياهم الرجل بالتحية التي يُحيي بها حسام أصحابه خاصة، تراجع في ثانية عن قوله، وقال إذن هو مسلم!، هكذا يُكفر ويُسلم لهم بدينهم بكل بساطة.

أما بثينة فأصبحت بطنها تكبر شيئا فشيئا، وأصبحت الريبة والشك تخالط قلبي أبويها، فكم يكفيها مِن فستان فضفاض تلبسه ليستر بطنها؟ لكن هيهات هيهات، مَن يوقف بطنا منتفخة. سألتها أمها ما هذا؟ فأنكرت. كبرت البطن، وأعاد والدها السؤال، فاختلقت قصة من ناصيتها الكاذبة، قالت إنها تعرضت للاغتصاب فخافت من غضبهما ولم تخبرهما بشيء، لم يصدقاها، تلك كذبة كانت ككذبة أبريل، قصة مختلقة لا بداية ولا نهاية لها، وحتى سياقها غير منتظم، اكتشف أبواها كذبها إذن، فكان جزاؤها أن طرداها من البيت خوفا من الفضيحة. حينها ترجت أبا عائشة أن يتزوجها، توسلت له أن يسترها، لكن قلبه كان صخرة صماء، صحراء قاحلة.

عاشت خارج بيت أهلها ثلاثة أشهر، كان أبو عائشة من ينفق عليها وعلى شقتها التي استأجرها لها، أو على الأصح كان حسام من يفعل ذلك، حتى وصلت تلك الليلة المشؤومة بالنسبة لها حيث وضعت مولودها في المستشفى، كانت ليلة مشؤومة، ليلة مكفهرة تعصف بكل شيء، استمر حالها كذلك

بالنهار أيضا، علم أبو عائشة بوضعها لجنينها، فما إن خرجت من المستشفى في اليوم الثالث حتى أخذ منها مولودها وانصرف به حيث لا تعلم أين أخذه، وماذا فعل به.

بعدها أمرها أن تنسى قصة الطفل، أن تنسى أمره نهائيا، بكت، ولولت، طلبت أن يعيد لها ابنها، ترجته، توسلت له، هددته بأنها ستخبر زوجه، زوجه التي على وشك أن تضع مولودها هي الأخرى، لكن دون جدوى. ما أنقذ آلامها وجروحها هو سائح فرنسي، التقت به، كانت مرشدة سياحية له، تُعرِّفه مآثر البيضاء ومعالمها، أُعجِب بها، تزوجها وأخذها إلى فرنسا. ورغم ذلك كانت تتواصل مع حسام وتترجاه أن يُخبرها عن مكان تواجد ابنها، لكنه يرفض لها ذلك.

بعد خريف تساقطت فيه بعض أوراقه، جاء الربيع لتزهر أوراقه الأخرى بإنجاب زوجه عفاف لفتاة اختار لها اسم أسيل تيمنا بأسيل عمران مغنية سعودية تعيش في الإمارات، ومن يدري أنه اختار لها هذا الاسم تيمنا بتلك المغنية؟ رفضت زوجه هذا الاسم، لكن مَن يُقنع الحجر أن الحجر حجر.

بعدها بشهرين وقعت وقائع بعثرت كل أوراقه، وبالضبط يوم 16 ماي 2003، وقعت تفجيرات إرهابية في الدار البيضاء، كانت سلسلة من الهجمات المتزامنة بالأحزمة الناسفة، منفذو

الهجمات من تلاميذ أبي عائشة، تلاميذه المواظبون على دروسه والذين يرون فيه شخصية فذة لن يُنجب التاريخ مثلها، سمعوا لسانه يلهج بالتكفير والتبديع، فرفضوا أن تبقى تلك الكلمات معلقة في الهواء لذا عنّ لهم إنزالها إلى أرض الواقع، جاءوا من منطقة سيدي مومن، وهي ضاحية فقيرة في الدار البيضاء، وعدَهم أبو عائشة بأن الجنة الحقيقية هي التي تنتظرهم، فيجب الإسراع لدخولها، ولم يجدوا طريقا أقصر ليتخلصوا من فقرهم ويدخلوا جنتهم الموعودة غير قيامهم بتلك التفجيرات. لكن أبا عائشة لم يقصد أن ذلك أقصر طريق للجنة، لكنه كان أقصر طريق لتتخلص أرواحهم من أجسادهم.

في يوم 12 يونيو 2003 تم اعتقال أبي عائشة وإدخاله السجن، بعد جلسات عدة للمحاكمة، حُكم عليه بثلاثين سنة سجنا نافذا. دخل السجن وترك زوجه عفاف التي تزوجت به لأنها لا تعرف إلا شخصيته الأولى المعتدلة، فتبين لها الآن أن له شخصيتين، معتدلة ومتشددة، ثم ستعلم فيما بعد أن له شخصية ثالثة، شخصية منحلة مائعة. صبرت عفاف وضحت بكل شيء من أجله، استمرت في عفافها وطهرها وهو في السجن، ترك أيضا ابنته البالغة من العمر تسعين يوما.

في السجن جاءته شخصية حسام تلومه، توبخه، تتهمه أن شخصيته الأولى هي من أودت به إلى السجن وعليه أن

يتخلص منها، أقر لها بذلك، ومن حينها بدأ يتخلص من شخصيته الأولى، من أبي عائشة، وباشرت تكبر في نفسه شخصية حسام، حتى اندثرت الأولى كليا وسطعت الثانية شيئا فشيئا. لذلك تم العفو عنه سنة 2012 بعد تسع سنين من السجن في صراع مرير مع شخصياته، دخل وهو أبو عائشة وخرج وهو حسام، تخلى عن الاسم الذي كناه لنفسه، وعن كل ما له علاقة بذلك الاسم، وخرج بالاسم الذي اختارته أمه له، حسام، لكن أمه هذه يلزم منه أن يتخلص منها، لأنها تذكره بالماضي، فهي من ربته على الأخلاق والدين، والأخلاق والدين خطران عليه، قد يعودان به إلى السجن، من يدري؟ لذلك بعد أشهر من خروجه، أدخل أمه الحاجة رحمة مركز رعاية المسنين.

أيصدق أحد أنه إلى حد الآن لا يفهم لمَ فعل ذلك بأمه؟ يُقسم بأغلظ الأيمان أنه لا يصدق ما فعله، لكن باح لوحيد همسا أنه يريد أن يُثبت للدولة أنه تغير، خصوصا وأن الدولة على حسب ما يزعمه حسام أنها جعلت شخصا رفيع المستوى في الدولة يراقبه حيثما حل وارتحل، فكلما رآه زاد ابتعادا عن شخصيته الأولى واقترابا من شخصيته الثانية، بل حتى يهرب من السجن أكثر غيَّر المدينة التي ولد فيها، واتجه نحو فاس،

أمَّا لِمَ لمْ يطلب من زوجه عفاف أن تخلع عنها نقابها، فهو لا يعلم سبب ذلك!

بعد أن علمت بثينة بخروجه من السجن، اتصلت به تترجاه أن يُخبرها بمكان تواجد وحيد، وفي كل مرة يرفض ذلك، حتى لَان قلبه وأذعن سنة 2020، أخبرها أنه وضعه في جمعية الإحسان لرعاية الأيتام. جاءت من فرنسا مهرولة لترى ابنها، رأته ومنحته ما أحضرته معها من هدايا، ثم أخبرته أن أباه الحقيقي هو حسام، وهو أبو عائشة، لكنها لما عادت بعد ست سنوات منذ آخر سفرها إلى المغرب، حيث إن زوجها الفرنسي كان يمنعها من السفر، بعدها وجدت أن وحيد قد غادر الميتم، لكنها حصلت على رقمه، في حين أن وحيد كان يتواجد في فاس في فيلا حسام الذي لا يعرف عنه شيئا حتى دخله الشك يوم أن تحدث وحيد معه عن حياته الماضية التي عاشها يتيما ومتشردا، بعدها سافر إلى الدار البيضاء وسأل عن اسمه فأخبروه أنهم سَمَوْه وحيد، فعلم حينها أن مَن معه في البيت هو ابنه، وعلمت ذلك بثينة أيضا، ثم عرفا أنه قد فقد الذاكرة.

ـ وقد استرجعتها بسبب حادثة السير التي تعرضتُ لها.

قالها وحيد بعد أن انتهى حسام وبثينة من اعترافاتهما، لكن ذلك لم يطفئ غضب وحيد، بل جعله يشتعل أكثر، إذن هو ابن

غير شرعي وإن كان والداه أمامه، ثار وحيد فيهما بغضب، ينسب لهما كل بؤس وكل شدة عاشها، هدأته بثينة بأنها ستعمل على أخذه معها إلى فرنسا، لكنه رفض ذلك وكأنها أشعلت وقود غضبه من جديد، فكاد يسبها، بل كان يلعنها في سره ويلعن فرنسا التي حرمته منها.

في تلك اللحظات الثائرة انتبه الكل إلى حسام الذي كان يتمتم بكلمات غير واضحة، ثم أخذ صوته يرتفع ويتحدث بكلام غير مفهوم كأنه أصيب بالخبل، لا يفهم أحد من كلامه شيئا، عفاف تسأله ما به، لكنه لا يراها، يرى فقط حارسه الشخصي. بعد لحظات جاءته رسالة إلى هاتفه وما إن رأى الرسالة حتى شرع يقهقه ويضحك بصوت مرتفع كالمجنون، سحبت عفاف الهاتف المحمول من يده لترى ما الذي جعله يجن.

وجدت رسالة تخبره أنها نشرت أشرطته الجنسية في مواقع التواصل الاجتماعي، وإذا بعفاف تدخل لتلك الروابط التي أرسلتهم روفيدا فتجد أشرطة جنسية منشورة على الملأ يشاهدها آلاف الناس، تماسكت عفاف، لكنْ قدماها لم تحملاها فسقطت على الأريكة جالسة، تنظر في الفراغ بذهول، آه كم خانها هذا الزوج، كم صبرت عليه لكن لا يبدو أنه يريد أن يُصلح ذاته، فهل ستصبر عليه بعد الآن؟

ما زال حسام يهذي بكلمات بدأت تتضح.

ـ جاؤوا ليعيدوني إلى السجن، جاء ذلك الرجل ذو المستوى الرفيع ليُرجعني إلى السجن، لم يعد حارسي الشخصي الآن.

ثم أخذ يشير بيده إلى الباب، ينظرون حيث يشير ولا يرون أحدا، ارتفع صوته خوفا، ارتفع صراخه يترجاهم ألا يأخذوه إلى السجن، يعدهم أنه سيبذل أكثر مما في وسعه ليُحيِي في نفسه شخصية حسام، وليجعلها شخصية عظيمة بعد أن جعلتها هذه الأحداث الأخيرة تنهار، لكنهم لم يأبوا له، أخذ يجري ويفر ويراوغهم من زاوية إلى زاوية في الصالة يهرب من أشباح تريد الإمساك به، وأخيرا تخلص منهم وهرب خارج الفيلا، خرج منها ولم يعد.

*****

(30)

مضت ستة أشهر تغيرت فيها كثير من الأمور، أسيل ما زالت في غيبوبتها لم تستيقظ بعد، رغم أن الطبيب قال إذا لم تستيقظ في غضون ثلاثة أيام فلن تفعل ذلك أبدا، أما وحيد فسيدخل عش الزوجية قريبا، اتفق وجوري بعد تلميحات من بعضهما البعض على الزواج، وإن كانت تكبره بأكثر من خمس سنوات. خطبها من عمٍّ لها كان يتواجد بفاس.

مذ أيام فقط تذكر وحيد الرسالة التي كانت الحاجة رحمة كتبتها له، كان قد أخفاها في غرفته ونسي أمرها، فتحها لتُذكره بأمه رحمة ولتجعل الدموع تنسل من عينيه.

"حبيبي وحيد.. أنا متأكدة أنك تقرأ هذه الأحرف وأنا تحت التراب قد فارقت الحياة، لا تقلق علي، فأنا أحسن ظني بربي ولِي يقِين أنه سيُكرم ضيافتي، فأن أكون بجوار ربي خير لي من جوار ابني حسام الذي جاء في يوم من الأيام يطلب مني أن أعود معه إلى البيت، لكن رفضتْ كرامتي ذلك، أما هل

عفوت عنه أم لا؟ فصدقني أني لا أدري هل أنا راضية عنه أم ساخطة؟

حبيبي وحيد.. أريد أن أخبرك أن كل ما حدث معك في فاس كنت أعرفه، لا تنزعج أرجوك، كنت أتابع أخبارك لحظة بلحظة منذ أن عرفتَ أني أم حسام، كنتُ في تواصل مستمر مع عفاف يا حبيبي وحيد، عفاف تلك المرأة العظيمة لمْ ينقطع تواصلي معها منذ أن فرَّط حسام في أمه، كنا في تواصل دائم حتى أنسى أحيانا أني في دار العجزة، لا شك أنها تفعل ذلك دون علم حسام، وحينما اطَّلعتَ على صورتي وأخبرتَها بمعرفتك بي، أخبرتني عفاف بذلك، لم تصبر حتى باحت لي بذلك وهي تطير سعادة وفرحا.

حبيبي وحيد.. تحدثت معي اليوم عفاف، ما سمعته منها جعلني أقترب من القبر كثيرا، أنا مريضة جدا اليوم بما سمعته، ولا أخال أني سأعيش بعد اليوم، أخبرتني أن حسام أخبرها أنك أخو أسيل، وأخبرتني قبل ذلك أن أسيل تريدك... لا، لا. يا رباه ما يجب أن يحدث ذلك، يا لها من مصيبة أوقعَنا فيها حسام، حسام شر عظيم على أهل الأرض، لكن سأكون مرتاحة في قبري لأن عفاف وعدتني أنها لن تسمح بحدوث ذلك، طبعا لن تسمح بزواج الإخوة.

حبيبي وحيد.. أشعر أن نـهايتي اقتربت، لا أستطيع أن أكتب لك كثيرا، أرجوك اصبر عندما تعلم بموتي، تحلَّ بالصبر يا بني، ثم إذا أغدق الله عليك من نعمائه وأنا لي يقين أنه سيفعل ذلك فالله أرحم مِن أن يجعل حياتك بائسة طول عمرك، إذا أصابتك نفحات الغنى فلا تنس إخوانك الأيتام، زرهم متى سنحت لك الفرصة بذلك، بل أسس جمعية للأيتام إن استطعت إلى ذلك سبيلا.

أمك المخلصة في حبها لك رحمة"

بكى وحيد كثيرا يومها، وبعد أن اتفق مع جوري على الزواج، وليُحقق لأمه رحمة مبتغاها اعتزم مع جوري أن تتحول جمعيتها إلى جمعية للأيتام، وافقت على ذلك بسعادة، وأخذت من حينها في تغيير مقر الجمعية ليكون ملائما لمقصده الجديد.

أما حسام فبعد يومين من تلك الليلة وجدوه نائما في المقابر، أخذوه إلى المستشفى، ثم قرر الطبيب أخذه إلى مصحة نفسية. عفاف ما زالت في الفيلا تنتظر ما ستسفر عنه حالة حسام لتقرر أتستمر في زواجها به أم أنها ستطلب منه الطلاق؟

بعد عدة جلسات نفسية عرف الطبيب المشكل الذي يعاني منه حسام، أخبر عفاف ووحيد وجوري أنه يعاني من الانفصام

في الشخصية، هذا الانفصام بدأ معه منذ شبابه عندما كان يرى الناس تجتمع حوله، حينها أخذ هذا المرض يجثم على كيانه، لكنه لم يكن بحدة في البداية، والنقطة التي ارتكز عليها مرضه وكان يحوم حولها هو مرض جنون العظمة، كان يحس بنفسه عظيما وهو يخطب في الناس. لكن كانت هناك شخصية أخرى في الوقت ذاته لم يكن يهتم لها، وهي شخصيته العادية، كانت هذه الشخصية تلومه، ولكي يُصمتها يفعل أمورا مخالفة لما تقوله شخصيته التي يراها الناس عظيمة، ومن هنا باشر المرض ينتشر في عقله، حتى أنه في أحايين كثيرة ينسى إحدى شخصياته عندما يكون مع الأخرى، فيظن نفسه شخصا آخر، وهنا تبين أنه مصاب بمرض آخر غير انفصام في الشخصية وهو فقدان الذاكرة النفسي الفصامي، حيث ينسى كليا شخصية حسام عندما يكون مع شخصية أبي عائشة، وينسى شخصية أبا عائشة عندما يكون مع حسام، وهذا المرض الثاني هو اضطراب فصامي نفسي حدث له بسبب توتر عصبي حينما لم يستطع الجمع بين الشخصيتين اللتين تعيشان فيه، وبسبب الصدمة النفسية التي حدثت أثناء علمه بأن بثينة حبلى، لذلك يترجح أن يكون ذلك المولود هو الآخر مصابا بمرض فقدان الذاكرة النفسي الفصامي لأنه... هنا أخبر وحيد الطبيب أنه حقا قد أصيب به، وأنه ابن حسام وبثينة.

يُكمل الطبيب ويخبرهم أن بعد دخول أبي عائشة السجن، رأى رأي العين شخصيتين أمامه، لنسمي إحداهما أبا عائشة والأخرى حسام، فيرى شخصية أبا عائشة هي من أتت به إلى السجن، ويرى شخصية حسام أنه لم يعط لها حقها، فيُقرر في السجن قتل أبي عائشة، نعم حسام اعتقد حقيقة وهو في السجن أنه قتل أبا عائشة، وكان يخاف أن يُسجن سنوات أخرى لهذه الجريمة التي ارتكبها، لذلك يُخفي عن زملائه في السجن أنه قتل أبا عائشة الوهمي في المرحاض. حينها شرع يتخلص من كل ما يربطه بأبي عائشة، حلق لحيته الطويلة تدريجيا، وتخلص من جلبابه بلباس عصري.

بعد خروجه من السجن لم يتخلص من مرض انفصام في الشخصية، بل تفاقم هذا المرض، كانت شخصيته الثانية تغار من شخصيته الأولى التي كانت تتسم بالحظوة بين الناس وبتعظيم الناس له، فأرادت شخصية حسام أن تكون مثل شخصية أبي عائشة لكن في اتجاه آخر، لذلك أخذ ينفخ شيئا فشيئا في شخصيته الجديدة وذلك بدفن شخصيته الأولى، فكلما ابتعد عن شخصية أبي عائشة انتفخت شخصية حسام بين الناس، ثم اعتقد أن دفاعه عن المرأة سيجعل منه شخصية أعظم، عقله الباطني اقترح عليه هذه الفكرة، لعل بها يعوض

فشله الذي كان عليه بعد أن فشل في قيادة الناس بأفكاره الأولى، فسلك ذلك الطريق.

تفاقم مرضه أكثر بعد خروجه من السجن فأصبحت له عقدة الشك من كل شيء، بل تحولت إلى هلوسات، حيث كان يعتقد أن الدولة قد خصصت رجلا رفيع المستوى لتَعقبه ومراقبته، فكان يراه في كل مكان معه، يراه رأي العين، وكان لا يفارقه في زعمه، وحتى لا يحتقر حسام ذاته أمام هذا المسؤول الكبير في الدولة، كان يُقنع نفسه أن ذلك الرجل إنما وظفته الدولة خصيصا له ليكون حارسه الشخصي حتى لا يقتله الإرهابيون في زعمه، وليس أن الدولة وضعته ليتجسس عليه وليحرسه حتى لا يرجع إلى ماضيه المتشدد.

استمرت شخصية العظمة تعيش في حسام يوما بعد آخر، لاسيما عندما فُتحت له القنوات ليتحدث من خلالها، والجمعيات التي تستقبله وترحب به، حتى وصل إلى حالة متدهورة من مرض انفصام في الشخصية، فكان يرى وهو يشارك في الندوات أو يُلقي محاضراته، كان يرى حقيقة أنه يخرج من قاعة المحاضرة ليحارب أعداءه، فيدخل على أئمة المساجد وخطبائها ويقتلهم، ويحارب بسيفه أو بمسدساته كل من يعارض أفكاره التي تخص المرأة، ثم يتخيل نفسه والناس يصفقون له، أنه عاد من معركته بعد أن هزم جيش الأعداء

وحده، كان يعيش ذلك حقيقة وإن كان في قاعة المحاضرة يُلقي محاضراته.

هكذا تعملقت شخصية العظمة أكثر في ذاته بعد أن استولت عليه أوهام العظمة، وهكذا استطاع أن يُعطي لشخصية حسام حقها بعد أن جعل لنفسه جمهورا جديدا يوافقه في آرائه ومواقفه، ويحضر دروسه ومحاضراته، بعد أن كانت شخصيته الأخرى تتمتع بذلك قبل دخوله السجن، وفي ذات الوقت كان يَحْظُر ويمنع في مواقع التواصل الاجتماعي كل من يخالفه الرأي حتى لا يُحس بذاته أنه مجرد شخص عاد مثلهم، فلا يريد لأحد أن يعيده لحجمه الطبيعي.

لكن بعد مجموعة من الصدمات الأخيرة التي وقعت له في حياته، منها علمه بأن ابنته حبلى ثم محاولة انتحارها، ثم تعرفه على ابنه وحيد، ثم تهديد روفيدا له بأشرطته الجنسية، وقبل ذلك رؤيته لأمه ثم موتها، ثم التقاؤه ببثينة التي كانت تحفظ أسراره وذكَّرته بماضيه، كل ذلك وغيره جعله يرى ذاته ضعيفا، وأن تلك العظمة تتلاشى، وأن الناس أفضل منه، وهو لا يريد أن يكون أحد خيرا منه، هذا كله عرَّضه لضغط عصبي رهيب، تجسد بداية في صمته الذي استمر أسابيع، ثم تحول إلى كلام غير مفهوم، ليصل به ذلك إلى حد الجنون بعد

أن كان يهذي ويتحدث ويقهقه دون معنى حتى انتهى به المطاف إلى نومه في المقابر.

أما لماذا لم يطلب من زوجه عفاف نزع نقابها، بل هو من كان يشجعها على ارتدائه، فلأنه رأى فيها أنها حفظت عرضه بعد أن أهملها، وعفَّت نفسها بعد أن خانها، بل رأى فيها أنها ضحت بحياتها من أجله، ولم تغدِر به أو تطلب منه الطلاق وهو في سجنه، لذلك أفتى له عقله أن ما يمكنه فعله ليرد لها جميلها هو أن يتركها وشأنها تختار ما تريده في حياتها، ولمَّا علم أنها تحب نقابها كان يُشجعها على ذلك، ليُظهر لها أن ما تحبه يُحبه كذلك.

انتهى الطبيب النفسي من شرح الحالة التي كان عليها حسام، وبشرهم أنه في تحسن مستمر، فبعد أن قضى ستة أشهر من المعالجة يُرجّح أن يتعافى تماما من مرضه خلال الأسابيع المقبلة وسيخرج من المصحة النفسية.

*****

زار وحيد وعفاف حسام في المصحة النفسية، وجداه بأحسن حال، بل وجداه أفضل من أي يوم آخر عاشه من قبل، يضحك ويبتسم، حتى الابتسامة الساخرة اختفت من وجهه، كأنها كانت ابتسامة سخرية من إحدى شخصياته على الأخرى، فلما اختفت

الشخصيتان معا، عاد حسام وهو شخص آخر أفضل مما كان سابقا.

أزفت الساعة التي سيخرج فيها من المصحة النفسية بعد أن تحسنت حاله كل التحسن، ارتدى وحيد أفضل ثيابه، واتصل بخطيبته جوري، طلب منها أن تقلهما بسيارتها إلى المصحة نفسية بمعية عفاف، وصلوا وقد امتلأت أفواههم وقلوبهم بالبهجة والسرور عندما ألفوا حسام مقبلا بقامته الطويلة عليهم، ابتسم لهم وعادت له الحياة من جديد، دخلوا الفيلا ليفاجئوه بالحفلة البسيطة التي أقاموها على شرفه وترحيبا بعودته، وتأسفوا لبساطة الحفلة، فلو أن أسيل التي ما زالت ترقد في المستشفى معهم لأعدوا له حفلة عظيمة تليق بمقامه.

شرع وحيد يُفرغ شراب العصائر في الكؤوس، أوقفه حسام مبتسما.

ـ انتظروا عندي لكم مفاجأة.

توقف وحيد عن إفراغ شراب العصير، وتوقفت جوري وعفاف عن تقطيع الحلوى، نظروا إلى بعضهم البعض مبتسمين ومتلهفين لمعرفة نوع هذه المفاجأة التي حضرها حسام لهم.

توجه حسام إلى غرفته، بينما جلس الثلاثة على الأريكة ينتظرون قدومه ليفصح لهم عن مفاجأته، ذهبت بهم عقولهم مذاهب كثيرة، كل منهم يخمن في نوع المفاجأة التي أعدها لهم حسام، لكن مر وقت طويل ولم يرجع بعد، انتظروا أكثر، لا يمكن أن يتأخر كل هذا الوقت! توجهت عفاف نحو غرفتها لترى أمر حسام، لعله تعب ونام ونسيهم ينتظرون.

ما إن ولجت عفاف الغرفة حتى سمع وحيد وجوري صرخة مرعبة هزت جدران قلبيهما، ثم انطفأت الصرخة وخمدت كأنها لم تكن، جرى وحيد وجوري ليجدا عفاف مغمى عليها على عتبة الباب، رفعا رأسيهما فوق الباب إلى داخل الغرفة ليجدا حسام معلقا في مروحة سقف الغرفة وقد شنق نفسه، وخمدت حركته.

أعادت جوري صرخة عفاف لكن دون أن يُغمى عليها، وضعت كفيها على فمها تحبس شهقتها، أما وحيد فلم يطرف له جفن، نظر أسفل قدمي حسام حيث كانا يسبحان في الهواء، فرمقت عيناه ورقة مكتوبة، أخذها وحيد وقرأ ما فيها.

"إذا ماتت العظمة فلا معنى أن يبقى حسام على قيد الحياة

2028/05/16".

تمت بحمد الله

للتواصل مع الكاتب

الحساب الفايسبوكي:

HTTPS://WEB.FACEBOOK.COM/HADOUCH

BOUJAM3A

الإميل: BOUJAMAA.HADOUCH@GMAIL.COM